تاريخ العرب

من البدايات وحتى عصرنا الراهن

الجزء الأول

ألف عام قبل الميلاد إلى منتصف القرن السادس عشر

تأليف : فريق من الباحثين

برئاسة : البروفسور د. لوثر راتمان

ترجمة : د. ضرغام الدباغ

المركز العربي الألماني

Deutsch Arabisches Zentrum

تاريخ العرب

من البدايات وحتى عصرنا الراهن

الجزء الأول : ألف عام قبل الميلاد إلى منتصف القرن السادس عشر

تأليف : فريق من الباحثين

برئاسة : البروفسور د. لوثر راتمان

ترجمة : د. ضرغام الدباغ

الطبعة الأولى

صادرة عن : المركز العربي الألماني / برلين 2021

المطبوع رقم (59)

يوزع مجاناً

العنوان الأصلي للكتاب :

Geschichte der Araber

Von den Anfängen bis zur Gegenwart

Verfasst von einem Autorenkollektiv unter Leitung von:

Prof. Dr.Phil. Habil . Lother Rathmann

مؤلف من قبل فريق باحثين برئاسة :

بروفسور د. هابيل. لوثر راتمان

فريق المؤلفين للأجزاء الأربعة عشر هم الأساتذة، الدكاترة :

لوثر راتمان	Luther Rathmann
آرمين برنر	Armin Börner
يورغن براندت	Jürgen Brand
غيرهارد غيب	Gerhard Höpp
غيرهارد هوفمان	Gerhard Hoffmann
مانفرد مولر	Manfred Müller
هولغر برايسلر	Holger Preissler
ديتر بيلمان	Dieter Bellmann
غيرهارد غيرت	Gehard Gerth
فتاح هيكل	Fattah Haikal
أنجريد ميردل	Ingrid Märdel
هيلموت نيمشوفسكي	Helmut Nimschowiski
أيلزا ريشتر	Ilse Richter
زيغفريد ريشتر	Siegfried Richter

فهرس الجزء الأول

إهداء المترجم .....:.....06
مقدمة المترجم.....08
مقدمة المؤلفين..... 11

الفصل الأول : العرب قبل الإسلام 1000 **ق.م إلى** 600 **م 14**

1. الأنباء التاريخية المبكرة.....15
2. دول المدن العربية الجنوبية.....22
3. تأسيس الدول العربية الشمالية في العصر الهيليني ـ الروماني. 30
4. العرب بين البيزنطيين والفرس..... 35

إجمالي الفصل.....45

الفصل الثاني : الإسلام وظهور نظام الخلافة 600**م إلى** 661 **م 47**

1. مهبط الإسلام.....48
2. محمد والإسلام..... 51
3. الفتوحات الأولى.....62
4. الصراع على الخلافة. 70

إجمالي الفصل.....72

الفصل الثالث : الإمبراطورية الأموية 661 **م إلى** 750 **م.....73**

1. توطيد السلطة..... 74
2. فتوحات جديدة..... 77
3. العلاقات الداخلية.....80
4. حركات وانتفاضات.....84
5. صعود العباسيين.....87

إجمالي الفصل.....89

الفصل الرابع : ازدهار الإمبراطورية الفارسية 750**م وحتى أواسط القرن التاسع.. 90**

1. ذروة السيادة العباسية.....92
2. الإدارة..... 95
3. الحياة الاجتماعية والاقتصادية.....96
4. تطور التعاليم الإسلامية.....100
5. ازدهار العلوم والثقافة.....102

إجمالي الفصل.....107

الفصل الخامس: سقوط الدولة العباسية، أواسط القرن التاسع حتى أواسط القرن الثالث عشر.....108

1. حركات شعبية..... 109
2. انتصار التجزيئية الإقطاعية..... 113
آ/ الطولونيون والإخشيديون.....113
ب/ الحمدانيون.....114
ج/ البويهيون.....115
د/ الفاطميون.....117
و/ السلاجقة.....120
3. الحملات الصليبية.....124

إجمالي الفصل.....129

الفصل السادس : تأسيس الدولة العربية الإسلامية في شمال إفريقيا وإسبانيا(النصف الأول من القرن الثامن، حتى النصف الثاني من القرن السادس عشر).....130

1. شمال إفريقيا بعد الفتح العربي..... 131
2. سيادة الأغالبة.....133
3. الأمويون في إسبانيا.....135
4. الأسر البربرية في شمال إفريقيا وإسبانيا.....139
5. شمال إفريقيا حتى الفتح العثماني..... 144
6. الثقافة العربية الإسلامية وأوربا..... 149

إجمالي الفصل.....154

إهداء المترجم

الرسول العظيم محمد بن عبد الله (ص) وآله وأصحابه والتابعين وفي المقدمة منهم خلفاؤه الراشدين الأبرار: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي.

*** إلى قادة الفتح والتحرير، منهم :**
زيد بن ثابت، جعفر بن أبي طالب، عبد الله بن رواحة، خالد بن الوليد، سعد بن أبي وقاص، أبو عبيدة الجراح، زيد بن أبي سفيان، شرحبيل بن حسنة، عكرمة بن جهل، المثنى بن الحارثة الشيباني، عمرو بن العاص، النعمان بن مقرن، عياض بن غنم، زهرة بن حوبة، القعقاع بن عمرو التميمي، الأحنف بن قيس التميمي، المهلب بن أبي صفرة، قتيبة بن مسلم الباهلي، محمد أبو القاسم الثقفي، أبوعبيدة الثقفي، عقبة بن نافع، موسى بن نصير، طارق بن زياد، عبد الرحمن الغافقي، عبد الرحمن الداخل (صقر قريش)، صلاح الدين الأيوبي.

*** أئمة الشرع :**
الإمام جعفر الصادق، الإمام مالك بن أنس، الإمام أبو حنيفة النعمان، الإمام الشافعي، الإمام أحمد بن حنبل.

*** عباقرة الحضارة العربية الإسلامية، منهم :**
النابغة الذبياني، عنتر بن شداد، امرؤ القيس، زهير بن أبي سلمى، جميل بثينة، عمرو بن كلثوم، قس بن ساعدة، ابن اسحاق، ابن هشام، الطبري، المسعودي، ابن كثير، الماوردي، الجاحظ، القاضي أبو يوسف، الحسن البصري، واصل بن عطاء، عمرو بن عبيد، الأشعري، الغزالي، ابن رشد، الفارابي، ابن سينا، الواسطي، تقي الدين بن تيمية، ابن خلدون، الكندي، ابن الأزرق، ابن أبي الربيع، ابن الجوزي، ابن الهيثم، ابن البيطار، ابن النفيس، أبو الطيب المتنبي، أبو العلاء المعري، أبو تمام، الفرزدق، جرير.

*** القادة، منهم :**
أحمد عرابي، سعد زغلول، جمال عبد الناصر، عبد المنعم رياض، أحمد إسماعيل علي، أحمد حمدي.
فيصل الأول بن الحسين، عبد المحسن السعدون، صلاح الدين الصباغ، يوسف سلمان يوسف، فؤاد الركابي.
يوسف العظمة، سلطان الأطرش، ساطع الحصري، زكي الأرسوزي، ميشيل عفلق، عدنان المالكي، خالد بكداش، عمر الأبرش، رفيق حلاوة.
عبد الكريم الخطابي، المهدي بن بركة.
عبد الله السلال، عبد الفتاح إسماعيل.
عبد القادر الجزائري، عبد الحميد باديس، مصالي الحاج، أحمد بن بلّة، هواري بومدين، جميلة بوحيرد.
علي عبد اللطيف، عبد الخالق محجوب، الشفيع أحمد.
عمر المختار.
الإمام محمد عبد الوهاب، الشريف حسين بن علي.
عزالدين القسام، أمين الحسيني، عبد القادر الحسيني، ياسر عرفات، جورج حبش، غسان كنفاني، الشيخ أحمد ياسين، فتحي الشقاقي، محمد عباس أبو العباس،

ضافي جمعاني، حاكم الفايز، محمود المعايطة، سليمان النابلسي، فراس عجلوني.
الحبيب بورقيبة، صالح اليوسفي، عبد العزيز الثعالبي، فرحات حشاد.
معروف سعد، كمال جنبلاط، رشيد كرامي، جورج حاوي. رفيق الحريري

*** شهداء وأبطال خالدون، منهم :**
وليد عبد اللطيف السامرائي: طيار عراقي استشهد في سماء سيناء.
مصطفى أبو دبوسة: ضابط في جيش التحرير الفلسطيني، استشهد في موقعة تل الفرس
مزيد أبو فتنة: ضابط مدرعات سوري، الجولان/ 1973
سليمان الحلبي: ثائر سوري قتل الجنرال الفرنسي كليبر في مصر.
جول جمال: ضابط سوري استشهد في البحرية المصرية.
سمير زينل: طيار عراقي استشهد في الطيران السوري.
فائز منصور: طيار سوري استشهد في سماء لبنان.
حسين نايف:عراقي، ضابط مدرعات/ الجيش العربي السوري، استشهد على أرض الجولان.
رفعت الجمال(جاك بيثون) رجل مخابرات مصري.
سليمان خاطر : شرطي مصري.
بسام حمشو : طيار عربي سوري، أسقط أسطورة تفوق العدو التكنيكية.
سناء المحيدلي : فدائية لبنانية استشهادية.
محمد الدرة : طفل فلسطيني استشهد في سن الطفولة.
فراس عودة : طفل فلسطيني قاتل دروع العدو بالحجارة.
د. يحيى المشدّ : عالم مصري استشهد من أجل العراق.

*** تحية إلى الأبطال من أقطار العالم جاؤوا إلى وطننا ومنهم من قرر البقاء فيه إلى الأبد، منهم :**
الرائد شوقي وأبطال الكتيبة اليوغسلافية / 1948، الخبراء السوفيت في مصر وسورية، أبطال المدرعات الكوبيين/ 1973، الطيارون الكوريون/1973، الطيارون الباكستانيون، أكموتو الياباني ورفاقه، باتريك الأمريكي، كارلوس الفنزويلي.

*** إلى بناة :**
سد مأرب، المدرسة المستنصرية، جامع الملوية في سامراء، القصر العباسي، جامع الأزهر، جامع القيروان، جامع الزيتونة، قصر الحمراء، جامع قرطبة، جامع السلطان حسن/ مصر، المسجد الأموي، جامع قبة الصخرة، عمال حفر قناة السويس، بناة السد العالي، عمال أعادة تعمير العراق،

*** إلى أبطال المعارك الملحمية الخالدة :**
ذي قار، القادسية، حديقة الموت، اليرموك، أجنادين، نهاوند، حطين، عين جالوت، بلاط الشهداء، أبطال المرابطون، معركة أنوال، واحة الكفرة، الجبل الأخضر، معركة التل/مصر، أوراس، حي القصبة/ الجزائر، عبور قناة السويس 1973، تحرير الفاو 1988، ثورة الحجارة، الأبطال الاستشهاديون / فلسطين، بيروت1982، أبطال قلعة الشقيف، بورسعيد 1956، التجريدة المغربية 1973/ الجولان، حصار صنعاء 1966، إنزال كفر نفاخ 1973، معركة الكرامة 1968، الجيش المصري في القنطرة 1967، جزيرة شدوان، عملية إيلات 1969، إنزال جبل الشيخ 1973، إنزال تل الفرس 1973، أبطال التصنيع العسكري العراقيين.

*** إلى الأدباء والفنانين والمبدعين الذين ساهموا بأعمالهم في وحدة الأمة، منهم :**
معروف الرصافي، جميل الزهاوي، محمد مهدي الجواهري، بدر شاكر السياب، نازك الملائكة، عبد الرزاق عبد الواحد، عبد الوهاب البياتي، شفيق الكمالي، جواد سليم، فائق حسن، خالد الرحال، نزار القباني، علي أحمد سليمان، محمد الماغوط، ممدوح عدوان، عمر أبو ريشة، محمد على شمس الدين، إيليا أبو ماضي، جبران خليل جبران، محمود درويش، توفيق زياد، سميح القاسم، أحمد شوقي، صلاح عبد الصبور، أحمد عبد المعطي حجازي، البارودي، جمال السكاكيني، يوسف شاهين، يوسف إدريس، محمد عبد الوهاب، فريد الأطرش، عبد الحليم حافظ، حسن الإمام، صلاح أبو سيف، نجيب الريحاني، يوسف وهبي، أمينة رزق، محمود ياسين، نور الشريف، عمر الشريف، فريد شوقي، محمود المليجي، رياض السنباطي، أحمد رامي، بيرم التونسي، أم كلثوم، بليغ حمدي، وردة الجزائرية، فائزة أحمد، صباح فخري، ناظم الغزالي، عوض دوخي، فيروز، نصري شمس الدين، عاصي الرحباني، أحمد سعيد(مدير إذاعة صوت العرب)، نجيب محفوظ، إحسان عبد القدوس، مسعود الشابي، مالك حداد، عبد الله البردوني، الطيب صالح، حنا مينا، محمد حسنين هيكل، غسان تويني، سعيد فريحة، قاسم حمودي، جرجي زيدان، الطاهر وطار، محمد الفيتوري، فاروق الباز، مجدي يعقوب ، محمد الطرابلسي، عبد اللطيف أبو هيف، يوسف العاني، إبراهيم جلال، جعفر السعدي، إبراهيم جلال، سعد الله ونوس، دريد لحام، منير بشير، فائق حسن، حافظ إبراهيم، رفاعة الطهطاوي، عباس محمود العقاد، ميخائيل نعيمة، أبي خليل القباني، قاسم أمين، محمد كرد علي، عبد الرحمن الكواكبي، محي الدين باش، رشيد قسطنطيني، آسيا داغر، محمد كريم، طه حسين، البشير الإبراهيمي، بدوي الجبل، بشارة الخوري، محمود مختار، محمد ناجي، توفيق طارق، سيد درويش، ملا عثمان الموصلي، د. سمير أمين، د. فؤاد مرسي، د. محمد سلمان حسن، د. خير الدين حسيب، عبد الله الطريقي، سيد قطب، على عبد الرازق، محمد عبدة، جمال الدين الأفغاني، عبد الباسط عبد الصمد، عبد الفتاح الشعشاعي، نوال السعداوي، مصطفى فروخ، ليليى بعلبكي، فدوى طوقان، معين بسيسو، كمال ناصر، ناجي العلي، د. علي الوردي، زها حديد،

مقدمة المترجم

بسم الله الرحمن الرحيم

عزيزي القارئ أينما كنت في أرجاء الوطن العربي الكبير

يسرني أن أتقدم إليكم بهذا المؤلف الكبير مترجماً عن اللغة الألمانية، والذي هو في الواقع عبارة عن جهد ضخم قام به مجموعة من العلماء والأساتذة الألمان بجامعة لايبزج في مطلع وأواسط السبعينات كفريق بحث من خيرة المستشرقين والأخصائيين في الشؤون العربية.

وإذ من المعروف أن حركة الاستشراق والأبحاث الشرقية عموماً والعربية الإسلامية بصفة خاصة، ليست أمراً غريباً عن الألمان الذين طالما أتحفوا المكتبة العربية بالكثير من الأعمال التي تبحث في التاريخ العربي الإسلامي. والتي سيجد القارئ جانباً من الأساسي والمهم منها في قائمة المراجع، فإنه يمكن القول أن المستشرقين الألمان يتفوقون على أقرانهم من الأوربيين ويمتازون عنهم ليس بسعة الإطلاع والمتابعة والدقة فحسب، بل بالإنصاف والموضوعية في تناول قضايا تاريخ العرب والإسلام، كما في هذا العمل. ومن خلال الاستعانة بكم هائل من المصادر (باللغات الألمانية والإنكليزية والفرنسية والروسية والعربية والإيطالية ولغات أخرى) بعضها غير معروفة للمؤرخ العربي، ربما تنشر للمرة الأولى مثل : وثائق القيادة العامة للقوات المسلحة في ألمانيا، ووثائق وزارة الخارجية النمساوية، ورئاسة أركان الجيش الإمبراطوري النمساوي، نأمل أن يكون كل ذلك معيناً للباحثين والمؤرخين والطلبة والمثقفين بصفة عامة.

وأغلب الظن أن هذا الكتاب هو من المصادر الأوربية النادرة التي تتناول تاريخ العرب بوصفه تأريخاً موحداً لأمة واحدة، ذو تأثيرات متبادلة وظواهر ذات طابع جماعي في أقطار العرب كافة من المحيط الأطلسي حتى الخليج العربي، ثم إنه من الكتب النادرة مرة أخرى إذ يضم ربطاً موضوعياً وعلمياً محكماً بين التطورات على أصعدتها المختلفة اقتصادياً وثقافياً واجتماعياً، بالطبع إلى جانب الأحداث السياسية/العسكرية، وتحليل دقيق للاتجاهات الثقافية والحضارية بما في ذلك : الشعر ـ المسرح ـ الفنون التشكيلية ـ السينما ـ أنظمة التعليم في الأقطار العربية، وفي كل ذلك يدور البحث عن تاريخ العرب القديم والحديث، ونهضتهم كأمة واحدة، وإن أي حدث سياسي، أو ثقافي، أو اقتصادي، كان يجد له صداه بصفة تبادل التأثير بين أقطار المغرب أو المشرق العربي حتى في القرن السابع عشر.

والكتاب يضم حشداً واسعاً من الحقائق الدقيقة الموضوعية المجردة، كما أن هناك تحليلاً، أغلبه صائب، يطابق أو يتقارب مع وجهات النظر السائدة في بلادنا، ولكن هناك بالمقابل وجهات نظر غير مألوفة في الثقافة العربية ولكنها تستحق فعلاً التأمل الجاد. لذلك فإن هذا العمل، شأنه شأن الأعمال الفكرية سيجد معجبين مقرضين له، وناقدين ساخطين عليه. وقد آثرتُ في جميع الأحوال أن أتجنب ما يفعله الكثير من المترجمين، إذ يحشرون هوامشهم في أصل الكتاب وحاشيته بمناسبة أو بدونها، معلقين على الأحداث وعلى عمل المؤلف مصوبين أو مخطئين له. فقد تجنبت تماماً أي تدخل مهما كان صغيراً إذ ليس من أهدافي منح الكتاب قيمة إضافية أو الحطّ من قيمته، وحسبي أني يسرت لمن لا يعرف الألمانية قراءة هذا العمل الهام تاركاً له حرية

القرار واكتشاف ما يراه صائباً أو غير ذلك إلا ما ورد بين قوسين مع عبارة (المترجم)، علماً بأني أضفت حيثما ورد اسم النبي محمد(ص) كلمة الرسول إجلالاً لاسم النبي الكريم.

وإذا كان لي من كلمة مقتضبة أضع فيها حصيلة لهذا الكتاب، هي أن القارئ سيتوصل إلى قناعة سوف تتشكل تدريجياً عبر أجزائه الأربعة، أن لهذه الأمة القدرة على احتمال الآلام واستيعاب النكبات وأيضاً اجتراح المعجزات والبطولات فوق ما هو معروف ومألوف، والقدرة على إدامة زخم الحياة والصراع والتحدي. فليست مصادفة أبداً أن انتهت هنا عبر الحقب والعصور، إمبراطوريات وقوى عظمى جاءت إلينا بكل ثقلها العسكري والاقتصادي والثقافي، وتحت وهم الاعتقاد بأنها ستلتهمنا لنصبح خيوطاً رفيعة في نسيجها الثقافي والحضاري، ولكن هذه القوى فشلت وتحطمت، ثم تلاشت، بل أن بعضها غاب نهائياً وكف عن الوجود، وأخرى تهشمت قبضاتها على الأبواب الفولاذية لأسوار هذه الأمة التي تضم بين جنباتها وفي أحشائها ثراءً روحياً ونفسياً عميقاً يمنحها تلك القوة الرهيبة على المطاولة.

ومن ذلك أيضاً، سيدرك القارئ المحترم، أنّ الأمّة العربية وبقواها الذاتيّة البسيطة والمحدودة، مفتقرة (في عصور انحطاطها) إلى التعبئة والتنظيم والتنسيق بين قواها، قد تصدّت وبكفاءة مذهلة لهجوم عسكري واقتصادي وسياسي وثقافي عاتٍ مدمّر، وألحقت به هزيمة وفشلاً ذريعاً ومنقطع النظير، بأساليب وأدوات بدائيّة أقرب إلى العفويّة والغريزية كما فعل أبطال الريف المراكشيين بقيادة عبد الكريم الخطابي والقائد العظيم عبد القادر الجزائري والبطل الأسطوري عمر المختار، وكيف صمد أبطال شعب اليمن بوجه موجات من الغزاة، والعراقيون أبناء الرافدين في ثورة العشرين، والسوريون بوجه الفرنسيون. إنّ ذلك لم يكن ليحدث ما لم تكن هناك قوى ذاتيّة كامنة ذات شحنة هائلة تمكّنت بها من صدّ تلك الهجمات، بل وتحقيق انتصارات مهمّة مكّنت العرب من تشكيل دولاً حديثة في وقت قصير نسبيّاً، وإنّني هنا أدعو القارئ الكريم أن يطّلع بعمق على فعاليات القوى الاستعمارية المختلفة التي حلّت في أقطار أمّتنا العربية، السياسية منها والاقتصادية والثقافية، ومنها سوف يستخلص نتائجها وملاحظات بالغة الأهمية. ويستحقّ التذكير بأنّ جوهر الاستعمار والإمبريالية لم يطرأ عليه تغيّر كبير، حيث ظلّ قائماً بالدرجة الأولى في جوهره على القمع والنهب والاضطهاد، وإنّ ما تغيّر هو الأساليب العملية ليس إلّا. ومن هنا أيضاً نستطيع أن نقرّر بصفة حاسمة أن هذا العمل الكبير سيكون مؤثّراً وفاعلاً في وعي أجيالنا الحديثة.

وأودّ هنا أن ألفت انتباه القرّاء الكرام، أنّني التزمت بدقّة شديدة ترجمة المصطلحات والجمل ذات المغزى السياسي والاجتماعي والثقافي والاقتصادي، فمن المعروف عن العلماء الألمان الدقّة والصرامة في استخدام المصطلحات والمسمّيات. وقد قبلنا التضحية أحياناً برشاقة الصياغة اللغوية من أجل تقديم ترجمة علمية دقيقة تقرب إلى الأذهان ولا تعقّد على القارئ فهم المفردات والمصطلحات التي بذاتها يصعب ترجمتها، فهناك بعض المقاطع في الكتاب، مدوّنة أساساً بلغة ألمانية أكاديمية رفيعة المستوى، صعبة الفهم لمن هو بعيد عن أبحاث ودراسات كهذه. ومع حرصنا الشديد في دقّة النقل كنّا نواجه صعوبة بالغة في تقريب العبارات بما لا يشكّل خللاً في النصّ الأصلي، كما أنّني اضطررت إلى تجنّب شرح المصطلحات والأحداث والأسماء في الهوامش، ففي هذه الحالة كان الأمر سيحتاج إلى أضعاف هذه المجلدات الأربعة. ولكن يرجى الانتباه بصفة خاصة إلى المغزى التاريخي لمصطلحات مثل : حكومة، دولة، نظام، طبقة، فئة ..الخ، أو مثل جيش، قوات مسلحة، قوات، وحدات، كما يجدر الانتباه إلى أسماء الدول والبلدان.

إنّني أتقدّم إلى القارئ الكريم بالرجاء والعذر فيما نكون قد أخطأنا به من ترجمة للآلاف(3800/3600 اسم) من الأسماء الواردة في نصّ الكتاب (أسماء شخصيات، مدن، معارك، مواقع، أسماء كتب..الخ) بحروف لاتينية. ومن الطبيعي أن يكون الكثير منها معروف لنا، ولكن هناك العديد من الأسماء لشخصيات غير مشهورة ومواقع مندرسة وتشكيلات منقرضة. ورغم استعانتنا بالخرائط القديمة ومراجع التاريخ القديم، إلا أنّني لست متأكّداً بأنّي لم أرتكب هفوة هنا وخطأ هناك، وتلك مشكلة اهتديت إلى حلّها وذلك بكتابة الاسم باللغة العربية إضافة إلى كتابتها كما وردت بالحروف اللاتينية.

وأخيراً لا يفوتني أن أتقدّم بالشكر إلى الصديق د. قحطان عبد سعيد السامرائي، الذي أعارني نسخته الشخصية من الكتاب، كما يستحقّ الأخ خضير حسين صالح الجبوري الشكر بصفة خاصة لمراجعته مسودّة الكتاب ولتصويباته اللغويّة، وإلى عدد من الأخوان والأصدقاء الذين كان لوجودهم ولطفهم أثر في منح تلك الأيام والتجربة عذوبتها.

تواجدت يوماً في موقع للجيش العربي السوري، فشاهدت هناك جنديّاً يجلس خلف مدفعه المضاد للطائرات، مرتدياً خوذته الفولاذية وكانت حرارة الجوّ مرتفعة، وكان العرق يتصبّب من هذا الجنديّ الباسل، فتأمّلت، كم نحن مدينون للجنديّ، الجنديّ العربي منذ الفتوحات وحتى اليوم.
نعم نحن مدينون للجندي العربي ديناً لا يردّ ..!

لذلك، إنّني أقف بكلّ احترام وإجلال، وأهدي هذا الجهد المتواضع إلى الآلاف من الأبطال المشهورين والمجهولين في تاريخ أمّتنا الثري، وحيثما يرقدون تحت ثرى هذه الأرض المقدّسة... من المجاهدين والجنود والمناضلين، وقبل كلّ شيء لمن تطوع من بلدان صديقة وقاتل في صفوفنا وهم يرقدون اليوم تحت ثرى بلادنا... سيبقون ضيوفاً عندنا إلى الأبد ...
ثم أوّلاً وأخيراً لشعبنا وأمّتنا العظيمة هذا الجهد وكلّ جهد كان وكلّ جهد سيكون...

من أجل إغناء الثقافة العربية
من أجل إدامة الثراء المادّي والمعنوي لأمّتنا..

المترجم
أبو غريب / أواسط أيار
1993

مقدّمة المؤلّفين

ابتدأ العرب في العقدين الأخيرين بكتابة صفحات جديدة في تاريخهم الحديث، إذ عادوا واحتلّوا مكانتهم في تيار النضال العريض لحركة التحرّر العالمية، فحطّموا بذلك حلقات العبودية، وانضّموا إلى المسيرة العالمية ضدّ الاستعمار، تلك التي كانت ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى عاملها الرئيسي، ومنها ابتدأت مرحلة تلاحم القوى المعادية للاستعمار والهادفة إلى تحرير الشعوب. فكان النضال العربي يتصاعد من أجل التحرّر وتقرير المصير، إذ تدور في مساحة الأقطار العربية البالغة 12,5 مليون كيلومتر مربع، حركة نضال تهدف إلى تحقيق الاستقلال والسيادة، وتساهم بنشاط في النضال العالمي، فطرحت حركة التحرّر العربية نفسها بقوّة في السياسة الدولية.

وتتمسّك الأقطار العربية المتحرّرة بحقوقها غير القابلة للإهمال أو التغافل التي يحاول الاستعمار عرقلتها وإعاقة الجهود من أجل إيجاد حلول للمشكلات عن طريق التطوّر الاجتماعي والتقدّم، وفي نضالها ضدّ الإمبريالية واعتداءاتها وفي الحفاظ على السلام العالمي بالتعاون مع معسكر التحرّر العريض.

إن العرب ينظرون ويتطلّعون بكبرياء وفخر إلى ماضيهم ذي التقاليد الثريّة، وهم الذين ينتمون منذ دخولهم في تاريخ العالم في القرن الأول قبل الميلاد، إلى تلك الشعوب التي قدّمت مساهمات عظيمة لا تُنسى من أجل التقدّم الاجتماعي للبشريّة، وقد مثّل الانتصار الذي قاده محمّد بن عبد الله(ص) وأكده الإسلام في القرن السابع، المقدّمة لتوحيد جميع القبائل في شبه الجزيرة العربية في دولة واحدة، مثّلت مكّة والمدينة(يثرب) مركزين مهمّين لها.

ومن ذلك الحين فصاعداً، فإن خلفاء محمّد تمكنوا في موجات من الفتوحات، توسيع سلطانهم وسيادتهم حتى أواسط القرن الثامن في مساحة تمتد من ضفاف نهر الهندوس في الشرق حتى شبه جزيرة بيرنيه(إسبانيا) في الغرب ومن البحر الأسود في الشمال حتى الحافة الشمالية للصحاري في الجنوب، وبذلك كانت قد نهضت واحدة من أعظم الإمبراطوريات العالمية في تاريخ البشرية.

وبالنسبة للعلماء التقدميين، فليس ما يستدعي الانتباه هو الكم الوافر من الانتصارات في سوح المعارك، وإنما الخدمة التي قدمها العرب من أجل التقدم الاجتماعي للبشرية، وعندما كانت الحضارة والمدنية العربية الإسلامية قد وصلت إلى ذروتها، استطاعت أن تتوصل إلى نظام ري متعدد القنوات مثل أعلى درجات التطور في الإنتاج الزراعي، وكذلك في الاقتصاد التجاري، فيما مثّلت المصنوعات اليدوية، من منتجات الورش ولاسيما في صناعة السجاد، النسيج الراقي العالي التطور، وكذلك في إنتاج الجلود التي كانت لها أهميتها في العالم بأسره، كما ترجم أساتذة عرب أعمالاً باللغات اليونانية، اللاتينية، الهندية، فضاعفوا بذلك من حجم العلوم والمعارف التي كانت بحوزتهم في تطور مضاعف للعلوم. فوضعوا حجر الأساس للكثير من الميادين الرئيسية في العلوم، ودوّنوا ما كان معروفاً لديهم في تلك الأزمنة في أعمال وكتب موسوعية، ولذلك أصبحت اللغة العربية لغة عالمية، فانتشرت الحروف العربية مع الإسلام إلى شعوب وبلدان غير عربية، كما حاز فن الشعر العربي على درة الأدب العالمي، فيما تؤشر

اليوم جوامع ومساجد في دمشق والقدس وقرطبة كشواهد لامعة لفن المعمار العربي. وباختصار، فإن الثقافة في العصور الوسطى للدولة العربية قد أثّرت بشدة على التطور الثقافي لأوربا كما في آسيا وإفريقيا، وكوّنت إرثاً ثقافياً حيوياً لتلك الشعوب، وهي مؤثرة في الهياكل التقليدية في حياتهم حتى وقتنا الحاضر.

لقد سقطت الإمبراطورية العربية العالمية، وتجزأت إلى عدد من الأقطار، ومارس أعداؤها الضغوط لكي تمنعها من النهوض. فمن موجة الحملات المغولية في القرن الثالث عشر، إلى عصر السيادة التركية ـ العثمانية في الأقطار العربية منذ بداية القرن السادس عشر، كانت تعني أيضاً نهاية التطور المعتمد على الذات، كما أنها عطلت المسيرة التقدمية الناجحة للثقافة والإرادة العربية وكانت السبب في الجمود الذي أصاب العلاقات الاجتماعية والاقتصادية.

ولكن العرب لم يكفّوا مطلقاً عن الثورة بوجه هذه الأقدار، ومع أن المغول كانوا يبدون وكأن لا شيء قادر على إيقافهم وقهرهم، وكذلك فرسان الحروب الصليبية وقوات المرتزقة الإسبان، أو جنود السلطان التركي، فقد توجب على العرب الكفاح من أجل الحرية، فخاضوا النضال ضد القوى الرجعية والإقطاعية في بلدهم، كما لم يشأ العرب القبول بالاضطهاد تحت شعارات دينية، إذ قد يكمن تحت هذا الشعار أو ذاك اضطهاد مستتر لأقليات أو لفلاحين مضطهدين أو كسبة وعمال فقراء.

وقد برز في صفوف الفكر الإسلامي مفكرون عقلانيون(المذهب العقلاني في الفلسفة Rationalism ـ المترجم) وفلاسفة ومدارس فكرية كالمعتزلة مثلاً، والفارابي، وبذلك يمكن القول أن الحركات الفكرية والتقدمية في تاريخ العرب والإسلام كانت نشيطة.

وبدأت المرحلة الجديدة القاسية في نضال العرب من أجل الحرية منذ مطلع القرن التاسع عشر، عندما طرحت القوى الاستعمارية نفسها كوريثة للدول العثمانية، (الرجل المريض)، وكانت جيوش نابليون قد غزت غداة تحول القرن الثامن عشر إلى القرن التاسع عشر مصر وسوريا، وبعد ذلك بسنوات قليلة، هددت السفن الحربية البريطانية سواحل البحر الأحمر والخليج العربي. وحتى اندلاع الحرب العالمية الأولى، كان الشمال الإفريقي بأسره قد سقط في قبضة الاستعمار الفرنسي والبريطاني والإيطالي، بينما كان المشرق العربي قد غدا مسرحاً للعمليات الحربية للقوى الإمبريالية في مسعى تقسيم جديد للعالم.

وكان الوضع الجديد الذي تمكن فيه المستعمرون والإمبرياليون من ترسيخ أقدامهم، دافعاً من أجل ثورة العرب ضد الأعداء الجدد الأقوياء، سواء في الجزائر بقيادة القائد العظيم عبد القادر الجزائري، أو في الجبال الوعرة للمغرب(مراكش) الريف، أو في جبل العرب(سورية)، أو على حافة الصحراء الليبية، أو في المدن العربية الكبيرة حيث يعم الفقر، أو على ضفاف النيل بقيادة أحمد عرابي. ففي كل مكان هبت فيه الجماهير العربية بالنضال من أجل الحرية مقدمين ضحايا يصعب تقديرها في نضال غير متكافئ مع عدو ذو تسليح متفوق. ولم تكن كل هذه لتثني العرب عن نضالهم، بل وأن كل ذلك قد مثل في النهاية، الطريق إلى النجاح ونقطة الانطلاق لحركة التحرر العربية المعادية للاستعمار التي نالت دعماً مهماً بعد ثورة أكتوبر 1917 مستفيدة من التناقض والصراع بين الاشتراكية والرأسمالية. ومن المنطقي أيضاً، أن النضالات الداخلية التي كانت تشهدها الأقطار العربية، أدخلت العرب في الخمسينات والستينات من هذا القرن في مرحلة جديدة.

وقد تميزت هذه المرحلة ببروز أقطار عربية ذات توجهات تقدمية حققت مكتسبات هامة لحركة التحرر العربية، التي بدأت نمطاً جديداً من النضال من أجل التحرر من الاستعمار وآثاره، والتي تمثل علامة هامة في اتساع النضال العالمي ضمن العملية الثورية برمتها، وفي ذلك تقدم الشعوب العربية التي كانت في الماضي كنزاً للأفكار الإنسانية. واليوم يجددون مساهمتهم من أجل التقدم الاجتماعي، وقد اكتسبوا تجارب جديدة ضموها إلى تجارب الماضي.

عملاقة هي المهمات التي تواجهها الأقطار العربية المتحررة، والطريق أمامها طويل ومليء بالمخاطر، وإن محاولات الإمبريالية من خلال تكاثفها وزجها لأدوات جديدة بالإضافة إلى القديمة، واستخدام أساليب توسع جديدة مستخدمة القوة العسكرية المتفوقة للرجعية لتمارسها ضد الأقطار العربية التي تمكنت فعلاً من تحقيق نجاحات على كافة الأصعدة الاجتماعية، وهي تعمل من أجل إزاحة القوة التقدمية العربية واستخدام الأقطار العربية في مخططاتها التوسعية العدوانية.

إن مؤلفي هذا الكتاب، علماء، أساتذة، مدرسين مختصين في شؤون الأقطار العربية في قسم دراسات إفريقيا والشرق الأوسط بجامعة لايبزج، إذ يقدمون هذا العمل "تاريخ العرب" باللغة الألمانية لأول مرة انطلاقا من الفلسفة المادية التاريخية، كمساهمة من المختصين بالشؤون العربية في جمهورية ألمانيا الديمقراطية، في المجهود الفكري للعلماء العرب في مجال العلوم الاجتماعية، من أجل تحقيق صورة دقيقة عن التاريخ، وإنهم يهدون هذا الكتاب إلى الشعب العربي الشجاع، المجتهد، المحب للسلام، وإلى العبقرية العربية وإلى المناضلين من أجل تحرير بلادهم من الغرباء القادمين من الخارج، إلى هذا الشعب الذي يبني اليوم حياة جديدة.

إن مجموعة المؤلفين يعدون ذلك أمنية خاصة، في أن يساهم هذا العمل في إنارة الطريق أمام التواصل التاريخي للتطور الاجتماعي في نضال العرب ضد المغتصبين، وأن يكتسب نضالهم من أجل التقدم الحضاري والثقافي أفضل الفرص للنجاح. وقد اخترنا تقسيم تاريخ العرب إلى مراحل بصورة تختلف عما يفعله كتاب الغرب، انطلاقا من الفكر الرأسمالي الذي يتجاهل حتمية التطور الاجتماعي.
والمؤلفون إذ يطرحون الجزء الأول من كتاب"تاريخ العرب" فإنهم سيقدمون في الأجزاء اللاحقة التطورات التاريخية وحتى عصرنا الحاضر.

وفي الختام يتقدم رئيس فريق المؤلفين بالشكر إلى المساهمين : أرمين برنر، يورغن راندت، فتاح هيكل، غيرهارد هب، غيرهارد هوفمان، مانفرد مولر، هولغر برايسلر، الذين بذلوا كل جهد من أجل إنجاز هذا العمل، وإلى دار النشر الأكاديمية في برلين للجهد الطباعي، والشكر أيضا إلى سوني أوغست وغيرهارد هب اللذان عملا في إعداد المصادر ولائحة الأسماء، وإلى الزميلة بينكن شتاين من أجل جهدها في الكتابة.

نأمل أن يجد هذا العمل الاهتمام من الجمهور وكذلك النقد.

لوثر راتمان
لايبزج
شباط ـ فبراير / 1971

الفصل الأول

العرب ما قبل الإسلام

1. الأنباء التاريخية المبكرة.
2. دول المدن العربية الجنوبية.
3. تأسيس الدول العربية الشمالية والعصر الهيليني الروماني.
4. العرب بين البيزنطيين والفرس.

إجمالي الفصل

أولاً: الأنباء التاريخية المبكّرة

ما يزال عدم الوضوح يكتنف حتى اليوم تاريخ العرب قبل الميلاد، لذلك فإننا سوف لن نتطرق هنا إلى الكثير من ذلك، بل إلى النقاط الرئيسية التي تتضمن المؤشرات والتوجهات التاريخية الأولى.

وإذ يمكننا الانطلاق من حقيقة: أن اللغة العربية واللهجات، إنما تعود في أصلها إلى عائلة اللغات السامية، ومنها لنثبت ونقرر: **أن كافة المجاميع السكانية التي تتحدث اللغة السامية، إنما كانت قد نزحت عبر العصور من براري وواحات شبه الجزيرة العربية إلى مناطق المراعي على حافات الأراضي الصالحة للزراعة في شمال وشرق الصحراء العربية السورية. وهذا التجول والتحول من البداوة إلى التحضر والمدنية كانت، كما يشهد بذلك اهتمام الكتاب والمفكرين، عبارة عن حركة مستمرة لا تعرف التوقف.**

كانت هذه المجاميع تزحف من البوادي بصفة مستمرة على شكل من تحول سلمي، ولكن الأمر لم يكن يخلو بين الحين والآخر من تصادمات ذات طابع عنيف، بشكل شبه حربي، سواء في الصحراء العربية السورية أو في أرض ما بين النهرين القديمة. كما كانوا قد تمكنوا عبر العهود من تأسيس بعض المدن على سبيل المثال: أكد في 2000 ق.م في شمال بلاد النهرين، وبعد ذلك إلى الجنوب منها، إذ تأسست دولة أكد بقيادة سرجون في عام 2340 ق.م أول مملكة سامية كبيرة، ثم أعقب ذلك في نهاية القرن الثالث وبداية القرن الثاني قبل الميلاد، العموريون والكنعانيون، وفي الثلث الأخير من القرن الثاني دولة الآراميون. وكان العرب آخر وأهم المجاميع التي نزحت وغادرت شبه الجزيرة العربية إلى مناطق الرعي والواحات الخصبة.

ومن الاستنتاجات العامة للمراحل المبكرة من تاريخ العرب، والهجرات من شبه الجزيرة العربية، ما يسمح لنا بتشخيص خصوصيات الحياة والأنماط الاقتصادية لعرب البوادي التي يمكن تميزها عن كافة البدو الساميين: حيث كانت مرحلة تأسيس الوجود لسكان البوادي في القرنين الثاني والثالث ق.م تتمثل في مجاميع رعي صغيرة، حيث دخل البدو الأعراب إلى دائرة الأضواء في التاريخ، الذين كانت حياتهم مرتبطة أساساً بالحياة الرعوية وبتربية الجمال.
وينتمي الجمل ذو السنام الواحد الذي يعيش في شبه الجزيرة العربية على الأرجح إلى صنف جمال البدو، التي استخدمها العرب منذ نهاية القرن الثاني قبل الميلاد. وقد وجد أول ذكر واضح وجلي للجمل ذو السنام الواحد كحيوان يستخدم للامتطاء والتنقل، في تقارير تتحدث عن أعراب اقتحموا أقواماً في فلسطين. وقد حدث ذلك في النصف الأول من القرن الحادي عشر قبل الميلاد.

والجمل هو حيوان مهم في البرية والصحراء، وهو يتخذ من نباتات الصحراء الجافة مأكلاً له وكذلك من الحشائش ذات الحواف الحادة وحتى ذوات الإبر، والأغصان شبه الجافة ويشرب بقناعة المياه المالحة أو المرة, وهذا الحيوان القنوع يقدم كل ما تحتاجه حياة أعراب البوادي والصحاري من الضرورات في نقل البضائع إضافة إلى الحليب والوبر واللحوم والجلود والمواد المستعملة في الحرق(روث الإبل المجفف) والجمال أيضاً وقبل كل شيء هي واسطة

نقل وامتطاء لا تقدّر قيمتها بالنسبة إلى بدو شبه الجزيرة العربية بسبب سرعتها وقدرتها العالية على التحمّل وعلى قطع المسافات الصحراوية دون الحاجة إلى المياه. ومن خلال استخدام الجمال ذوات السنام الواحد(وهو الصنف الشائع في الصحاري والبوادي العربية)، توفرت الافتراضات الموضوعية للتوجه صوب مراع جديدة تتوفر فيها المياه وللاستدلال على مناطق غير تلك التي في وسط شبه الجزيرة العربية، وتحديد طرق المواصلات عبر واحات خصبة تتوفر فيها المياه.

وكانت المجاميع السامية من الرعاة البدو الأوائل، تستخدم الحمير كواسطة للنقل والحمل في مناطق الرعي بالقرب من مراكز المدن في بلاد ما بين النهرين. ولكن الإبل كانت لها ميزة لا تقدّر للبدو الأعراب في الصراعات الحربية، وذلك فيما يتعلق بسعة دائرة حركتها. فقد مكنت تلك الإبل مستخدميها من الأعراب في تعدد الأغراض ضمن الفعاليات الحربية وسهّلت منها. وكما أنها كانت بالإضافة للسرعة تمثل حلقة الوصل، فقد كانوا يظهرون في الأماكن غير المتوقعة بشكل مباغت وكان ذلك يجعل من البدو المستخدمين للإبل مفزعين الأقوام المستقرة في إقامتها.

إن إلقاء نظرة على مسيرة التطور قبل التاريخ والتاريخ المبكر في شبه الجزيرة العربية، ممكنة فقط من خلال الأبحاث الأثرية المنجزة حتى الآن، حول مسيرة وتقييم حالة السكان والهجرات والآثار الثقافية والأدبية لشبه الجزيرة، فهي المصدر الوحيد لذلك وإن كانت بمقاييس غير كافية.

وتنحصر الأبحاث الأثرية والتاريخية في شبه الجزيرة العربية حتى الآن في الكرافيتي Graffiti (الحروف المنقوشة على الصخر) التي لم يكن من السهل الحصول عليها، وهذه البقايا الأثرية التي تلقي الضوء على تاريخ تلك الفترة، فقد أثّرت عليها رمال وعواصف لمئات السنين وهي متروكة في العراء. وبالمقابل تقدّم لنا التقنيات الحديثة الملاحظات الدقيقة حول مرحلة الهجرات وحتى المراحل المبكّرة من عصور الثقافة، وهي في المناطق الشمالية على حافة المناطق المأهولة فقط وقد وجدت في القرن الأخير شرق وجنوب شبه الجزيرة العربية.

ومن المؤسف بشكل خاص ألّا يكون لدينا ما يدل حتى الآن في التنقيبات عن المراحل التاريخية المبكرة في شرق ووسط شبه الجزيرة العربية أو مستوطنات الواحات. وهكذا فإنّ تساؤلاً مهمّاً يبقى غامضاً عن التطور الاجتماعي في العصور المبكرة لشبه الجزيرة العربية. وتشير المكتشفات في الأرض، أن الجزيرة العربية كانت منذ العصور الحجرية مسكونة من قبل الصيادين والأقوام المتجولة الباحثة عن ما يُؤكل ويُصطاد.

وتجدر الملاحظة أن الظروف الجوية وشروط الطقس كانت (إلى جانب ذلك) وحتى 10 آلاف عام قبل الميلاد مناسبة أكثر مما هي عليه في عصرنا الراهن، ففي الوقت الذي كانت فيه أوربا تمر فيه بالعصر الجليدي، كانت آسيا الوسطى وجنوبها تمر في عصر المطر، وكانت المرحلة التالية هي العبور إلى مرحلة الزراعة وتربية الحيوانات التي نطلق عليها اليوم مرحلة الثورة الزراعية وهي التي حطمت تدريجياً النظام الاجتماعي القديم من خلال مجتمع الطبقات.

وقد جرت هذه العملية في إطار شبه الجزيرة العربية، أولاً في جنوب شبه الجزيرة حيث تتوفر المرتفعات المثمرة، والتي وفّرت شروطاً جغرافية / مناخية مناسبة للزراعة المعتمدة على المطر. والتطور التاريخي الهام في جنوب شبه الجزيرة العربية منذ بداية الهجرات، جعل الأراضي المرتفعة صالحة للزراعة، ولاحقاً باستخدام الوديان في الأراضي المرتفعة من خلال

بناء مستلزمات الري(السدود) وإيجاد حلول للمعضلات التي ترافق هذه الفعاليات، ولكن لا توجد مصادر دقيقة حول هذا الموضوع، وهي التي تمثّل واحدة من أكثر فصول تاريخ العرب في عدم وضوحها على الإطلاق.

ولكن من الواضح والمؤكد أن جنوب شبه الجزيرة العربية قد اكتسب تطوراً متصاعداً نسبياً، وذلك واضح من خلال التكوين والتشكيل الثقافي في الجنوب وانعكاساته. وهناك ملاحظة أخرى تدل على ذلك، تكمن في الاختلاف في اللغة بين اللهجات: عرب الشمال(التي تطورت فيما بعد إلى اللغة العربية الكلاسيكية) ولغة ولهجة عرب الجنوب.

لا توجد لدينا (مخطوطات عربية)عن مرحلة التطور الاقتصادي / الاجتماعي لعرب البوادي(من مستخدمين للجمال) في شمال شبه الجزيرة العربية، وعن تشكل العصر المبكر للدول في جنوب شبه الجزيرة المعتمدة على الزراعة، كما لم ترد كلمة واحدة عن هذا الماضي في شهادات المؤرخين المعاصرين في البلدان الأكثر تطوراً ضمن تقاريرهم. وهكذا كان الأمر بالنسبة لبلاد الرافدين مثلاً العامرة بالسكان، وسورية وفلسطين التي كانتا على الأرجح أكثر تطوراً، فقد كان ذلك يعني أنها كانت غير مهمة سياسياً واقتصادياً بحيث أنها لم تترك أي اثر يدل على ذلك.

وتعود المعطيات الأولى المعاصرة -التي قدمها الكتّاب والمؤرخون عن المراحل المبكرة لتاريخ العرب- في أصلها إلى الربع الأول من القرن الأول قبل الميلاد، فقد أرسلت آنذاك دولة سبأ في جنوب شبه الجزيرة قافلة من الجمال إلى فلسطين وسوريا، مثلت التبادل التجاري المباشر مع البلدان الأكثر تطوراً ودخلت للمرة الأولى في تاريخ الرحلات بين الشعوب.

وفي نفس الوقت تشير رقم (ألواح طينية) آشورية عن الصدامات العسكرية الأولى مع عرب البوادي الشمالية من رعاة الإبل، وهنا توجد آثار مكتوب عليها باللغة العربية من أواسط القرن الأول قبل الميلاد، أما بالنسبة للنصف الأول للقرن الأول ق.م، فإننا نعتمد على مصادر غير عربية، فالأمر يدور هنا عن الكتابات والمصادر غير العربية لبعض المعطيات الواردة في الوصايا العبرية القديمة، وبشكل رئيسي في مصادر الخابور باللغة الآشورية والبابلية. والأخبار الموثقة بالكتابات دعّمت بواسطة الصحائف المصورة في القصور الآشورية الملكية، هذه النقوش تقدم ليس فقط الأنباء المصورة للمعارك الحربية للملوك الآشوريين ضد الأعراق العربية فحسب، بل أنها تعرض ما لم تقدمه المخطوطات المكتوبة من صور مهمة لأشكال الملابس والتسليح والمعدات الحربية لعرب البوادي في ذلك الوقت.

وإذا شئنا أن نبحث بشكل اعتيادي في معطيات هذه المصادر التاريخية عن تاريخ العرب في النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد، والتقييم من خلال هذه الصور عن المعارك، فمن خلال هذه المصادر علينا إعادة كتابة تاريخ العرب لتلك الحقبة(النصف الأول من القرن الأول ق.م) مع ملاحظة أمرين:

أولاً : أن هذه التقارير والأخبار المستقاة من المصادر الآشورية/ البابلية والعبرية لا تحتل اهتماماً تاريخياً من الناحية السياسية والعسكرية والاقتصادية عند العرب وأسلافهم، بل أنها تكاد تقتصر على الاتصالات المباشرة، وعلى الأغلب الصدامات العسكرية منها مع العرب وما أعقب ذلك.
ثانياً : أن كل الأخبار حول الأعراب البدو من رعاة الإبل هي من منظور البلدان الأكثر تطوراً والآهلة بالسكان، والتي هي ليست واقعية عن حياة العرب القاطنين في البوادي ولا تضم إلا

الضئيل من المعطيات الجغرافية عن المناطق التي كان يقطنها العرب. وهناك أيضاً الكثير من ذلك في الوثائق اليونانية واللاتينية اللاحقة.

أما عن الدول العربية في جنوب شبه الجزيرة العربية، فهناك عدا المصادر العربية عن مرحلة النصف الأول للقرن الأول ق.م، المعلومات عن إمبراطورية سبأ. وكان للسبئيين خلال هذه الحقبة (بشكل واضح) الدور الأساسي في التجارة البعيدة المدى، تجارة القوافل فيما يدعى (طريق البخور المقدس) المار على امتداد الواحات العربية الغربية إلى غزة على البحر المتوسط. ويحتمل أن تكون إمبراطورية سبأ قد مارست احتكار التجارة البعيدة المدى للسلع والبضائع العربية الجنوبية التي تتألف من: البخور، المر Myrrh، الذهب، الأحجار الكريمة، التوابل.

وممّا يدلّ على تأمين هذه التجارة البعيدة المدى، هو ما ورد في الكتاب المقدس (الفصل العاشر) إذ تحدث عن زيارة ملكة سبأ للملك سليمان (926 - 965 ق.م) وهذا يعني بأن المقطع الأخير من طريق البخور المقدس كان يمر من منطقة تقع آنذاك تحت سيطرة إمبراطورية سليمان، وهو (شخصياً كما نعرف) الذي كان يسعى إلى مكتسبات في التجارة بين الدول ويسعى لاحتكارها في مملكته. ومن أجل ذلك فقد منح سبأ مقتضيات التفاهم والاتفاق معه(سليمان)ليكافئ دولة سبأ، وقد شاع أمر الهدايا من الذهب والأحجار الكريمة التي هي سلع عربية جنوبية تقليدية. كما نجح سليمان في محاولاته التي بذلها في إرسال مبعوثاً إلى الفينيقيين مع مساعدات في أسطول تجاري أبحر إلى خليج العقبة متوجهاً إلى بلاد الذهب أوفيرا Ophira التي ربما تقع على السواحل العربية الغربية، لتأسس علاقات تجارية مباشرة مع الجنوب العربي وبذلك بدأت التجارة العربية البعيدة المدى واحتكار تصديرها من الجنوب العربي للسلع والبضائع التي ربما كانت سبباً إضافياً لدولة سبأ من أجل تأمين قوافلها التجارية عبر إقامة العلاقات والهدايا.

وقد عاد ذكر السبئيين مرة أخرى في كتابات(رقم طينية محفورة على الصلصال والطين) الملك الآشوري تيغلات بيليسار الثالث Tiglat Pilesar 111 و الملك سرجون الثاني Sargon 11 على أثر التقارير الحربية للعام 720/732 وتحت قيادة الملك الآشوري تيغلات بيليسار الذي كان على صلة بستة أقوام (عشائر أو قبائل) من العرب من سكنة الواحات الذي كان على صلة بستة أقوام(قبائل) من العرب من سكنة الواحات " الذي لا يعرف أحد قدم سكناهم). وفي كتابات سرجون ظهرت حتى أسماء ملوك سبأ، وهنا يستحق الملاحظة، إذ لا يحتمل أن تكون هناك مصادمات عسكرية مع هذه الدولة الجنوبية البعيدة، ومن هنا ففي ذلك دلالة يفهم منها أن العلاقات التجارية كانت هي الأساس كما في علاقات سبأ بدولة الملك سليمان.

ويدعم هذا الافتراض ورود أسماء السبئيين في سقوط الدولة الفلسطينية، واحتلال غزة من قبل الآشوريين لكونها محطة هامة في طريق البخور المقدس، وهذا يدل على أن دول سبأ كانت تسعى على إقامة علاقات طيبة مع الملوك الذين خلفوا سرجون، ويدل على ذلك تبادل هدايا وضعت في حجر أساس المعبد كاريبيل Karibil في حوالي عام 685 ق.م في عهد سنحاريب، والهدايا هي من الذهب والتوابل والأحجار الكريمة.

وتبدأ مصادر الآثار في الخابور(الرقم المكتوبة) بملاحظة قصيرة فيما يخص عرب البوادي الشمالية، أن عربياً اسمه جنديبو Gindibu كان في عام 853 قد دعم ائتلاف أمراء سوريين وفلسطينيين في القتال ضد شلمنصر الثالث الآشوري في معركة قرب قراقر Qrager في منطقة أورانتس Orantes شمال سوريا، بقوات بلغ تعدادها ألف فارس على الجمال.

وشلمنصر، أو بالأحرى أحد كتّاب بلاطه، لم يمنح أهمية كبيرة لمساعدة الفرسان العرب، إذ لم تظهر أنباء أخرى عن هذه المساهمة في المراحل الختامية لهذه المعارك.

وبعد 200 عام فقط، كانت الظروف والأوضاع قد تغيرت بشكل كبير. فقد بدأت أنباء الصدمات العسكرية مع العرب تحتل مجالاً أوسع في كتب التاريخ وفي سير الملوك الآشوريين المهمين. بل أن منجّماً في بلاط أحد الملوك أخذ يهدّئ من مخاوف الملك آسرحدون من فعاليات عسكرية للعرب الشماليين من سكان البوادي وفرسان الجمال بإعطائه تكهنات (قراءة في التنجيم) من أن خسوف القمر الكلي في 27 كانون الأول وحتى 28 منه لعام 670 ق.م سيكون مشؤوماً ليس فقط للأعداء التقليديين لدولة الآشوريين في سوريا ولبلاد النهرين الجنوبية فحسب، ولكن أيضاً "للملوك العرب".

ومن عام 540 حتى 550 ق.م ترك آخر ملوك بابل، وهو الملك نابونيد Nabunid قصره ومقر إقامته بمدينة بابل واتجه إلى العرب المقيمين في الواحات الغربية تيماء Taima، وهذه الحقائق القليلة تكفي للتثبت بأن العرب الشماليين كانوا في القرون الثلاثة الأولى، ومن خلال الكتابات والرقم والآثار اجتازوا عملية تطور أدّت في غضون قرون قليلة إلى تأسيس دول عربية شمالية مهمة، وترشح تدريجي للعرب إلى الشمال. وبدون أن ننظر إلى جميع هذه المعطيات مجتمعة، فإننا سوف لن نتمكن من فهم أحداث فترة الإمبراطورية الآشورية المهمة.

وبصورة مشابهة لما حدث مع شلمنصر، حدث أيضا مع الملك تيغلات بيليسار الثالث 727 - 745 وسرجون 705 - 722 ق.م، وأن العرب كانوا موجودون دائماً في المصادر الرسمية، ففي المعارك باتجاه سوريا، قامت الملكة العربية زبيبة Zabibe بخلع وكيل الملك الآشوري، والملكة التي أعقبتها شمسي Samsi التي قامت بعد ذلك بقليل بدعم واضح وعلني لثورة ملك دمشق ضد الملك الآشوري.

وبعد الملك تيغلات بيليسار ومن ثم سرجون، فإن ملوكاً آخرين قاموا باحتلال غزة مرة أخرى حيث ينتهي طريق البخور المقدس، وكان يعمل أيضاً في هذا الطريق المزدهر لقوافل التجارة البعيدة المدى ماعدا السبئيين العرب من غرب وشمال شبه الجزيرة من سكان الواحات ومن تجار الواحات مع الآشوريين.

وتبرز أنباء العرب لأول مرة في بابل ومن أنباء معارك سنحاريب : إذ كان أحد أخوة الملكة جاتي Jatie ، على صلة وثيقة بين العرب وبين الملك البابلي مردوك - أبلا يددين Marduk - apla - iddin، حيث طلب منهم المساعدة ضد سنحاريب الذي انتصر عليه في النهاية وتمكن من أخذه أسيراً، وبعد سنوات قليلة احتاجت بابل من جديد إلى المساعدة العسكرية من العرب في صراعها ضد الآشوريين، وفي هذه المرة أرسل سنحاريب قواته لمعاقبة أعدائه من العرب الذين يقطنون في البوادي، وترك هؤلاء الآشوريين يقتربون بقواتهم، ثم بدؤوا مناوشاتهم ومن ثم التجؤوا إلى المدينة المحصنة الدومات Adummatu وقد أصبحت هذه المدينة مقراً لإقامتهم كما تذكر التقارير. وفي مواقع أخرى، هناك تقارير عن محاصرة العرب في هذه المدينة بعد بضع سنوات. والدومات هذه هي الجوف Gof وهي تقع في منطقة زراعية خصبة بين الصحراء الكبرى النفوذ Nefud وبداية وادي السرحان، وهو وادي كان إلى وقت قريب الطريق الأكثر أهمية للربط بين سوريا والمرتفعات الداخلية الشمالية من القيدار Qedar، وأن أمراء القيدار في الآثار (الكتابية) الآشورية يسمون "ملوك العرب" وكان هؤلاء يمارسون نفوذاً عالياً على الأقوام(القبائل) العربية في الصحراء العربية السورية.

وبعد تهديم مدينة الدومات وسلبها ونهبها على أيدي القوات الآشورية في عهد سنحاريب، أعقب ذلك بضعة سنوات من الهدوء. والأمراء من قيدار هازيل Haza,el وولده وخلفه جاوتا Jauta ولاحقاً عويطة Uaite ، الذي خضع للآشورين. فطلب الملك جواتا منهم المساعدة بالسلاح ضد منافسيه الذين كانوا قد نجحوا في استنهاض كافة أعراب البادية الشمالية ضده، وفي السنوات التي تلت ذلك، بدا وكأن الملك جواتا كان قد بسط حقاً سلطانه على مناطق الصحراء العربية / السورية.

وعندما ساءت لاحقاً العلاقات بين الملك الآشوري آشور بانيبال، وأخوه شمس شوم أوكين Samas - sum - ukin ملك بابل، اعتقد جواتا أن ساعته قد حانت لأن يستعيد الاستقلال الذي كان قد فقده، فهبّ ليقف إلى جانب الملك البابلي بعد أن استفحل الخلاف بينه وبين آشور بانيبال. وفي عام 652 ق.م تقدم العرب بقوات في ثلاثة مجاميع من الجيوش ضد الآشوريين وحلفائهم، وكانت سورية هي موقع المعارك الطبيعي للعرب.

وكان جواتا قد احتفظ خلال الحرب بقيادة القوات شخصياً. وفي مجرى القتال، هب القسم الثالث من القوات العربية بقيادة الأخ أبياتا Abjate وأياموAjamu مسرعاً نحو بابل من أجل تأكيد التزامات التحالف ولدعم شمش شموكين ضد الآشوريين الذي تمكنوا بهجوم مقابل من إلحاق الهزيمة بالعرب وأرغموهم على العودة إلى مدينة بابل حيث تم حصارهم مع البقية الباقية من الجيوش البابلية. وبهجوم ضاري ودموي، تمكن العرب من خرق الحصار والخروج من المدينة على الرغم من أنهم تكبدوا الكثير من الخسائر. وفي غضون ذلك، كانت جيوش الآشوريين تلاحق القيدار من العرب، من سوريا ومواب Moab، تلاحقهم إلى مناطق سكناهم التقليدية في البوادي، ثم وكحلّ مؤقت فقد تنازل آشور بانيبال لأخيه بيجان الذي كان قد التجأ إليه، بدلاً من الأمير المتوقع جواتا كملك على القيدار، كما توجب على القيداريين الالتزام بالإخلاص في احتفال مقدس، بالإخلاص والوفاء الأبدي للآشوريين والتعامل مع جواتا كعدو هارب.

لم تخب مساعي عرب الشمال نحو الاستقلال من خلال هذه الإحباطات، بل على العكس: فبعد سنوات قليلة وعندما هزم الجيش الآشوري في عيلام، انتفضت كافة الأعراب الشمالية ضد الآشوريين، حتى أولئك الذين كانوا في الماضي يفضلون انتظار الفرصة الملائمة. وبسبب التنافس القديم بين الأقوام(القبائل) المختلفة، لم يكن بالإمكان اتخاذ فعاليات موحدة لكل العرب، وكان لذلك نتائج خطيرة مؤثرة سلباً. فإن الجيش الآشوري رغم هزيمته في عيلام لم يجد الصعوبة في ضرب المجاميع العربية واحدة أثر الأخرى منفرداً بكل جماعة على حدة، وهكذا فإن الثورة العربية الثانية الكبيرة انتهت على نحو دموي فظيع، وقد أخذ الآشوريون معهم أعداداً غفيرة من الأسرى، كما استولوا على أعداد هائلة من الجمال.

وكانت سياسة الآشوريين حيال العرب تتمثل بجعلهم يؤمّنون طرق المواصلات المؤدية إلى سوريا وفلسطين(المارة عبر أراضيهم) وحماية المقاطعات الآشورية والملوك الصغار الخاضعين لسلطة الآشوريين ودعمهم في هجمات العرب عليهم. كما كانت تفرقة العرب واحدة من أهدافهم ببثّ أسباب الصراعات بينهم وإبقائهم بعيدين في البراري. وقد سعى الآشوريين بالدرجة الأولى لتحقيق هذه الأهداف بالوسائل السياسية والدبلوماسية وكذلك بواسطة الحملات والغزوات بين الحين والآخر لتخويف العرب وإرغامهم على الانضواء تحت سيادة وسلطان الآشوريين، وأيضا في تنصيب بعض المخلصين للسيادة الآشورية كقادة على القبائل بدلاً في إقامة سيادة عسكرية آشورية دائمية على الصحاري المترامية الأطراف ومناطق البوادي المحيطة بها في شمال شبه الجزيرة العربية وقد استخدموا في ذلك ثلاثة أساليب رئيسية:

أولاً / ربط العرب وقادتهم من خلال قسم الإخلاص للآشوريين وعبر اتفاقيات إضافية إلى جانب التزام الأخلاق والولاء. وقد أعاد الآشوريون إلى العرب ما سلبوه منهم في الغزوات السابقة.
ثانياً/ مفاوضة العرب على نهج يؤدي إلى تفرقتهم.
ثالثاً/ مراقبة وحراسة قادة الأقوام العربية من خلال فرض موظفين آشوريين رسميين ومستشارين، أو من خلال مبعوثين والاستطلاع عبر الجواسيس.

أما الضرائب التي فُرضت عليهم فقد كانت ضئيلة نسبياً، ولكن العرب لم يظهروا الرغبة إلا نادراً، في الحراسة وتقديم المساعدات بالقوات العسكرية أو الجمال التي تستخدم للمواصلات كما أن الآشوريون أيضاً لم يرغموهم عليها.

وكان عهد المملكة البابلية الجديدة 539 - 626 ق.م، عهداً مزدهراً للتجارة البابلية مع جنوب وغرب شبه الجزيرة العربية. وقد قام أعراب الواحات الغربية (تيماء) بأفضل ما يكون عليه التاجر، بدور الوسيط التجاري. وقد لعبت الاعتبارات الاقتصادية دوراً مهماً في ذلك، ففي عام 550ق.م وعندما حاول نابونيد كأول زعيم عربي خارج الدول الكبيرة، أن يأخذ على عاتقه القيام بمحاولة لضم وإلحاق الأجزاء العربية إلى مملكته.

قام في البدء بالاستيلاء على تيماء، وتوسع من هناك باتجاه أهم تجمعات الواحات في غرب شبه الجزيرة العربية، منها ديدان Dedan وأولى Ula وخيبر ويثرب(المدينة) وبذلك فأنه قد جمع في يديه وتحت سلطانه كافة طرق التجارة المزدهرة مع الجنوب العربي، وبالإمكان معرفة ماذا كانت تعني ذلك لنابونيد عندما اتخذ من تيماء مقراً له لمدة عشر سنوات، كما أنه حمل لقب وكيل ملك بابل والإدارة البابلية.

ومن خلال التهديد الذي مثله الفرس الذين كان نفوذهم بازدياد، وجد نابونيد نفسه مضطراً إلى التراجع. ولكن بعد مضي عام واحد تقدم كيروس Kyros نحو بابل، فانشغل البابليون بالعدو الجديد، ووجدوا الفرصة للتخلص من تبعيتهم لبابل.

وفي أنماط الحياة، لم يختلف أعراب البوادي عما كانوا عليه في القرن الأول قبل الميلاد عنهم في القرون الماضية، حيث تتمثل المسألة الرئيسية في الحياة القاسية في الصحاري والبوادي لشبه الجزيرة العربية. فيما كانت الجمال وكذلك الأغنام والماعز تمثل دوراً مهماً إلى جانب الحمير للثروة الحيوانية في المناطق الصالحة للزراعة. فعلى سبيل المثال، كانت الأبقار تربى في منطقة الجوف، وكان سكان البوادي(كما هم الآن) يرتحلون مع قطعانهم وخيامهم وسائر حاجاتهم وما يملكون إلى حيث تهطل أمطار الشتاء. عبر البادية المخضرة المعشوشبة، وعلى الأغلب في مجاميع صغيرة من منطقة رعي إلى منطقة رعي أخرى. ومن ثم يتجمعون لاحقاً في وقت الصيف بالقرب من مصدر للمياه وهم يشكلون تقريباً قبيلة ذات نظام أشبه ما يكون بالتعاونية.

ولم يكن بروز اتحاد محلي لعدة قبائل بقيادة زعيم واحد يستغرق وقتاً طويلاً إلا نادراً، وعلى رأس القبيلة(مختلفاً عن التطور اللاحق) وكانت النساء يمارسن دوراً في مراسيم العبادة وهذه تعلمنها من الآشوريين الذين لم يكونوا ينصبون الملكات فحسب، بل والكاهنات في المعابد أيضاً.

وكان سكان الواحات يعملون في الزراعة وكذلك في أساليب العناية بأشجار النخيل. وكان سكان الواحات الغربية قد ابتدؤوا بجني الأرباح ليس فقط من عوائد التجارة البعيدة المدى، بل بما

يقومون به من فعاليات زراعية، كما أدى ذلك إلى تقوية الروابط والعلاقات الاقتصادية بين سكان واحات الصحراء وأهل البادية القائمة على المبادلة، الأمر الذي وحد أهدافهم وآمالهم السياسية أيضاً.

وفي مجرى النصف الأول من القرن الأول ق.م كان سكان البوادي العرب يكتسبون على هذا النحو أهمية متزايدة. وكان هذا واضحاً للعيان في الصراع اللاحق مع سكان ودول المدن في مناطق العمق. وكانت بدايات هذا الصراع تتمثل بغزوات من عرب البوادي إلى المدن في العمق من أجل الحصول على غنائم أو مكتسبات محلية. أما في المراحل اللاحقة فقد شارك الأعراب من قبائل مختلفة في فعاليات عسكرية كبيرة سواء في دول : فلسطين / سوريا/ بلاد النهرين، مع أنهم لم يحصلوا على شيء من هذه المرحلة، إذ بقيت تلك المناطق تحت السيطرة الدائمية أو المباشرة لحكومات تلك الدول ولم تتخلَّ عن سيادتها بعد.

ثانيا : دول المدن العربية الجنوبية

كان البدو قد استقروا في القسم الأعظم شبه الجزيرة للمعيشة فيها، لا سيما في القسم الجنوبي الغربي منها، وكانوا قد اختاروا حياة الاستقرار والزراعة وتطوير الحياة منذ وقت بعيد. ويوفر جنوب شبه الجزيرة العربية أكثر من أي منطقة أخرى في شبه الجزيرة أفضل المستلزمات الطبيعية من أجل زراعة مكثّفة، وهي تلك التي تقع على سواحل البحر الأحمر وخليج عدن حيث تتكون منطقة ساحلية ضيقة، حارة ورطبة تحدها مرتفعات شاهقة، وتنال حصة كافية من الأمطار الموسمية. وبعد أمطار الصيف المدرارة تتجمع المياه في الوديان الكثيرة، وتجرف بسرعة عالية كل شيء أمامها وتخلف الوادي جافاً من جديد، لذلك كان على السكان تجميع هذه المياه بواسطة آبار(جب) أو سدود ليُعاد توزيعها بموجب خطة على الأراضي الزراعية.

وكانت المشكلة القديمة تتمثل في طريقة الإرواء، وتكمن في أن الجبال الوعرة في الشرق التي تتداخل فيها المناطق المرتفعة مع رمال الصحراء. وهناك على حافاتها، على التوالي:
وادي حضرموت في الشرق، ونجران في الشمال يشكلان كفتحة منجل، ويضمان العديد من الواحات الخصبة. وكانوا قد بدؤوا باستغلالها زراعياً منذ نهاية القرن الثاني ق.م. وعندما تعلم عرب الجنوب من الفلسطينيين اختراعهم لمادة الأسمنت Zement، تمكّنوا بواسطة هذه المادة من بناء خزانات وسدود تحجز وتخزن مياه الفيضان في الوادي. ومن هنا اكتسب سد مأرب شهرته كأحد عجائب العالم. وهذا الإنشاء العظيم الذي لا يوجد له مثيل حتى وقتنا الحاضر، كان قد شيد في منتصف القرن الأول قبل الميلاد، في وادي أثانات Athanat وفي موقع وادي وواحة تدعى مأرب. وخلال مئات من السنين كانت الإصلاحات وأعمال الصيانة تجري لهذا السد إلى ما بعد عام 570 م بقليل حيث تهدم بشكل نهائي، وراحت الأراضي الزراعية ضحية لزحف الرمال. وكان السد يتكفل بري مساحة تتجاوز 1600 هكتار تزرع بالحبوب بالدرجة الرئيسية، كما كانت هناك أيضاً النّخل التي توفر إنتاجاً من التمور.

وكانت عملية الزراعة هذه تدار من قبل عوائل كبيرة وقبائل كانت تسكن الواحات على حافة قنوات الري في مدن صغيرة، التي كانت تحاط على الأغلب بأسوار عالية مبنية من الحجارة، وضمن هذه الأسوار، كانت تشيد البيوت العالية المتعددة الطوابق وتسكن فيها العائلات الكبيرة(ذات الأهمية الاجتماعية). وفي وسط المدينة كان ينعقد مجلس أعيان القوم، أما المعبد فقد كان يشيد خارج منطقة سكن الجماعة، وكانت الأسواق موجودة في المدن حيث يقيم التجار وصناع الشغال اليدوية وتعقد الأعمال التجارية مع السكان. وإلى جانب الزراعة، كان الفلاحون يتعاطون بدرجة محدودة تربية الأبقار مع قطعان صغيرة من الماشية.

وكان توزيع المياه على الأراضي الزراعية الخصبة يستدعي وجود نظام إدارة واسع، وغالباً ما كان مجلس أعيان يمارسه، الذين سرعان ما كانوا يتحولون إلى طبقة أرستقراطية مضافاً إليها امتلاك الأراضي من خلال تمتعهم بهذه الميزة، وهم يقفون في مقدمة دول الجنوب العربية التي كانت مأرب مركزاً رئيسياً للواحات المحيطة بها مع الأطراف الغربية والشمالية الغربية لها.

وكانت هذه الدولة قد ظهرت من خلال تحالف أو تجمع عدة أعراق وأقوام من الأعراب المستقرين(غير الرحل) ومنهم أيضاً سكان سبأ التي كان لها دور قيادي مهم ومنها اكتسبت هذه

المنطقة الاسم أيضاً. وقد مارست أرستقراطية القبائل السلطة فيها منذ القدم، فمن ممثلي ستة من القبائل القوية التي تأسست منها الدولة، وهذه القبائل لم تكن بحال من الأحوال على قدم المساواة، وإنما كانت هناك مراتب في نظام القيادة فكان يتمتع بالمراكز أولئك الأكثر ثراء وقوة. و استمر هذا النظام لمئات السنين في جنوب شبه الجزيرة. وبسبب أن مدة الانتخاب تستمر سبع سنوات، فقد قاموا بواجبات وأدوار هامة.

وكانت سلطة الأرستقراطية
قد سقطت ليس فقط بسبب الامتلاك الشخصي للأراضي، والذي بموجبه كان يستغل الأشخاص المستقلين(الغير منتمين للقبائل)، والعبيد، بل وكذلك بسبب الأرباح التي تدرّها التجارة. وإلى جانب رواج أسلوب التبادل السلعي، بدأت هنا بصفة خاصة التجارة البعيدة المدى بسلع وبضائع نادرة محتكرة ذات أرباح عالية. ومن تلك المنتجات العربية الجنوبية: البخور المقدس، الذي لم يكن بالإمكان الحصول عليه إلا في هذه المنطقة وفي السواحل الإفريقية المقابلة، وكذلك المر ذو الرائحة الزكية والذي كان مطلوباً بكثرة ويستخدم في البلدان الأكثر تطوراً(الشمال) وأيضا الذهب.

وفيما عدا ذلك كانت الموانئ العربية الجنوبية بمثابة محطات نهائية للسفن الهندية المحملة بالتوابل. وكان التجار ينقلونها على ظهور الجمال على الطرق عبر شبه الجزيرة العربية باتجاه الشمال. وكان أهم هذه الطرق للقوافل هو ما يسمى " طريق البخور المقدس " ذلك البخور الذي كان يجمع من مرتفعات حضر موت ويأخذ طريقه عبر المنحدرات والمرتفعات الغربية، عبر الواحات ومصادر المياه باتجاه الشمال في الطريق المعروف الذي ينتهي بميناء غزة على البحر الأبيض حيث يكون التجار هناك بانتظار القوافل ليتابعوا تجارتها إلى مصر وشرقي البحر المتوسط.

وكانت هذه الرحلة تستغرق حوالي سبعين يوماً، وكان التجار المساهمون فيها يعودون بأرباح عالية، وكانوا يحرصون على كتمان أسرار تجارتهم وبضائعهم، ويرددون الخرافات والأساطير المفزعة عن هذه الرحلات، فلم يتمكن أحد على الإطلاق أن يحطم أو يخترق الاحتكار الجنوبي لهذه التجارة.

وبرقعت أرستقراطية القبائل سلطتها وسلطانها بمعطف ديني، فقد استخدموا الآلهة من أجل حماية مكتسباتهم وامتيازاتهم، ومن أجل نيل بركتهم ورحمتهم من خلال القرابين والضحايا، فقد كانوا يربطون القيام بوظائفهم الإدارية كما لو أنها التزامات مقدسة بينما هم مع أقربائهم والمقربين إليهم يقومون بدور الكهنة ومساعديهم.

وكانت نجمة فينوس من بين أكثر آثار الآلهة أهمية، وكذلك الأشكال المختلفة للقمر. وآله القمر كانت تدعى في سبأ المكا Almaqah ، وكانت هي آلهة الحكام في جميع الدول وتدعى بانثيون Pantheon . وقد شيد معبد ضخم للآلهة وأنقاضه باقية توحي بذلك إلى يومنا هذا. وهذا المعبد المشيد من الحجر مربع الشكل قد بني بطراز أحادي العمود والمرتكز. وللأسف فإننا لم نتعرف على اسم المعمار الذي شيد هذا المعبد، ولكننا نعلم من خلال الجهات التي أوعزت ببنائه، وهم على الأغلب قادة الدولة. أما المساهمون في البناء فيحتمل أن يكونوا من الذين يستنفرهم أعضاء الجماعة لهذه المهمة. وقد شيد بهذا الأسلوب الكثير من مرافق الري، كما أن هناك مذبحاً حجرياً رائعاً، بالإضافة عدد كبير من الأحجار التي حُفرت عليها حروف وكتابات وهي تُظهر الحروف العربية الجنوبية والتي يمكن مقارنتها بالحروف اللاتينية القديمة بجمالها. كما أن هناك المشاغل(الورش) التي كانت مشهورة بإنتاجها وبجودتها حتى العصر الإسلامي.

وليس هناك معطيات عن مساهمة العبيد في هذه الأعمال أو في الإنتاج، وعلى كل حال فإن العبيد قد استخدموا في أعمال الزراعة. والمثير هنا أن العبيد لم يكونوا يعملون بشكل إفرادي، بل على شكل جماعي في مجاميع أشبه بقبائل من العبيد، وبين هذه العضوية غير الحرة من حيث التمتع بالحقوق الكاملة، كانت هناك ألوان متعددة من علاقات التبعية التي هي باقية من عهد العلاقات (البدوية الرحل الغير مستقرة)الجنتيلية Gentil . (*)

ويعود التاريخ السياسي لعرب الجنوب إلى أكثر من ألف عام قبل الميلاد، فمنذ القرن العاشر ق.م هناك صلات دائمية وثابتة بين الدول في أقصى الشمال من طريق البخور المقدس (فلسطين وغزة) و قد جلب السبئيون معهم هدايا كثيرة من إنتاجهم المحلي، وكان الملك سليمان 965 - 926 ق.م قد استلم الهدايا من مبعوثي ملكة سبأ، كما كانت هناك محاولات لإقامة علاقات طيبة مع الآشوريين.

وحول هذا الأمر، ورد في الوثائق بالخط المسماري ذكر اسم رجلين من أعراب الجنوب وكلاهما يحمل اسماً تقليدياً: المقرب Mukarrib، وأسم المقرب كان يطلق في تلك الأوقات على الشخصيات وذوي النفوذ القيادي في الدولة، ولربما يشغل منصباً في مجلس أعيان أو وجهاء القبائل. وقد يكون المنصب قيادياً وبتكليف من الهيئة القيادية للقبائل. فقد ظهرت أسماء تلك الشخصيتين باعتبارهما ذوي علاقة تنفيذية في بناء جدار المدينة، وبناء فتحات(هويس) سد مأرب الأمر الذي كان يتسبب دائماً في خلق المشاكل والمتاعب.

وكانت الذروة التي وصلت إليها دولة سبأ في أواسط القرن الخامس ق.م هي في عهد المقرب قربيل الفاتر Karibil ilfater هو ابن ثامر Thamar، الذي كان على رأس جيش شعبي كان يشتمل كل القدرات الحربية لكافة القبائل السبئية، قاد الحملات الحربية ضد الدول العربية الجنوبية الأخرى ولا سيما أوسان، التي كانت بسبب ميولها التوسعية هي الأخطر لسبأ. وعندما أُلحقت الهزيمة بهذه المملكة، كانت زعامات كل من قتبان Kataban وحضر موت قد تحالفتا مع قاربيل الذي كان قد وعدهم بأن يقطع لهم أراضٍ من المناطق التي يستولي عليها. وسعت هذه الغريزة التي قام بها المقرب السبئي، من مساحة الدولة وزادت من أهميتها، كما أُستولي على أعداد كبيرة من الماشية والآلاف من الأسرى. وهكذا فقد تمكّن هذا الزعيم السبئي من تحقيق المكاسب في السلم أيضاً كما في الحرب.

و تمكنت دولة سبأ تحت وطأة التهديد و الإرغام، أو من خلال شراء أراضٍ وأعداد من العبيد الذين أُضيفوا للقوة العاملة، بفضل هذه السياسات من البقاء لمدة تنوف على القرن والنصف من الزمان. وفي هذا الوقت فإن سلطة وهيبة دولة سبأ كانت قد أصبحت معروفة حتى في اليونان البعيدة، وهذا ما ذكره كل من أريستوفانس Aristophanes وأوربيدس Euripides في أعمالهم.

وفي النصف الأول من القرن الرابع ق.م فقدت سبأ موقعها القيادي كقوة مهمة إزاء جيرانها مقابل قتبان في الجنوب الشرقي وماين Main قي الشمال الغربي. وقد استطاعت الأخيرة التي يقع مركزها (عاصمتها) في وادي مأرب، أن تدفع بموقعها إلى الشمال على امتداد طريق البخور المقدس وفي شمال غرب شبه الجزيرة، منطقة الواحات في دينان(التي تسمى اليوم أولي) حيث اجتمع ممثلوا القبائل وقرروا بأن بضائعهم ستواصل سفرها من الآن فصاعداً إلى مصر (حيث وُجد تابوت لأحد تجار البخور المقدس)، أو إلى سوريا وكذلك إلى مناطق بحر

إيجة حيث تقع جزيرة ديلوس Delos التي تضم مقدسات أبولو اليونانية الشهيرة، حيث وجدت آثار كتابية لاثنين من التجار كانا قد أهديا آلهة لهم هناك مع خطوط بلغتين.

وكان الاحتكار العربي الجنوبي للبخور والتجارة الهندية، من الأمور المهمة في الشرق الأدنى، وكانت مصر بمثابة شوكة في العين، فقد جرت محاولات عديدة لانتزاع هذا الدور من الجنوب العربي وتمت هذه المحاولات سواء عن طريق البحر للوصول إلى بلدان الجنوب العربي أو إلى الهند نفسها، أو عن طريق البر. وكان الإسكندر المقدوني قد وضع الخطط للاستيلاء على شبه الجزيرة العربية، ولكنه توفي قبل ذلك عام 323ق.م وهو لما يزل في مرحلة التحضير.

أما دول الديادوشين Diadochen التي خلفها الإسكندر، والتي نهضت بعد وفاته في المناطق التي كانت تحت سيطرتهم، فقد ركزوا جهودهم وكثفوها في مصر بالدرجة الرئيسية، ثم بالمناطق المحيطة بها، البحر الأحمر والبحر الأرتيري، ثم في عهد بطليموس الثاني Ptolemais II الذي استطاع أن ينتزع النهاية الشمالية لطريق البخور المقدس في فلسطين من أيدي أعدائه السلوقيين، واستطاع أن يوصل قوافله التجارية حتى المناطق الإثيوبية على امتداد سواحل البحر الأحمر.

وبذلك أصبحت تجارة البحر الأحمر أكثر مناسبة من طريق البخور المقدس، وعدا ذلك، فقد حفرت قناة تمتد من نهر النيل إلى البحر الأحمر الأمر الذي سهل وصول التجارة إلى مصر، ولكن تجارة البلدان الجنوبية أصيبت مرة أخرى عام 115ق.م بأضرار فادحة، وذلك باستغلال تبدلات الريح السنوية وبواسطة ربابنة البحر العاملين في خدمة بطليموس: أيدوكسوس Eudoxos و كيتسيوكوس Kyzikos حيث استطاعوا الإبحار للمرة الأولى من مصر إلى الهند مباشرة دون المرور بالموانئ العربية الجنوبية.

وقد أدى التوسع المباشر وغير المباشر لمصر البطليموسية ونفوذه، إلى إلحاق أضرار كبيرة بدولة مينايش Minäiasch . كما استطاع بطليموس في الشمال تحقيق صلات جيدة مع مملكة ليهيان Lihyan، وبذلك امتدت طرق قوافله التجارية حتى مدينة ديدان وبقيت هذه الحالة مستمرة حتى القرن الثاني ق.م.

وكان الليهيانيون بدورهم يحاولون الحفاظ على استقلالهم من نوازع التوسع المصرية طالما كان بطليموس في مصر، وقادر على تقويض كيانهم. وعلى أية حال، فقد انتهت دولة بطليموس فيما بعد، ولكن اسم هذه القبيلة استمر حتى بزوغ فجر الإسلام.

وكان احتلال المنطقة المركزية لميناشي Minaisch قد تم في أواسط القرن الأول ق.م ، فيما بدا الملوك السبئيون وكأنهم يريدون إعادة ماضيهم كدولة قوية، فقد استطاعوا التوسع جنوباً في القتال مع جيرانهم القتبانيين، صوب المناطق ذات الطبيعة الجبلية، وأضافوا عناصر سياسية جديدة إلى تاريخ الأقطار العربية الجنوبية، وذلك بتوصيل قبيلة حمير إلى السلطة التي استطاعت تدريجياً ضم كافة السواحل الجنوبية الغربية إلى سلطانهم، وقد عقدوا على الأغلب تحالفاً مع بطليموس ضد أعدائهم الأقوياء في دولة سبأ.

وفي غضون ذلك استطاع الروم أن يمدوا إمبراطوريتهم بنجاح إلى آسيا وإلى مصر، حيث أصبحت سوريا عام 65ق.م ولاية رومانية كما انتهى عام 30ق.م عهد البطالسة في مصر بعد أن جاء الغزاة الجدد وأظهروا العزم على التوسع في هذه البلاد انطلاقاً من سوريا وحتى شبه الجزيرة العربية، لذلك فقد أمر القيصر أوكتافيا أوغستوس Ochtavionus Augustus. وفي

عام 25ق.م وكيله في مصر أيليوس جالوس Aelius Galus بتجهيز بعثة استطلاع إلى الجنوب العربي. ويكتب الجغرافي سترابون Stabon عام 63 ق.م عن تلك الأسباب والأهداف قائلاً، أن أوغستوس قد اعتقد أن " هذه الشعوب إما أن تكون صديقة ودودة، أو لا بد من حملها على الاستسلام"، ومن الأسباب المهمة في ذلك : كونهم منذ أقدم العهود ذوي سمعة طيبة ودولة ثرية، وبأنهم كانوا يستبدلون توابلهم وأحجارهم الكريمة الثمينة مقابل الفضة والذهب، ويتعاملون بحذر مع الأجانب" وهكذا يأمل المرء إما أن يكسب أصدقاء وأثرياء، أو ينتصر على أعداء أثرياء".

وهاجم القائد الروماني بعشرة آلاف من جنود المشاة الرومانيين وحلفائه من اليهود والأنباط، ولكن حجم الاستعدادات المطلوبة من جهة، وقلة المعلومات من جهة أخرى جعلت الفشل مصير الحملة، ولكن الجيش نجح عام 24 ق.م بعد كثير من الإجهاد والإرهاق من الوصول إلى جنوب شبه الجزيرة العربية وبدء بضرب السبئيين واحتلال مدنهم، ثم أنهم حاصروا العاصمة مأرب نفسها. ولكن انتشار الأوبئة تسبب في انسحاب الجيش بعد ستة أيام فقط من الحصار، الذي عجز عن تحقيق الاحتلال بسبب الجهد والإرهاق غير المألوف لهم، إضافة إلى تكبده أيضاً خسائر فادحة، وهكذا فوتت الأقدار على الجنوب العربي أن يكون ولاية رومانية.

ولم يحاول الروم مرة أخرى أن يحتلوا هذه البلاد البعيدة بالقوة، للصعوبات التي تكتنف الموقف، لذلك فقد أرسلوا المبعوثين والهدايا وطلبوا السماح من ملوك عرب الجنوب بأن تمر تجارتهم عبر موانئهم، وبقيت نتيجة واحدة من هذه الحملة وهي معرفة أفضل لعرب الجنوب عن أنباء دولة سترابون وبلينوس وكيف أنهم هزموا عام 23ق.م.

وظهرت منذ بدء تسجيل التاريخ الميلادي، في دول الجنوب العربي توجهات جديدة في تاريخهم. فإن الارتباطات والمؤسسات القديمة فقدت أهميتها، وكان مجلس أعيان ووجهاء القبائل الذي يمثل أعلى هيئة في الدولة قد اختفي وظهر الملك وكأنه الحاكم الأوحد. وفي نفس الوقت فقد بدا ظاهراً أن مساع قوية قد برزت من السبئيين في واحة مأرب باتجاه تجزأة الدولة والتي كانت ضد سيادة الملك.

وكانت المرتفعات اليمنية في الوسط(المركز)، بوديانها الوعرة المسالك حيث يمارس الفلاحون بعمل تعاوني زراعة الأرض المعتمدة على المطر، بالإضافة إلى إمكانية خزنها في الآبار، لوفرة كميات المطر وما زالت تستخدم هذه الوسيلة حتى يومنا هذا. وإلى جانب ذلك كانت مياه الفيضانات تستخدم في الري، كما استخدموا أسلوب (المصاطب) في الزراعة الجبلية، في الوديان العالية، حيث استوطنت قبائل ممن امتلكت الأرض إلى ملكيتها أطرافاً جديدة استطاعت أن تضمها إلى سيادتها. وممثلوا هذه القبيلة يدعون(قايل) Qail، وكانت السلطة تتنامى لصالح القايل وسرعان ما تمكنوا من تحقيق وضع يستطيعون فيه أن يعترضوا على الحكام الكبار وعلى رمزها حاكم واحة مأرب الثرية الذي كان يرمز له بالقمر المقدس. وكان لكل قبيلة ممثلها الذي يسعى إلى امتلاك هذا المركز وحمل لقب ملك سبأ، لذلك فقد ناضل في القرون الأولى للميلاد، العديد من القبائل من أجل نيل لقب الحاكم الأعلى ولكن النتائج لم تتغير في ختام هذه الصراعات، فقد بقيت الزعامة بيد القبيلة الحاكمة التقليدية في مأرب.

ومن الصعب التقدير فيما إذا كانت الممالك الكبيرة قد ساهمت في هذا الصراع الداخلي على السلطة في الجنوب العربي، فقد كانت هناك علاقات قوية بين حكام المدن الساحلية حيث كانت السفن الشراعية اليونانية تبدّل بضائعها أو أنها كانت تتزود بالماء من أجل مواصلة الرحلة إلى الهند.

وكانت قبيلة حمير ناجحة بصفة خاصة في هذا الصراع من أجل الاستقلال، ومن أجل البقاء كقوة مركزية، تقيم في جنوب المرتفعات وقد تمكنت من توسيع رقعة الأراضي على حساب قتبان وعلى حساب سبأ والتوسع باتجاه الشمال، حتى عام 100 ميلادية، لا بل أنها استطاعت حتى احتلال مأرب نفسها لوقت قصير.

في أواسط القرن الأول ق.م، وصف الكاتب الروماني بلينيوس Plinius الحميرين، بأنهم وفيروا العدد، وأقوى شعب في الجنوب العربي، وتحتل عاصمتهم زفار Zafar موقعاً استراتيجياً على سواحل وموانئ البحر الأحمر. ومنذ ذلك العهد، طالب ملوك حمير الذين كانت مقر إقامتهم ما يزال في ذي الرياضين Du Al Riadan ، بلقب ملوك سبأ حتى بدون احتلال فعلي لأراضي هذه المناطق. وكنتيجة لذلك اتخذ ملوك سبأ أيضاً لقب " ملوك سبأ وذي الرياضين ".

ولم يكن الحميريون فقط من رفع راية المطالبة بالزعامة، أي زعامة الجنوب العربي، ففي القرون الأولى بعد الميلاد تنازعت ستة قبائل على ذلك، ومن تلك التي كان لها أهمية خاصة، قبيلة حمدان القوية التي كانت تغطي منطقة سوماي Sumai شمال غرب صنعاء، والتي لعبت دوراً حاسماً في تاريخ اليمن حتى الأزمنة الحديثة.

وبينما كانت المناطق الجبلية اليمنية المحاطة بالواحات تشهد الصراعات على السلطة بين مختلف الأسر الحاكمة، كانت مملكة قتبان القديمة ومملكة حضرموت ما تزالان قائمتان حتى الربع الأخير من القرن الأول الميلادي عندما هدمت العاصمة القتبانية القديمة تومنا Tumna، في النصف الأول للقرن الثاني الميلادي، فقدت قتبان استقلالها نهائياً عندما استولت عليها حضرموت.

وتعزز وضع دولة حضر موت بصفة خاصة في أراضي الواحات، بالإضافة إلى أراضيه الخصبة، وإلى الوادي الذي يحمل اسمها، فسيطرت على مناطق إنتاج البخور في الأنحاء الشرقية لهذه المنطقة. وكان العبيد وعمال السخرة يعملون تحت شروط عمل صعبة من أجل الحصول على الصمغ الغالي الثمن، ثم نقله ومبيعه. وكانت هذه العملية بيد الملوك والكهنة. و يقع على سواحل هذه المملكة ميناء قانا Qana وهي محطة كان البحارة الروم يتوقفون فيها في الطريق إلى اليمن. وهؤلاء الرجال الجسورين الذين خلّدوا تجاربهم ومعارفهم في كتاب " البحر الأرتيري " وهو كتاب متوارث ومنقول منذ بداية القرن الثالث الميلادي. ويضم هذا الكتاب الذي لا يحمل اسم مؤلفه، أخباراً مثيرة عن المواصلات التجارية في السواحل العربية الجنوبية وعن الأنباء السياسية لتلك الدول.

وبموجب هذه الأنباء، فإن الموانئ العربية الجنوبية لا بد أن تكون قد ضمت المنسوجات والسلع الممتازة وأيضاً القمح المصري. وكان الملوك يحصلون على هدايا ثمينة لا سيما الخيول. وكان التجار اليونانيون يأخذون معهم البخور المحلي وهو أشهر سلعة إفريقية رائجة ومربحة. ومع أن هذا الكتاب قد أُلّف باللغة اليونانية، إلا أنه يظهر ذكر وسيرة القادة الحميرين من " سبأ والرياضين "والمكاربل الحميري وملك حضرموت العاص ilazz، كما أن هناك من يلقب بكونه صديق القيصر الروماني، وبعد ذلك بستين عاماً استطاع الحميريون أن يضموا كامل جنوب شبه الجزيرة إلى سيادتهم في حوالي عام 300 ميلادية، بما في ذلك حضرموت، وتطورت هذه المنطقة على يد الملك الحميري شامار يوهاريش الثالث Samar Yuharis III

وهو ابن ياسر يوها نيم الثاني Yasir yuhanim II، وحمل اللقب المفضل ملك سبأ والرياضين وحضرموت ويامات. وأن قوات هذا الملك توغلت أكثر من شبه الجزيرة العربية، إلى أن توصلت إلى منتصف(مركز) شبه الجزيرة، بل أنها جعلت منطقة الخليج العربي تحت نفوذها منتزعة السيادة عليها من الفرس، وقد تحقق للحميريين بأن يحتفظوا بالسيادة في جنوب شبه الجزيرة العربية حتى القرن الخامس الميلادي، حيث احتلت المنطقة من قبل الآشوريين ثم من الفرس.

ثالثاً : تأسيس الدول العربية الشمالية في العصر الهيليني والروماني

برغم عدم توفر إلا القليل من الشواهد حول الأوضاع والعلاقات في مناطق شبه الجزيرة العربية حتى لفترة القرون الأولى من الميلاد، بيد أن الواحات في شبه الجزيرة كانت قد لعبت دوراً رئيسياً من خلال وقوعها على طرق التجارة التي كانت قوافلها تستهدي في طريقها بالنجوم ليلاً منذ بداية القرن الأول ق.م وبشكل رئيسي لأغراض النقل الخارجي. وكان سكانها يعتاشون في المقام الأول، من أشجار النخيل ومن قطعان الماشية الصغيرة، واتصفت علاقات سكان الواحات بالبدو المحيطين بسرعة العداء وسرعة المصالحات. والجمال هي القوة العسكرية الضاربة للبدو التي استخدمت من قبل حكام الدول المجاورة في الغزو : الساسانيين، الروم، وكذلك من قبل الديادونيون (خلفاء الإسكندر)، مصر البطليموسية، وسوريا، وأهل بلاد النهرين. وهنا من غير الممكن لنا اعتبار كافة تفاصيل الأخبار حول العرب في علاقاتهم مع القوى العظمى من فترة القرن الثالث ق.م وحتى القرن الثالث ميلادي، والذي سنعرضها باختصار، هي فقط أنباء الدول التي قامت الأسر العربية بتأسيسها.

وفي النهاية الشمالية لطريق البخور المقدس، حيث من المؤكد أن النبطيين قاموا في نهاية القرن الرابع ق.م بتأسيس تحالف بين أعراق مقيمة ونصف رحل ذوي خصائص عربية، مع أنهم كانوا قد اختلطوا مع عناصر غريبة أخرى، وفيما عدا ذلك، فإنهم أخذوا من السوريين والفلسطينيين ثقافتهم، كما تأثروا أيضاً بفن المعمار الهيليني وبالكتابة الآرامية. وقد انتهج النبطيون في واحات الشمال الغربي لشبه الجزيرة العربية، أسلوب زراعة متطور، ولكنهم عملوا أيضاً بالتجارة البرية أو البحرية منها.

وقد اتخذ الأنباط، البتراء ذات المسالك الجبلية الوعرة (هي في جنوب الأردن اليوم) كعاصمة لهم للفعاليات السياسية والحضارية حيث تركوا لنا ما يشير بجلاء إلى تقدم الفن المعماري ولا سيما في شواهد القبور وآثارهم الأخرى. ومنذ أواسط القرن الثاني قبل الميلاد حكمت هناك عائلة واحدة من الأمراء. ويشير نمط وأسلوب حياتهم كم كانت تقاليدهم تلك قوية، فمنذ أوائل عهد البطالسة، انتشر النبطيون في المنطقة الممتدة من صحراء النقب جنوباً، إلى حوران شمالاً، واختلطوا في الحياة بنشاط وفاعلية وكان لهم حضورهم القوي في تاريخ سورية وفلسطين.

وفي عام 63ق.م وبعد أن أسس الروم ولاية سورية، بدا وكأنهم سيضمون النبطيون إلى سيادتهم. ومنذ عام 48ق.م كان النبطيون قد وقفوا كحلفاء إلى جانب الروم. وفي العام 97 ق.م أرسلوا إلى القيصر قوات عسكرية تساعده وتدعمه في حصاره للإسكندرية. ثم قاتلوا بعد خمس سنوات إلى جانب القيصر في معركة فيليبي Philippi، و وقف النبطيون مرة أخرى ولو لفترة قصيرة في عام 40 ق.م عندما تقدم البارثيون Parther (**) في سورية وفي آسيا الصغرى، إلى جانب أقوى أعداء الروم في الشرق. وبهذه المناورات السياسية الرائعة في عقد التحالفات، حاول الأنباط بنجاح حماية احتكارهم العربي للتجارة، وهم في ذلك قاموا في عام 24 ق.م بدعم البعثة العسكرية التي أرسلها آيلوس جالوس Aelius Gallus إلى الجنوب العربي بعدد من العسكريين والقادة. وفي الأخير ألقى الروم على الأنباط تبعة فشل الحملة التي أعدت وأرسلت

على عجل، وربما كانوا محقين بذلك، إذ كان الأنباط قد استغلوا ذلك ووسّعوا مناطق نفوذهم إلى الجنوب باحتلالهم لواحة ديدان، ووضعوا النهاية لمملكة ليهيان التي كانت تدير نفسها بنفسها.

وقد حصل الأنباط على سيادة محدودة في الشمال الغربي، في القرن الأول الميلادي في منطقة تمتد إلى جنوب سوريا تحت السيادة الرومية حتى عام 106 م في الولاية الرومية أرابيا Arabia (العربية) بقيادة القيصر ترايان ومركزها بصرى Bostra التي كانت مقر الإقامة القديمة للأنباط. وعندما فقد الأنباط دولتهم كنظام لاحقاً، لم يؤد ذلك إلى أفول الشعب النبطي وثقافته، إذ أنهم صمدوا في الواحات العربية الشمالية ودافعوا عن حريتهم. وقد زار القيصر الروماني هادريان Hadrian عام 130م عاصمتهم القديمة البتراء في سفرته الشرقية. واستمرت الكتابة النبطية معروفة في شبه جزيرة سيناء من القرن الثاني حتى القرن الثالث الميلادي حيث كان العرب الأنباط يعملون هنا في مجال الثروات الطبيعية ولا سيما النحاس والمكلاكيت Malachit.

والأنباط ليسوا من أقوام العرب الوحيدين الذين تركوا طابعهم على المناطق القريبة من شبه الجزيرة العربية، مع أنهم خلقوا دولة استمرت وقتاً طويلاً وأقاموا علاقات وطيدة مع وطنهم الأم (شبه الجزيرة العربية). وكانت الإضطرابات في مرحلة الانحطاط والهبوط لدولة السلوقيين قد سمحت لعرب البوادي أن يظهروا دائماً في القرن الأول قبل الميلاد في المناطق السورية حيث كانوا يندمجون تدريجياً في تلك المناطق، وفي خضم هذه المعارك استطاعت الأرستقراطية العربية أن تؤسس لها حكم عائلات في المدن السورية وكذلك في بلاد ما بين النهرين. وفي شمال فلسطين أسس الأيتوريون Ituräer على هذا النحو كيانهم، ثم تنازعوا مع الأنباط في النصف الأول من القرن الأول ق.م من أجل احتلال دماسيز Damasze (دمشق) التي كانت في أعوام 69- 85 قبل الميلاد بأيدي النبطيين.

وفي النصف الأول للقرن الأول الميلادي، أخذ الأيتوريون المنطقة بين دمشق وبعلبك -التي هي واحدة من مدن الشمس المقدسة- من أيدي الروم. وفي عام 100 ميلادي، وبدا وكأن العائلة على وشك الأفول والانقراض. وفي الجانب الروماني المحتل لسوريا أصبحت المدينتان إيماسية Emease (حمص) وأليبو Aleppo (حلب) تحت حكم عوائل أمراء عرب ممن ساهموا وتداخلوا في النزاعات الأخيرة للسلوقيين.

وإلى الشمال، شرق بلاد الرافدين تأسست مدينة عربية باسم أورهوي Orhoei التي كانت تحكم منذ نهاية القرن الثاني ق.م من قبل أسرة عربية ثم مضت بعيداً في الأنحاء الآرامية وتغلغلت في تلك الأرجاء، ومضت تتجانس هناك. وكانت العوائل المتحكمة هناك كانت تابعة للروم واستطاعت أن تدوم بين تلك الإمبراطورية القوية وبين إمبراطورية البارثيين في الشرق حتى أواسط القرن الثالث الميلادي، وقد لعبت هذه المملكة الصغيرة دوراً مهماً على صعيد التطور الثقافي للشرق.

وفي النصف الثاني للقرن الأول الميلادي، كانت منطقة شمال حلب وعاصمتها إيديساEdessa هدفاً لزيارات المبشرين بالمسيحية حتى بداية القرن الثالث ميلادي حيث اعتنق الملك أبكار الثامن Abgar VIII المسيحية، وأصبحت أيديسا مهد للثقافة المسيحية ـ السورية والتي بقيت حتى القرن الثاني عشر، وشهدت نهضة حقيقية، وكان ممثلوها يمارسون النفوذ بعد مئات السنين في إيصال الإرث الهيليني إلى الثقافة العربية الإسلامية.

وليس الروم فقط الذين استطاعوا التحالف مع العرب، ففي بلاد النهرين أيضاً وقف العرب إلى جانب البارثيين. وتمكنت العائلات العربية هناك أيضاً من تأسيس مدينة الحضرHatra مدينة الشمس المقدسة، وهذه المدينة الحصينة الواقعة إلى غرب دجلة في عراق اليوم، وهي موجودة منذ بداية القرن الثاني ق.م تحت قيادة ملوكها الذين جعلوا منها دولة زراعية وتجارية بالإضافة إلى مكانتها المقدسة.

وتشير أطلال هذه المدينة إلى ثرائها وإلى الطابع البارثي في البناء. كما تشير الكتابات العربية في الحضر إلى أن سكان هذه المدينة والتي كانت تتألف من العرب إلى نزاعهم مع الروم، فكانت مدينتهم محاطة بالروم وبجيوش قوية. وسواء القيصر تريان (عام 117) أو القيصر سفيروس Septimius Severus (عام 200 - 201) اللذان كانا قد عادا بالفشل إذ لم يستطيعا اقتحام أسوار المدينة. ولم ينجح إلا شابور الأول في احتلال مدينة الحضر وكان ذلك عام 231م.

في جنوب العراق وعند اتحاد نهري دجلة والفرات، كانت هناك مدينة تدعى ميسينا Mesene (ربما مدينة ميسان الحالية ـ المترجم)التي كان يسكنها العرب الآراميون، وهذه المملكة كانت تعمل بالتجارة مع الهند عبر الخليج العربي. وقد ضم الملك الساساني أردشير عام 222م هذه الإمارة الصغيرة إلى إمبراطوريته.

ومع أن سرد تطور تأسيس الدول العربية في مصادر ومؤلفات المؤرخين غير معروف إلا بدرجة محدودة. ولكن بمقدورنا أن نلقي نظرة شاملة من خلال التاريخ الرائع للمدينة الصحراوية بالميرا Palmyra (تدمر)، حيث تتواجد هذه المدينة في البادية السورية منذ القرن الأول ق.م في واحة سميت بالميرا من قبل اليونانيين والروم. وهذه الواحة هي نقطة لقاء العديد من طرق القوافل ويسكنها أقوام متعددة الأعراق كانت حياتهم الاقتصادية هي نفس حياة أقوام متعددة الأعراق، وكانت حياتهم الاقتصادية هي نفس حياة أقوام الواحات (اقتصاد واحات ـ تربية الحيوانات ـ خدمة القوافل).

وقد كانت القبائل العربية قد حققت الدور القيادي فيها، والتي كانت حتماً بسبب سيطرتها على تجارة القوافل وكانوا يستخدمون جمالهم القادرة على قطع المسافات البعيدة في تجارتهم على الطرق بين مدن سوريا الثرية الواقعة على سواحل البحر المتوسط، والمراكز التجارية للبارثيين في وسط بلاد ما بين النهرين، وكانوا يحوزون على الأعمال التجارية الناجحة، سواء في بابل أو في المدن الأخرى.

وقد احتكر تجار تدمر في المناطق السورية ـ بلاد ما بين النهرين، أهم الفعاليات بما في ذلك تجارة الحرير والتوابل بين الهند والواحات، ثم أصبحوا الورثة للدور التجاري للأنباط في طريق البخور المقدس. فقد كان التجار العرب الكبار يستخدمون أرباحهم (بدرجات كبيرة) في توسيع مجال ومدى تجارتهم، وأيضا في توسيع أهمية دولتهم وثرائها وفي بناء أبنية فخمة في عاصمتهم التي أصبحت مع مرور الزمن " درة تاج الشرق الأدنى القديم ".

وبسبب توفر الإعانات المالية، صار بالإمكان بناء معبد كبير للآلهة المدينة بيل Bel كمركز ثقافي للمدينة. والكتابات التدمرية القديمة التي يعود تاريخها إلى القرن الأول ق.م وإلى بداية التاريخ الميلادي، نلاحظ أن كبار موظفي القضاء من رجال الدولة التدمريين يحملون أسماء قبائلهم ويعدونها من أهم الشؤون في اجتماعات القبائل.

ومنذ القرن الأول الميلادي، كانت عناصر كثيرة تتداخل من الجيران الهيلينيين إلى تدمر التي كانت تتعاظم باستمرار كدولة وكمدينة، بقيادة طغمة Oligarchie من التجار الكبار الأقوياء وكحصن ضد العدو الفارسي. وكانت تتمتع منذ بداية القرن الثاني الميلادي بحظوة لدى ملوك سوريا من الروم. وعدا ذلك فقد جهزت المدينة وما يقع تحت سيادتها من أنحاء الإمبراطورية بقوى حربية مؤهلة وقوات مدربة قادرة على المناورة من رماة القوس. وكان أحد أهم هؤلاء قد أثبت براعته في بلدان الدانوب(في أوربا ـ المترجم)، بل أن واحداً من هؤلاء التدمريين قد ترك خلفه رسالة وجدت في مقاطعة برتانيا البعيدة(الفرنسية) مكتوبة بلغة بلاده.

وعندما أدى تصاعد الأزمة في مجتمع العبيد(الإمبراطورية الرومانية)، إلى اضطرابات سياسية خطيرة، توجه الجيش إلى إخمادها في مهمة بنداء من القيصر، وكان على رأس الجيوش ممثلوا مختلف شعوب الإمبراطورية، ومن جميع الولايات كما كانوا في أرفع الوظائف الحكومية. وعقد القيصر سيبنيموس سفيريوس، عام 199 اتفاقية سلام أحال فيها ولاية ما بين النهرين من البارثيون ومنحها لتدمر حسب طلبها، ثم تزوج من أيوليا دومنا Iulia Domna ابنة كاهن الأمراء لمدينة أمياسا (حمص)، وكانت هذه المرأة تساهم في الشؤون السياسية الرومانية لوقت طويل، كما أنها كانت تدعم توجهات مدينتها وثقافتها الدينية(آلهة الشمس) في العاصمة روما. بل وأن الكاهن ويدعى إيلاغا بالوس Elagabalus الذي كان بالأصل عربياً، أصبح عام 218 قيصراً.

ولكن من غير المؤكد فيما أن يكون هذا الكاهن السوري من نسل الأمراء، إذ كان في سيرته الذاتية في القرن الأول ق.م رجلاً اعتيادياً، وإذا كان من غير الممكن التأكد من أصله العربي حقاً، ولكن أحد الذين خلفوه إيلاغابالوس كان يسمي نفسه على أية حال "العربي" واسمه الكامل: Philippus Arabus (244-249) أي فيليبوس العربي، وهو الذي عقد اتفاق السلام مع الملك الساساني شابور من أجل أن يحرر نفسه للعمل في جنوب شرق أوربا. ولكن أمنيته هذه لم تنجح بسبب ظروفه العائلية ووجود أحد منافسيه وهو أيضاً من العوائل الدينية في مدينة أميسنر Emesner .

وفي وسط هذه الاضطرابات الداخلية الرومانية، وعلى الجبهة مع الأعداء الساسانيين الأقوياء الذين كانوا يحكمون في الشرق بقوة منذ عام 226 ميلادية وكانت تدمر قد وصلت إلى أعلى مرحلة في سلطانها عندما كانت أرستقراطيتها قد تمكنت من تقرير شؤون الإمبراطورية الرومانية بأكملها قد فقدت استقلالها واستلم الساسانيون الأعمال هناك وسيطروا عليها، وكانت تلك ضربة قوية موجهة إلى المصالح التجارية في الشرق وبالذات في تدمر.

سيتقرر في العقود القادمة من السنوات مصير المتروبول(المركز) الصحراوي الثري حيث أصاب القلق الشديد القيادات الرومانية، ففي الغرب هاجم الفرانكيون(الألمان والفرنسيون قبل الانقسام بين الأمتين ـ المترجم) بنجاح حتى وصلوا إسبانيا. وقام الغوطيون بالتسلل إلى اليونان وآسيا الصغرى في الشرق واقتحامها. وفي المشرق زحف الساسانيون وتمكنوا في عام 260م في معركة جرت بالقرب من أديسا من أسر القيصر فاليريانوس Valerianus وحاولت الأرستقراطية الحاكمة في تدمر بقيادة أوذيناذوس Odanathus(أذينة) إقامة اتصال مع الفرس المنتصرين، ولكنه لم يحقق نجاحاً في ذلك، وآنذاك ركز كافة قواه ضد الساسانيين ومطالب القيصر في سوريا. واستطاع من خلال هجومين على عاصمة الفرس طيسفون، أن يؤمن الطريق للقوافل التدمرية مرة أخرى إلى الخليج العربي.

وقد استحق أذينة لقاء هذا العمل على لقب رومانيOrients Corrector totius " وصي الإمبراطورية على كل الشرق " كما احتفظ لنفسه بأعلى الوظائف في عاصمته. وقد لاحظت سائر العوائل والأسر الغنية، لاحظت بوضوح أن مواقعهم قد أصبحت في خطر، وأن هذه السلطة المطلقة قد أدت إلى اغتياله عام 267من خلال أحد أقاربه.

وحل خلفاً لأذينة ابنه فابالاتوس Vabalatus على إمبراطورية الروم في الشرق. وفي اللغة العربية Allat-Wahb (وهب اللات) الذي كان لما يزل يافعاً ليقود الحكومة، لذلك استلمت والدته Zabbia - Bath ، أو بالعربية Zenobia، مهمة الوصاية عليه، وعندما كانت بالميرا (تدمر) لم تزل على إخلاصها للإمبراطورية الرومانية وللقيصر، وقد سكّوا النقود بشكل مشترك، أما الآن فإنهم بدؤوا يُظهرون الرغبة في تأسيس إمبراطورية خاصة بهم.
وفي عام 270، تم الاستيلاء على الولاية العربية Provincia Arabia (بصرى والبتراء وأرجائهما)، وبعد ذلك بوقت قصير على مصر التي كان حاكمها منهمكاً في الصراع مع لصوص البحر، ولم يستطع إبداء مقاومة فعالة، وفي الشمال زحفت القوات التدمرية إلى غرب آسيا الصغرى، وبذلك حطمت زنوبيا تلك العلاقة الشكلية مع الإمبراطورية الرومانية، ومنحت نفسها اسم أوغستا Augsta، كما منحت ولدها اسم أوغستوس Augustus، وبذلك فإن زنوبيا أدّعت السيادة على كامل الإمبراطورية وأصبحت تدمر عاصمة جديدة للمشرق، ومنارة للفن والفلسفة والروحانيات. وقد اتخذت زنوبيا كاسيوس لونجينوس مستشاراً لها، وكان على درجة من الذكاء والألمعية، وهو من الأفلاطونيين الجدد.

وقد استطاع أسقف أنطاكية بالولوس ساموساتا Baulos Samosata ، أن يجمع حوله عدداً من الأتباع ، لكنه أُدين لاحقاً بالهرطقة كزنديق ملحد بسبب دروسه الدينية، وكان يحظى بدعم زنوبيا. ولكن لم يطل أمر تدمر كثيراً، فعندما استطاع القيصر أورليان 270- 275م أن يجمع رجالاً لجيشه من إيطاليا، وكان قد تفرغ من العمل في الغرب، قاد جيشه صوب الواحات، فأعاد احتلال مصر، ثم ضرب جيش زنوبيا بالقرب من أنطاكية. وفي عام 272م احتل تدمر نفسها من قبل جيش القيصر أورليان، وأسرت زنوبيا بعد محاولة فاشلة في الالتجاء شرقاً(الفرس).

وانسحب أورليان من تدمر والمنطقة، وسرعان ما اشتبك مرة أخرى في مناطق الدانوب(وسط أوربا)، وعادت مدينة تدمر وانتفضت خريف عام 272، لذلك عادت إليها الجيوش الرومانية لتدمرها تدميراً تاماً، وكان نهوض المدينة وانتفاضتها أمر غير متوقع، ولكن المدينة بقيت بعدها محطة مهمة على طريق القوافل العربية والشرقية، ونقطة ارتكاز للقوات الرومانية على حافة البادية والصحراء ومواجهة الفرس.

وبأفول تدمر، انتهت سلسلة من المدن العربية ذات السيادة القوية، أو الدول الصغيرة التي كانت منضوية تحت إمبراطوريات في آسيا الصغرى من مخلفات الإسكندر، وكانت هذه الدول قد تأسست تحت زعامة الأرستقراطية العربية التي كانت تستند فيها بثروتها وبهيمنتها على تجارة القوافل وعلى البضائع الثمينة وعلى المراكز الزراعية. وليس أخيراً على امتلاكها لقطعان من الماشية وحيازتها للأرض. وكان التدمريون قد أخذوا الكثير من محيطهم لا سيما من أساليب العمل والمتطلبات الموضوعية الأخرى، إلا أنهم حافظوا على أسمائهم ولهجاتهم ولغتهم، وكذلك ديانتهم، واستفادوا كثيراً من التجارة بعيدة المدى في بناء السلطة والشخصية القوية، وصناعة الفنون اليدوية، وما بقي منها حتى اليوم هي شواهد على السلطة والعظمة والجمال.

رابعاً: العرب بين البيزنطيين والفرس

احتدمت خلال النصف الثاني للقرن الثاني الميلادي، أزمة عبيد في الإمبراطورية الرومانية، فيما كان نظام العبودية يسود مجتمع الفرس الساسانيين. وبدأت العلاقات الإقطاعية في ظل وضمن المجتمع الطبقي الشرقي القديم تبرز بقوة، حيث كانت القبائل والشعوب التي اجتازت مرحلة البداوة تقطن الحدود بين هاتين الإمبراطوريتين الكبيرتين، وكذلك بدأت أقوام جرمانية في الزحف من الشمال في عموم الغرب أيضاً في شرق الإمبراطورية الرومانية، وفي أواسط آسيا، بدأت أقوام بدوية تهدد حدود الدولة الساسانية. كما بدأت أقوام من بدو الجمال بالزحف من شبه الجزيرة العربية إلى الولايات الزراعية الخصبة للإمبراطورية الرومانية والساسانية.

وفي هذه الأثناء دخل البدو إلى دائرة الأضواء في التاريخ، بل لدينا مؤشرات مبكرة عن علاقاتهم الاجتماعية الداخلية منذ القرن الخامس الميلادي، وكانت قد بدأت مع القرن الثاني الميلادي ثم تطورت وقادت فيما بعد في القرن السابع من خلال الفتوحات الإسلامية إلى مرحلتها النهائية.

كانت بوادي شبه الجزيرة العربية مأهولة برعاة المواشي الذين تتراوح أنماط حياتهم من بدو رحل إلى الاستقرار في الإقامة والمعيشة. ومن المثير للانتباه بشكل خاص هو التطور اللاحق لبدو الجمال الذين ينتقلون مع مواشيهم في بوادي شبه الجزيرة العربية باتجاه المراعي والعشب في مطلع كل عام صوب الأمطار التي يطول انتظارها، ثم يعودون في أوقات السنة الحارة إلى مناطق محددة تبعاً للماء حيث يكون هناك ما يكفي من أعلاف لجمالهم. وهذا التجوال السنوي كان يتحدد في مناطق معينة حيث يتوفر الماء والكلأ وكانت بمثابة ملكية لتلك القبائل.

وكانت كل مجموعة من الخيام تشكل جماعة، وهذه تشكل الوحدة الاقتصادية السياسية وتضم حوالي 150 شخصاً، وهي ذات تنظيم بطريركي(نظام الأبوة) يتألف من عائلة وأقارب يشكلون عائلة كبيرة. وتمارس العائلة الرعي بشكل جماعي. ويوجد ضمن هذه العلاقة أيضاً علاقات مستقلة بدرجة معينة وكانت نواة العائلة(القبيلة)مؤلفة من الشخصيات ذات النسب والمحتد الذين يمتلكون العدد الأكبر من الجمال. ويتواجد أيضاً ضمن هذه الجماعة أقارب فقراء وأعراب مستقلون عن القبيلة ممن جاؤوا من قبيلة أخرى وانضموا إلى علاقات نظام الوكالة، وذلك يعني أنه يريد الحماية من اعتداء محتمل من مولاه السابق، وكان يطلب اللاجئ أن يقوم بأعمال الخدمات. وفي حالات لجوء كهذه، فإن اللاجئ لا بد أن يكون قد قام بما يعد ذنباً وقد يتجاوز أو يظهر عدم الإخلاص للتقاليد والحقوق. ففي هذه الحالة إذا لم يكن يشاء أن يعامل كعدو، أو أن يعيش على السلب والصيد، عليه أن يقرر الانضمام إلى جماعة أخرى كلاجئ والتمتع بكرم الضيافة.

وأقل من تلك الحقوق التي ينالها اللاجئ، ينالها العبيد الذين عليهم أن يقوموا بالأعمال الصعبة لدى كبار القوم، وهذه العبودية هي بسبب التجارة مع شرق إفريقيا، وهؤلاء(أي العبيد) لا يؤخذون كأسرى في المعارك، بل يعاملون بحسب درجة ومكانة مالكهم، فإن مكانة العبيد لا تختلف إلا قليلاً عن النساء ومن الذين لا قبيلة لهم(المستقلين).

وفي عائلة الأشراف، فإن أحدهم سيكون قائد القبيلة ويطلق عليه لقب (سيد القوم)، ثم أصبحت لاحقاً (شيخ)، الذي له المكانة القيادية في مجلس أشراف أو أعيان القبيلة وسلطته نابعة من حيث امتلاكه لأكبر عدد من الماشية ضمن القبيلة، وهو ينال الحصة الكبرى من حملات النهب وتصل هذه النسبة إلى الربع. ومن الممكن أن تكون أكثر من ذلك. وتلعب تجاربه في قيادة القبيلة في الحل والترحال وفي الحروب دوراً في انتخابه وهو يقوم أيضا بتمثيل قومه ويمارس دوراً باهظ التكاليف في أعمال الضيافة لكل من يقدم إلى مضارب القبيلة بحسب أهمية الضيف القادم ويقدم أيضاً الحماية في الحالات الضرورية للقادم.

ولم تكن رتبة سيد القوم وراثية، ولكن مع ذلك، فإن بعض العائلات تمكنت من الاحتفاظ بزعامة القبيلة، كما أن حيازة وامتلاك قطعان الماشية الكبيرة، أدت إلى المطالبة بأفضل المراعي ومصادر المياه، كما قادت في بعض الحالات إلى امتلاك غير شرعي لهذه المناطق من قبل عائلة واحدة وكان من السهل أن يؤدي تجاوز الحدود في منطقة رعي والدخول إلى منطقة قبيلة أخرى إلى صراع بين القبائل. وكان عليه أن يهتم بحيوانات الرعي من الجمال والخيل وغيرها والاهتمام بظروف الطقس والمناخ والطبيعة كالجفاف وإرواء القطعان من مصادر المياه التي تعد من مصادر الرزق كما كان يحدث أحياناً ما يطلق عليه حملة نهب، أو غزو بقيادة رجل مختص بالحروب من أجل نهب ماشية قبيلة أخرى، ولكن عليه أن يراعي في ذلك تجنب إراقة الدماء، إذ يتحمل ذاك الطرف القاتل مسؤولية حق الدم، وفي مثل هذه الحالة، فإن أقرباء المقتول يقتلون، أو التكفير بأحد أقربائه كفدية. وقد يؤدي الثأر لسنوات طويلة إلى مذابح ما لم يتوصل إلى اتفاق وتفاهم ويمنح أهل القتيل مبلغ الفدية كأن يكون مئة جمل مثلا وهذه الكمية لم تكن سوى ضمن قدرات الأغنياء إيفاؤها.

وكانت هناك على الدوام علاقات متعددة الجوانب، إذ كان الرعاة البدو يمارسون التجارة مع الفلاحين في الواحات فيأخذون منهم التمور والحبوب من أجل أن يقدموا لهم الحماية في البوادي المحيطة بهم. ويعقد الطرفان اتفاقيات يلتزم من خلالها للفلاحين بالدفاع عن الواحات ضد الأعداء، ولأجل ذلك فإنهم يأخذون منهم حصة من مزروعاتهم التي يمكن أن تصل إلى نصف إنتاجهم وهذه التجهيزات يمكن أن تكون على شكل ضرائب، وعندما تتفق القبائل على الدفاع عن هذه المنطقة ضد أي اعتداء، وإذا أدى الجميع التزاماتهم في هذا المجال، فإن التفاهم يتم على القضايا الأخرى.

ولا يظهر البدو قدراتهم على فرض سلطتهم اتجاه الواحات الخصبة فحسب، بل أن القبائل قد تتفق فيما بينها بقيادة أرستقراطية القبائل في تحالفات كبيرة تعقد إرادتهم ورغبتهم، ولكنها تمارس القوة في تحقيق مصالحها ضد تحالفات للقبائل الأخرى، ومثل هذه التحالفات تستمر لفترات طويلة عندما يكون بمستطاع أرستقراطية القبائل وتوسيع وصيانة مصالحها الاقتصادية وبسط سلطانها.

وقد كونت هذه التوجهات تحالفات كبيرة سارت مع ظهور فروق كبيرة في الملكية ضمن القبائل. وتمكن البدو الأكثر ثراءً أيضاً من بناء مكانة لهم من خلال التجارة، فقد كانوا يتقاضون المبالغ من القوافل المارة لقاء حماية قوافلهم وبضائعهم التي كانت تستخدم في متطلبات الرفاهية وكانت في نمو وتصاعد، أو في شراء العبيد أو في الحصول على الأسلحة المستوردة من الورش في المدن التي كانت على حافات شبه الجزيرة العربية. وكانت الأسلحة المستوردة عبارة عن القسي (مفردها قوس ـ المترجم) والحراب، وهي أسلحة البدو بصفة عامة. وقد حققوا تقدماً مهماً حتى مطلع القرن الثاني الميلادي في تسليحهم. وعندما أخذوا من البارثيين السروج

التي وضعوها على ظهور الجمال، فأتاح ذلك لهم الركوب فوق الجمل بثبات واستخدام مريح للقوس والسهم، وعدا ذلك، فقد جلبت لهم عمليات المقايضة أسلحة مثل: السيف والدرع الذي يوفر الوقاية من الأسلحة.
ومن خلال استخدام الخيول في شبه الجزيرة العربية تحققت القدرة على المناورة، أما الجمال فكانت السيطرة عليها صعبة في القتال، ومع ذلك فإن امتلاك الخيول ظل من نصيب الأثرياء والميسورين لأن تربية هذه الحيوانات هي ذات كلفة باهضة أكثر من الجمال.

ويحاول البدو في القتال اتباع تكتيكات خاصة بهم، وبدلاً من استخدام الحيوانات، فهم يهاجمون بسرعة وينسحبون بسرعة كذلك، وبذلك فهم يستخدمون بالدرجة الأولى لحظة المفاجأة(المباغتة) وبهذه الدرجة العالية من القدرة على المناورة لم تستطع جيوش مسلحة تسليحاً ثقيلاً الاحتفاظ بالمدن التي تقع على حافة شبه الجزيرة العربية. ولهذه الأسباب فقد حاولت الدول في الشمال والجنوب ربط هؤلاء البدو إلى جانبهم عن طريق عقد الاتفاقيات ووضعهم في إطار مصالحهم واهتماماتهم أي على الأغلب في حماية قوافلهم الكثيرة. وأدت تلك اللقاءات مع الملوك والدول ذات النظم الاجتماعية الفوائد أكثر بكثير من تلك الاتفاقيات التي كانت مجاميع أو تحالف القبائل تعقدها بين بعضها البعض.

كانت هذه الاتجاهات تزداد وضوحاً في شبه الجزيرة العربية مع حلول نهاية القرن الثاني الميلادي، وإن أقدم تحالف مع القبائل العربية الجنوبية هي تلك التي عقدتها قبيلة كندة، والتي كان قادتها يعاد انتخابهم خلال عدة مئات من السنوات كقادة لتحالف عدة قبائل تحت قيادتهم. وأول تحالف عقدوه كان عام 190 عندما قام الملك العربي الجنوبي شيروم عوتار Samrum Autar بالتوجه إلى السواحل الغربية لشبه الجزيرة العربية وزحف حتى بلغ أنحاء الطائف من أجل التوصل إلى توحيد قبائل كندة وقحطان بقيادة قبيلة التاور Al Taur وكان مركز هذا الاتحاد الكبير يقع وسط شبه الجزيرة وفي أخصب منطقة الواحات التي تدعى افلاج Aflag وقد امتدت حدودها إلى جميع الاتجاهات، وكان هؤلاء الأعداء يهددون بشكل واضح تجارة سبأ. وعندما غزا الملك العربي الجنوبي شامار يوهارس الثالث Samar Yuhars III بقواته شرق شبه الجزيرة، فقد احتاج إلى موافقتهم لكي يمر بأراضيهم، كما قاتل ضد التنوخيين الذين كانوا تحت قيادة أرستقراطية قوية في شرق شبه الجزيرة التي كانت دائماً موقع نفوذ لبلاد النهرين.

وقد زحف هذا التحالف الكبير في غضون القرن الثالث مستغلاً الضعف الذي كان البارثيون يعانون منه في بلاد النهرين، والذين كانوا قد أرسلوا جمالهم في تلك السنوات إلى مناطق غربي الفرات حيث المراعي الخصبة. ولما كانت تلك المنطقة مهمة جداً للتجارة بين الشرق والغرب والتي طالما كانت مثار نزاع بين الفرس والروم، توجب على العرب أن يلتقوا مع أحد تلك القوتين العُظمتين على أية حال، وقد تفاهموا فيما بينهم على أن يقفوا مع القوة الحاسمة. وقد فعلوا ذلك بعبقرية ودبلوماسية تتفهم الأوضاع السياسية والعسكرية.

إذن وبقيادة قيصر ديوكليتيان Diokletian الذي توغل في أعماق بلاد النهرين، ووقف إلى جانبه أحد قادة التنوخيين الذي يحمل اسم امرؤ القيس بن عمر، بل ويحتمل أنه قدم مساعدة لهم وأخضع التحالف الكبير في وسط شبه الجزيرة محطماً بذلك مملكة كندة الأولى، ووصل بنفسه إلى أسوار المدينة التجارية نجران في الحدود الشمالية للجنوب العربي. وبعد وفاته عام 328 دفن في المدينة الروحية التي تقع على حدود نامارا Namara وكتب على قبره "ملك كل العرب". وللأسف فإن الأخبار عن هذا القائد محدودة، وهي مكتوبة على شاهد قبره فحسب، وليس بوسعنا أن نتعرف على وجه الدقة بمعلومات عن مدة حكمه ولا عن الاستقرار في عهده.

وكان يقيم في الحيرة عدد كبير من ممثلي القبائل العربية، ومنهم من كان في السابق من البدو الذين ألفوا السكن في المدن وفق تقاليد وشروط جديدة فقدوا من خلال قوتها خصائصهم البدوية. ومؤرخوا العصور العربية المتأخرة يطلقون عليهم المجتمعين، ويلاحظون بدهشة هذا التطور المثير. وفي هذه المدينة ـ المعسكر جاء أيضاً عدد كبير من عرب شبه الجزيرة من أجل الأمان والاستقرار، كما سكنها عدد من التجار والحرفيين، وسرعان ما أصبحت هذه المدينة مركزاً لتجارة التبادل السلعي(المقايضة) مع المناطق الفارسية. وكان للأسر العربية اللخمية وزناً وأهمية كبيرة في بلاط طيسفون، فتحت رعايتهم كان قد ترعرع شاهنشاه بهرام الخامس Bahram V الذي بدعم منهم تسلم عام 420 عرش الطاؤوس. كما قاتل اللخميون إلى جانب الساسانيين عام 421 ضد الروم الشرقيين الذين كانوا في غضون ذلك يلعبون في الولاية الرومية سوريا، أدواراً سياسية مختلفة مع العرب هناك.

وبينما كان العرب اللخميون يبرزون كقوة قبلية قيادية في المناطق الواقعة تحت حكم الفرس، كان العديد من القادة العرب في المناطق الرومية من القبائل يتذمرون من دفع الضرائب السنوية التي كانت قد فرضت عليهم. ومن الوقوف إلى جانب روما ضد الأعداء الداخليين والخارجيين والسيطرة على القبائل التي كانت تحاول تطوير أوضاعها وتنظيمها، التي كانت تمثل القوة العسكرية لعرب البوادي.

وكان التحالف مع البدو هو الفرصة أو الإمكانية الوحيدة للروم لضمان درء خطر هؤلاء الأعداء. إذ أن المخاطر العدائية للبدو يمكن أن تؤدي إلى نتائج سيئة كما أظهرت الأحداث مع الملكة ماويا Mawian التي كان زوجها زعيماً للقبائل العربية متحالفاً مع الروم في مناطق الحدود الفلسطينية ولم تجدد التحالف بعد وفاته. وأصبح مقاتلوا القبائل تحت قيادة ماويا في الولايات الرومية سوريا وفلسطين(أي سوريا الطبيعية)، وبدؤوا بتهديد شرق مصر. وقد طلب القائد العام للقوات الرومية الشرقية المساعدة من جيوش رومية أخرى بعد هزيمته إذ لم يستطع أن يفعل شيئاً إزاء السلب والنهب الذي حصل في معسكره.

وكان موقف ماويا جيداً، مما جعل الروم يرضخون لشروطها في عقب اتفاقية جديدة. ثم ظهرت مرة أخرى مع مقاتليها، ولكن كحليفة للروم، إذ أنها قامت بإرسال قواتها عام 368 إلى القسطنطينية لكي تساعد الروم في دفاعهم ضد الغوطيين المنتصرين.

وفي إطار الحل والترحال الواسع النطاق للقبائل العربية في عبور شبه الجزيرة، ظهر ممثلوا كندة بعد مئة عام على حدود الإمبراطورية الرومية الشرقية، والذين جاؤوا من أواسط شبه الجزيرة. ومع أن قادة الكنديين كانوا تحت قيادة الروم، ولكن زعماء منهم كانوا مع أعداء الروم أيضاً وحسب المصادر اليونانية فإن أحدهم وهو امرؤ القيس Amorkesos، (الاسم حسب المصدر اليوناني) قد تحصن في جزيرة لوتابة Lotape (اسمها اليوم تيران) في مخرج خليج العقبة، ومن هنا كان يسيطر على الجزء الأعظم من التجارة العربية الشمالية التي كانت الجزيرة تمثل مركزاً لها.

ولم يكن بوسع البيزنطيين فعل أي شيء حياله، وفي المقابل فقد كان عليهم أن يقروا بسيادته. وفي عام 473 اعترفوا به قائداً لكافة القبائل العربية عبر المناطق الأردنية(نهر الأردن)، ولم يتمكن البيزنطيون من استعادة السيطرة على جزيرة لوتابة ومنها التجارة في البحر الأحمر إلا عام 498.
وقد بدد العرب بعد هذه الفترة السلام في الولايات الرومية عندما زحف الساسانيون المدعومون من العرب اللخميين بعيداً إلى شمال بلاد النهرين، ومرة أخرى احتاج البيزنطيون إلى الوسائل

الدبلوماسية في السياسة من أجل كبح جماح العرب. ففي عام 502 عقد اتفاق للسلام مع قائدهم الكندي حارث يلتزم فيه من الآن فصاعداً بالقتال هو ومن معه من الأعراب في خدمة الإمبراطورية البيزنطية ضد الفرس وحلفائهم اللخميين.

وكان الصراع على السلطة في صفوف العرب المتحالفين مع البيزنطيين يجري بين قادة القبائل. ففي الربع الأول للقرن السادس بدأت تتكون تدريجياً أسرة حاكمة، وهي الغساسنة Gassan التي بدأت تأخذ شيئاً فشيئاً موقع قبيلة كندة وكذلك بروز قبيلة الصالح Salih.

وكان التوسع الأكبر لسلطتهم قد حصل بين الأعوام 525 - 528 عندما استولى الحارث بن عمر على مناطق اللخميين وأخذ عاصمتهم. وبينما كان ملكهم المنذر الثالث يخوض مع قواته حرباً في سوريا وألحق الهزيمة الكاملة بالساسانيين وملكهم مع كل قواته التي كانت منشغلة بإخماد حركة المزدكيين في الإمبراطورية الفارسية. وسمح له ضرب المزدكيين باستعادة مدينة الحيرة وطرد الكنديين الذين سقطت دولتهم عام 529، وتجزأت إلى العديد من الزعامات الصغيرة بقيادة الزعماء الكنديين.

وقد استغل اللخميون الضعف المتزايد في سلطة الكنديين وبسياسة ذكية ناجحة بين القبائل وإحداث الفرقة والانقسام بين الكنديين إلى أن تحقق السقوط النهائي لمناطق كندة عام 530 بواسطة الصراعات الداخلية، وتقسمت ووزعت بين اللخمين في الشمال والحميريين في الجنوب.

وتروي قصص التاريخ العربي عن نهاية آخر أمير من كندة واسمه امرؤ القيس بن حجر الذي حاول عبثاً بمساعدة البيزنطيين استعادة المواقع التي فقدها، وتردد الأشعار عنه صور خرافية عن المغامرات الحربية والغرامية لهذا الأمير المتجول.

وقد أظهرت تجربة إمارة كندة بجلاء، بأنه كان من الممكن أن تتحد القبائل العربية وأن تستولي على مناطق خارج حدود شبه الجزيرة العربية. وكانت دولة كندة تقف على الحد الفاصل بين المجتمع القبلي والمجتمع الطبقي سواء بين قبائل البدو أو الرحل المستقرة. فمن المؤكد أن العلاقات القبلية كانت قوية، ولكن كان ينقصهم شيء يربط بينهم، شيء كالإسلام من أجل جعل القبائل في اتحاد دائم. وأن النظام القبلي القديم قد تحطم من خلال سياسة القوى العظمى ومن خلال التحالفات التي كانوا يقدمون عليها.

وبنهاية دولة كندة، كان الاستقرار في إطار بروز أسر عربية قوية جديدة يرتبط مع البيزنطيين أو الفرس، وكانت هذه الأسر تتصارع فيما بينها صراعاً مريراً في إطار التحالف مع تلك القوى. ومع ذلك فإن الصراع كان يجري من أجل مصالحهم في السيادة. ففي سوريا استلم الحارث بن جبلة، فقضى على انتفاضة خطيرة قام بها السامريون عام 529 وقد أنعم عليه القيصر جوستينيان بلقب بارتيكيوس Parttikios، وهو نفس اللقب الذي كان قد أنعم به على الملك الشرقي ثيودوريس.

وكانت الأحداث التاريخية والمعارك المتواصلة بين الغساسنة واللخميين تشهد صراعاً من أجل السيطرة على طرق التجارة في الشرق الأوسط ومن أجل النفوذ على شبه الجزيرة العربية، كما أن الأمر لم يكن بين الملوك العرب فحسب، بل وكان يدور أيضاً من أجل تنفيذ طلبات وسياسة البيزنطيين أو الفرس. وعندما عقد السلام بين هاتين القوتين العظمتين عام 561، كان الاتفاق يتضمن أيضاً بشكل صريح، منع الجهات العربية من الغزو أو القيام بأعمال التجارة خارج

الطرق الرسمية المحددة التي تعد من أعمال التهريب. وقد أظهرت بنود الاتفاقية المكتوبة الدليل على حجم الفعاليات العربية واتساعها وتناميها، والتي لم تتوقف حتى بعد عام 561. ولكن وبرغم اتفاقية السلام في المنطقة البيزنطية تم إنهاء حكم الملك اللخمي عمر عام 563.

ولا يدور تاريخ الغساسنة واللخميين حول المعارك والصراعات فحسب، بل أن كلاهما كان قد لعب دوراً نشيطاً وفاعلاً في سياسة الأقاليم التي كانت في الحقيقة بأيديهما، ولا سيما عند الغساسنة بين أغلبية الآراميين من سكان سوريا، وكان للبيزنطيين دور هام إذ بذلوا مساع كبيرة في إحداث الانقاسامات وترسيخها بينهم.

إن هناك تعبيراً واضحاً حدث في المجال النظري، ذلك أن المسيحية التي أعلنت كدين رسمي للدولة في الإمبراطورية الرومانية عام 391 ثم انقسمت فيما بعد باتجاهات عديدة. وإذا كانت النزاعات المريرة تدور حول المواضيع اللاهوتية، ولكن دون غياب المصالح السياسية أيضاً كانت تتدخل في ذلك. ففي سوريا، حيث أصبحت اليد العليا للموحدين Monophsitism(***)على حساب المذهب الرسمي الأرثوذوكسي. وقد وجد الموحدون الدعم والحماية لهم وللمسيحية لدى ملوك الغساسنة. ثم أن الغساسنة كانوا يعلمون أي نفوذ سياسي ينالون بدعمهم للموحدين.

وكان الحارث بن جبلة (ملك الغساسنة) يتدخل بفعالية في النزاعات والمجادلات بين الأرثودوكس والموحدين، بل وسعى، ونجح في مسعاه لدى القسطنطينية بالسماح لأساقفة الموحدين بالعمل بين السوريين والعرب الذين كانوا اعتنقوا في القرن الرابع المسيحية في المناطق القريبة من شبه الجزيرة العربية وبين الأساقفة ورجال الدين الذين أجيزوا بالعمل، فكان يعقوب براديوس Jakob Bradaus وهو الذي أسس مذهب اليعاقبة للموحدين السوريين.

وبينما كان الغساسنة قد اعتنقوا المسيحية، ظل اللخميون على ديانتهم العربية القديمة. فقد تواجد في قصر الحيرة(مقر إقامتهم) المسيحيون الآراميون من بلاد النهرين، وكان بينهم هناك من اتبع اتجاهاً آخر للمسيحية وهي النسطورية Natorianismالتي كانت تعبيراً عن الانفصالية التي أبدتها مسيحية ما بين النهرين.

وكانت الزرادشتية تمثل الديانة الرسمية للدول الساسانية، فقد كان الأمر مطروحاً على أنه القطب المواجه للموحدين السوريين والأرثودوكسية البيزطية، وتوجب على الملوك الساسانيون الأخذ بنظر الاعتبار النسطورية في سياستهم على أية حال، لأن التجار والحرفيين في المناطق الغربية من الإمبراطورية كانوا في غالبيتهم من النساطرة، وسمح للخميين بتأسيس دير بالقرب من مقر إقامتهم، وإجازة أسقفية في الحيرة. بينما كان رعاياهم من العرب يدخلون تدريجياً في المسيحية نتيجة للنشاط القوي الذي كانت تقوم به البعثات التبشيرية، كما دخل المسيحية الملك اللخمي الأخير النعمان الثالث بن المنذر الرابع عام 580.

وبينما كانت الدولتان العظمتان تتلاعبان في الشمال الغربي، بالدولتين العربيتين(غير تامة الاستقلال)، كان يسود شبه الجزيرة العربية على الأغلب علاقات خالية من الثقة سواء للفرس أم للبيزنطيين، وكانت كلتا الدولتان تحاولان التمدد نحو الجنوب. وبالنسبة للبيزنطيين كان البحر الأحمر يمثل طريق التجارة المهم نحو شرق إفريقيا والهند، إذ كان الطريق البري تحت سيطرة أعدائهم الساسانيين الذين من جانبهم يريدون حرمان البيزنطيين من طريق البحر الأحمر.

وحاول البيزنطيون بسياستهم في هذا المجال أن يؤمّنوا كلا الساحلين للبحر الأحمر سواء من خلال الاحتلال أو بواسطة الحلفاء. وكانت مصر في الشمال على الساحل الإفريقي للبحر الأحمر وتقع في قبضة احتلالهم. أما في المنطقة التي تمثل السودان اليوم، فقد كانت تقطنه قبائل محاربة، فيما كانت في المناطق الشمالية لإثيوبيا اليوم إمبراطورية أكسوم القوية وكان بالإمكان كسبها كحلف.

وكان عرب الجنوب في النصف الأول للقرن الأول ق.م قد أمنوا طريق التجارة الإفريقية الشرقية واستطاعوا بسط السيادة على القبائل المحلية هناك. وزحفت هذه المستوطنات العربية حتى وصلت إلى المرتفعات الإثيوبية فاستطاعوا توسيع سلطانهم عبر صراع دائم مع القبائل البدوية هناك، وبذلك كان لهم نفوذ وشأن سياسي متزايد في منطقة جنوب البحر الأحمر سواء على السواحل العربية أو الإفريقية. ثم قاموا في توسعهم نحو الشمال، بوضع نهاية للقرصنة البحرية هناك. كما ساهموا بين الأعوام 200/150 م في الحروب العربية الداخلية كحلفاء مع الأسر الحاكمة، وفي هذا الإطار استطاعوا اقتحام العاصمة الحميرية زفار Zafar ولكنهم لم يستطيعوا أن يحتفظوا بها طويلاً، ويشير التاريخ الموثق لإمبراطورية أكسوم التي بلغت ذروتها في عهد الملك إيتسانا Ezana الذي كان قد وثق شخصياً ارتباطه السياسي بدخوله المسيحية منهجاً مذهب الموحدين في عام 330 قد قام بحملات ناجحة ولا سيما في الشمال حيث وسعوا حدودهم بصورة محسوسة.

وقد وجدت روما أن ذلك قد يكون حليفاً وممثلاً لمصالحها، ففي عام 336 قام مبعوثون رومان بزيارة عاصمته، وقد حاول المبعوثون من حكومة القيصر قنسطنطين الثاني، Konstantins II 350-361 تأمين هذا الجانب من البحر الأحمر لصالح روما في البلد العربي الجنوبي الجار.

أما في الجنوب العربي، فقد كانت تدور وقتئذ عمليات في البنى العليا لا يمكن متابعة جذورها في مفرداتها وتفاصيلها، ولكنها ستكون واضحة ومرئية فقط من خلال النقوش على النذور في المعبد السبأي القديم عوام Awwam بالقرب من مأرب. ومنذ قرون عديدة وعدد لا يحصى من الحكام نقشوا على الحجر نجاحاتهم في الحروب ومنجزاتهم الاقتصادية، وسيرهم الشخصية. وفي أواسط القرن الرابع للميلاد توقفت هذه النذور بعد أن قبلوا بالدخول في التوحيدية المسيحية، وفي نفس الوقت انهار سد مأرب العظيم ولم يشهد إصلاحاً جوهرياً بعد ذلك، وعادت الواحات وقطع الأراضي المحدودة الصغيرة إلى دائرة اهتمامات الحكام في الجنوب العربي الذين ركزوا أنفسهم في المناطق المرتفعة. وفي نفس الوقت دخل المسيحية ملك عربي وأسس كنيسة في العاصمة الحميرية ظفار.

وعاش الجنوب العربي بعد عام 400 انتعاشا جديداً في عهد أبي كريب أسد Abu Karrib Asad، الذي توغل بجيشه إلى عمق الشمال وغزا الواحات الشمالية في وسط شبه الجزيرة التي كانت تخضع لنفوذ اللخميين. وفي عهد ولده حسان يوهامين Hasan Yuhamin الذي أسس بعد ذلك بقليل دولة كندة، ذات التبعية للجنوب العربي بقيادة قبيلة آكل المرار Akil al Murar الذي كان مرتبطاً بالعوائل الحميرية بعلاقة قرابة.

وكانت الأوساط الحاكمة في الجنوب العربي، الذين كانوا يرغبون تحقيق السيادة الذاتية حيال الفرس والبيزنطيين، كانوا بموجب مصالحهم الاقتصادية موزعين في الولاء مع هذه أو تلك من القوى العظمى التي يسعى كل منهما تحقيق مصالحه. ومنذ حوالي العام 440 كان بالإمكان ملاحظة شيء من التبعية في الجنوب العربي للفرس لدى القبائل الميالة لهم. وهم على النقيض من العوائل الموحدة التي كانت في بلاد فارس والمؤيدة للبيزنطيين، لأن اليهودية كانت هي

الديانة الرسمية للبيزنطيين. ولمدة تقارب القرن، كان قد أحرز شيء من السيادة في الجنوب العربي، وقد وجد في ذلك ملوك الجنوب (الذين كانوا يهوداً)، حلفاء طبيعيين لهم في الشمال من شبه الجزيرة العربية، وفي الواحات التي تشكل محطات على طريق البخور، والتي كانت تقطنها منذ زمن بعيد أعراق يهودية، وكانت لهم علاقات قوية مع الفرس، وقد أبدت الواحة الثرية نجران الواقعة إلى الشمال من الجنوب العربي، والتي كانت مركزاً هاماً للتجارة وأشغال النسيج، أبدت دعماً موالياً للبيزنطيين وكانت قبائلها الثرية المسيطرة تمتلك الأراضي والتجارة وشيئاً من الاستقلالية. وأكثر من ذلك، فعندما تمزق الجنوب العربي إلى دويلات بفعل مساعي التجزئة التي مارستها القبائل الكبيرة التي تمتلك الأراضي، وكان بين أسوم ونجران روابط وثيقة لأنهم يلتقون نظرياً من خلال ديانة التوحيد.

وفي بداية القرن السادس الميلادي، استطاعت القبائل اليهودية الموالية للفرس أن توسع سلطاتها، وعندما أصبح يوسف السار Yusuf Asar ملكاً بدأ بتوحيد الجنوب العربي باستخدام القوة بينما كان يدفع السكان الذين كانوا على ديانة التوحيد والموالين للبيزنطيين في حوالي العاصمة القديمة زفار على ساحل البحر الأحمر وفي نجران إلى الانتفاضة، وقد تمكن عام 518 أن يتسيد على كافة الجنوب العربي بعد أن هزم أعداءه.

وقد عرضت منجزات يوسف هذه تجارة البيزنطيين للخطر في البحر الأحمر والتي كان يسيطر عليها الأكسوميين وأهالي نجران. وطالبت بيزنطة بتدخل إثيوبيا التي كانت ومنذ بداية نهوض سيادة يوسف في الجنوب العربي قد قامت بحملة استطاعت أن تسيطر على منطقة هي قرب مدينة زفار. وفي عام 525 جددت سيادتها على البحر، ثم تمكنوا بدعم من القبائل المحلية التي لم يكن في مصلحتها نفوذ يوسف، من تسديد ضربة له وإلحاق الهزيمة به.

وتتفق أعمال المؤرخين وكتابات السير الدينية، أن تدخل إثيوبيا في فعاليات يوسف، كان بسبب ملاحقة عنيفة كانت تدور ضد المسيحيين من قبل الملك اليهودي، وأن إنقاذ الأخوة المؤمنين من قبل الإثيوبيين (المسيحيين)كانت مطروحة، مع أن الأسباب الكامنة كانت في إطار مصالح أكسوم ولكسب حماية وعطف الإمبراطورية البيزنطية.

وقد حاول يوسف أن يحمي ظهره من خلال التحالف مع اللخميين والفرس، ولكن بمقتله في إحدى المعارك بدأ عرب الجنوب في مرحلة النضال ضد الاحتلال الإثيوبي. ثم حسم النصر الذي أحرزه القيصر البيزنطي على كل من كان يتعاون لمصلحة التجارة مع الفرس، وبذلك فإن المسيحية كديانة رسمية أقرّت في الجنوب العربي. وكان بعض عرب الجنوب يعمل بين القيادات الإثيوبية ولو بصورة شكلية، وكانت قوات الاحتلال الإثيوبية، هي القوات الحقيقية في البلاد وهي التي قامت بخلع الملك ونصبت أحدهم ملكاً والذي ينحدر من أصل العبيد واسمه أبراهام(أبرهة في التاريخ العربي) ملكاً على "سبأ وذي الرياضين وحضر موت ويمنات Yamnat وعرب الأراضي المنخفضة والمرتفعات" وقد استلم أبرهة الحكم في البدء على أنه وكيل للدولة، ولكنه بدأ تدريجياً وببطء يحكم سيطرته ويقوي مواقعه التي جعلته في الواقع متمتعاً بالاستقلال.

وفي بداية حكمه توجب عليه قمع الانتفاضة التي أشعلها ضده النبلاء والأعيان من عرب الجنوب بقيادة أحد أمراء كندة من أجل الحفاظ على مصالحهم التي تلتقي بالمصالح الفارسية. ولكنهم ربما لم ينتبهوا إلى إصلاح سد مأرب الذي كان في القرون الأخيرة قد لحق به الخراب، وقد استلم إصلاحه. وفي عام 456 أمر الملك بإجراء إصلاحات وتحسين أدائه. ومن أجل استطلاع هذا المرفق المهم للري وإعادته للعمل، فقد كلف بذلك قواته بعد أن استطاع أن يخمد

الحركات المناهضة له. كما توفر له المجال من أجل أن يعتني بتوسيع الأعمال التجارية وأن يكسب النفوذ بما في ذلك القبائل العربية التي تتعامل مع البيزنطيين، بينما كان حتمياً أن تتعارض مصالحه مع مصالح اللخميين الذين لم يستطيعوا مهاجمته بسبب حروبهم مع الغساسنة في الشمال.

وهكذا قاد أبرهة عام 547 الحملة على معاد Maadd وسط شبه الجزيرة، وهذه الحملة أوغيرها لأبرهة، التي وصل فيها قرب مدينة مكة، كانت حاسمة في تاريخ هذه المدينة، بحيث أن تلك السنة أصبحت بداية لتاريخ يسمى بعام الفيل، وهي تلك السنة التي صادفت ميلاد الرسول (ص).

وكان حكم أبرهة هي الذروة في تاريخ العربي، إذ استطاع أن يؤسس دولة مركزية وأن يمد حكمه إلى أواسط شبه الجزيرة ونستطيع أن نعلم أية أهمية منحها الحكام المعاصرون له من خلال الحقائق التي تطرحها الأحداث، كونه استقبل بعد إخماده لحركة الانتفاضة ضده، مبعوثين من النجاشي أكسوم وقيصر بيزنطة، ثم وفداً من الشاهنشاه الفارسي وسفيراً من الغساسنة واللخميين. وقد توقفت الأخبار المكتوبة على الأحجار منذ هيمنة أبرهة على الحكم، والتي كانت الشاهد على الثقافة العربية في الجنوب. وقد تقلد الحكم بعد وفاة أبرهة في نهاية الخمسينات للقرن السادس الميلادي، عدة ملوك، إلى أن سيطرت الأرستقراطية العربية الجنوبية على الأوضاع وكانت تعمل لمصلحة الفرس. وفي نهاية عام 575 نزلت القوات الفارسية في الجنوب العربي، في الزاوية الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة وحل هناك موظف يمثل الملك الساساني، وقد اعتبر ذلك خسارة مهمة للتجارة البيزنطية.

وفي تعاقب الأحداث في شبه الجزيرة منذ النصف الثاني للقرن السادس الميلادي، أصبح من العسير تثبيتها وتأكيدها. وتورد المصادر العربية عن تلك المرحلة أخباراً كثيرة تدور عن صراعات حربية بين القبائل أغلبها يدور عن الماشية والمياه، ولكن احتلال شبه الجزيرة قد اكتسب أهمية من خلال الاحتلال الساساني لها والذي كان احتلالا جزئياً ومحدوداً، وكان يدور على الأغلب عن احتلال الواحات، وقد لعبت قبيلة عربية : يمامة / هاودا بن علي yamama Hauda ibn Ali / وهي قبيلة مسيحية في السيطرة على التجارة بين بلاد النهرين وجنوب شبه الجزيرة.

وفي الشمال استمرت الحروب بين الغساسنة واللخميين، فقد استطاعت كلتا القبيلتين الحاكمتين من مواصلة السيطرة على المناطق التي بحوزتهم، كما عملوا على إزاحتهم. وفي عام 581 سجن القائد الغساني (ابن المنذر) بأمر من البيزنطيين كما تم إيقاف الراتب السنوي لقبيلته. وتبعاً لذلك فقد غزا ولده (النعمان) الأراضي البيزنطية ولكنه اندحر في حملته. وبعد ذلك بقليل وجدت الأسرة اللخمية الحاكمة نهايتها لمبررات مماثلة، وكان ذلك مما له علاقة مع نتيجة مهمة في تاريخ العرب: إن النزاع من أجل إرث آخر الملوك اللخميين قادت إلى معركة تقابل فيها الفرسان الفرس مع حلفائهم العرب من بني شيبان كممثلين لمصالح قبائل اللخميين. وفي معركة ذي قار استطاع مقاتلوا البوادي في عام 602 من هزيمة الفرس، وفي ذلك إشارة إلى القوة المعنوية والعسكرية لمحاربي القبائل، تلك القوة المعنوية التي وجدت في السنوات اللاحقة تعبيراً جديداً لها في الفتوحات الإسلامية.

وفي سوريا، تحطمت سيادة الغساسنة التي كانت لما تزل موجودة وربما قوية(ذات سيادة محدودة) تحت الضربات الفارسية. وبموجبها فقد استطاعوا في عام 14/613 احتلال دمشق. ولكنهم تكبدوا خسائر فادحة في توسعهم لاحقاً باتجاه الإمبراطورية البيزنطية.

وقد كانت دول الغساسنة واللخميين التي تأسست على حدود وحافات شبه الجزيرة العربية بين القوتين العظميين المتنافسين، البيزنطية والفارسية، كانت عبارة عن تحالف قبائل إذ لم يكونوا قد تعرفوا بعد على نظام المؤسسات. والبدو وأشباه البدو كانوا يحملون معهم بدرجة كبيرة طبيعة حياتهم، مع سريان آليات عملية طويلة، ولا سيما في مركز تلك الدول، كانت تحل علاقات اجتماعية جديدة محل النظام القبلي الصرف.

وكانت الصلات مع البيزنطيين والفرس تعمل على توسيع الفروق بين أرستقراطية القبائل وعناصر القبائل البسيطة، واستخدموا مقاتلوا القبائل تحت قيادتهم، الذين يتمتعون بالقدرات العسكرية العالية في معاركهم الداخلية والخارجية في الصراع على السلطة والنفوذ. وفي توسع الإمبراطوريات، كان للغساسنة واللخميين سياستهم الخاصة والتي مارسوها حيال القبائل في شبه الجزيرة العربية.

وكان للمدن التي تقع على الحافة أثر في التطور الثقافي للعرب إذ لعبت دور الخطوة والواسطة بين الفرس والبيزنطيين ذوي الحضارة المتطورة من جهة، وبين البدو والقبائل المستقرة في شبه الجزيرة العربية من جهة أخرى. كما كان للعلاقات بين المسيحية وجزء كبير من القبائل(الغساسنة واللخميين) أهمية خاصة في العمل المليء بالتضحيات. وكانت المسيحية في البعثات تربط هؤلاء العرب حيناً بالصلات الوثيقة للبيزنطيين، باعتبار أن المسيحية كانت قد أصبحت ديانة الدولة الرسمية، ومن جهة أخرى كانت هذه تمنحهم ضمن الإمبراطورية الانطباع النظري بشيء من السيادة الذاتية ودعماً للمساعي الانفصالية للولايات وكان ملوك الدول العربية قد أقرّوا ما هو ضروري من أجل وحدة القبائل وتجاوز الصراعات والخلافات الدائمية. و لم تستطع المسيحية أن تنفذ عميقاً إلى نفوس أعراب البوادي، بسبب من تطورهم الاجتماعي.

وقدم الغساسنة واللخميون في المجالات الثقافية الأخرى، الكثير لتاريخ العرب ولعبوا دوراً مهماً. فقد شيد ملوكهم على حافات الصحراء أديرة فخمة حيث كونت لاحقاً بنمطها مرحلة العبور إلى الفن الإسلامي. واستطاع العرب في الحيرة وحولها، الحفاظ على الخط العربي والذي كان متأثراً بالخطوط النبطية والخط السوري ـ الآرامي والذي تطور كثيراً في القرون اللاحقة.

وكانت قبل ذلك قد نشأت في شبه الجزيرة خطوط في الجنوب العربي، وكان أثرها على الأغلب غرافيتي قصير وفيها نداء إلى الآلهة وذكر اسمائها وهي موجودة من الجنوب وحتى الشمال، كما أن هناك في المصادر القديمة خطوط لقبيلة قديمة تدعى (ثمود).

وقد مثلت بلاطات ملوك العرب نقطة الوسط لثقافة البدو من العرب التي تجد تحقيقها وعلى أعلى أشكالها في الشعر. وكان الشاعر يعظم ويمجد في أشعار ذات قوافي طويلة، يتغني ويمتدح قبيلته ويهجو الأعداء، ومع ملاحظة ومراقبة دقيقة وحادة لمحيطه، للبوادي وللحيوانات والصيد، ثم عن اللوعة والحزن، أو لفراق حبيبته، والحزن لموت قريبه. وظهر في بلاط الغساسنة الجديد من الشعر البدوي، وفيه كان الشاعر لا يمدح قبيلته أو يتفاخر هو شخصياً باعتباره ممثلاً لها فحسب، بل يمدح الملوك أملاً بنيل الحظوة من الحاكم.

وكان في تأسيس التحالفات القبلية ذات الأمد الطويل والدول الأولى للقبائل العربية، الإشارة إلى التطور الحاصل بصورة مباشرة قبل ظهور الإسلام. التي أظهرت بوضوح إلى أي درجة قد

وصلت عملية التمايز ضمن القبائل، وكانت العلامات الأولى والمقدمات لظهور الدولة الإسلامية والفتوحات العربية بقيادة الرابط الأوحد: الإسلام.

إجمالي الفصل الأول

في حوالي القرن الثاني ق.م بدأ العرب في التحول من الجنوب العربي والانتقال إلى زراعة الأرض واستغلالها وكذلك الوديان بشكل مكثف، وفي المناطق الجبلية الشرقية من خلال بناء عدد كبير من السدود ومشاريع الإرواء. وهذا التطور قاد القبائل إلى تمايز اجتماعي قوي بين المزارعين في الأرض. وأدت هذه التحولات في الجنوب العربي إلى تدهور تدريجي للنظام الجنتيلي وبناء مجتمع طبقي على أرض شبه الجزيرة العربية. أما على الصعيد السياسي، فقد تكونت دول عديدة في الجنوب العربي خلال أواسط القرن الأول ق.م (منها سبأ، قتبان، معين، ولاحقاً قبيلة حمير). وقد وصل بعضها إلى درجات عالية في استمراريتها لأوقات طويلة وممارستها دوراً هاماً على أجزاء من شبه الجزيرة. ولعبت الزراعة الدور الأهم في الحياة الاقتصادية، وكذلك احتكار تجارة القوافل، تجارة البخور، المر، التوابل من الهند والذهب والأحجار الكريمة. وفي دول المدن في الجنوب العربي التي تطورت بدرجة عالية نسبياً، ثقافة ذاتية مع امتلاكها لخط خاص بها.

أما عرب البدو في الشمال الذين كانوا يعتمدون تربية الجمال، فقد ابتدؤوا تدريجياً بتشكيل علاقات اقتصادية وعسكرية وسياسية وثقافية متطورة مع عرب الواحات الغربية ومستوطناتها، ودول المدن في الجنوب العربي مع الإمبراطوريات الكبيرة: الآشورية، البابلية، الفرس، الدول الصغيرة في فلسطين وسوريا. وكان عرب الشمال يكتسبون المزيد من الأهمية.

وفي العصر الهيليني ـ الروماني، جاء للمرة الأولى دور تأسيس الدول على حافة البلدان الزراعية في فلسطين ـ سوريا ولتدوم طويلاً بقيادة قبائل عربية شمالية مستوطنة(ليسو بدو رحل) كالنبطيين. كما تمكنت الأرستقراطية العربية في فلسطين وسوريا وشمال بلاد النهرين، عوائل وأسر حاكمة أن تلعب دوراً رائعاً ومهماً كالدولة الصحراوية ـ التجارية تدمر، وكانت هذه الدولة التي تأسست قوية في الثقافة الهيلينية المتطورة والتي تلقت تأثيرات البلدان المجاورة، سورية وفلسطين.

ومن علامات هذه المرحلة، تطورت القبائل العربية خلال القرون 6/5/4 ميلادي، من خلال تطور عملية التمايز الاجتماعي ذات معالم واضحة ضمن القبائل، وكذلك من خلال تأسيس الروابط والتحالفات الطويلة الأمد بين القبائل وتأسيس الدول من قبل العرب أنفسهم مثل إمبراطورية كندة والأسر الحاكمة اللخمية والغساسنة. وعلامة أخرى لهذه المرحلة هو تسلل الدول الزراعية إلى حدود شبه الجزيرة العربية من خلال العرب البدو وأشباه البدو وهذه مثلت عملية كان ختامها الفتوحات الإسلامية في القرن السابع الميلادي.

الهوامش

(*)الجنتيلي : نظام العلاقات الاجتماعية والاقتصادية في مرحلة البداوة ما قبل الاستقرار/ النظام الرعوي ما بين القبلي المستقر والبدو الرحل/ المترجم

(**)بارثر - Parther : شعب كان يقطن شمال إيران، تمكنوا بقيادة أرساكيدين من تأسيس أمبراطورية للفترة من 247 ق.م إلى 226 ميلادية في شمال إيران وبلاد ما بين النهرين وخاضوا حروب كثيرة مع الروم/ المترجم

(***)الموحدين : التسامي والعلو، الإيمان لشخص واحد المبعث من الله، وفضلت ترجمة ذلك إلى الموحدين فذلك أقرب للصواب/ المترجم

الفصل الثاني

الإسلام وظهور نظام الخلافة 600 م / 661م

1. مهبط الإسلام.
2. محمد (ص) والإسلام.
3. الفتوحات الأولى.
4. الصراع على الخلافة

إجمالي الفصل

أولاً : مهبط الإسلام

لم نتناول في العرض الذي قدمناه حتى الآن أواسط غرب شبه الجزيرة العربية، و ذلك يظهر للوهلة الأولى بأن هذه المنطقة كانت خارج الاهتمام السياسي للدول العربية أو للدول المجاورة، ولكن حتى إذا كانت المصادر لتلك المرحلة ضئيلة، فإن بالإمكان متابعة الأحداث المعينة باهتمام كبير.

وكانت قبائل عديدة تنتشر في غرب الجزيرة في عدد من الواحات الخصبة والتي ترتبط عبر بواديها بطريق البخور المقدس، وعلى سواحلها حيث تتواجد مصائد الأسماك. وكانت محاولات عديدة قد جرت من الشمال للتوسع باتجاه هذه المنطقة، ففي القرن السادس ق.م كانت قد جرت محاولات عديدة لاقتحام المنطقة، منها محاولة الملك البابلي نابونيد الذي قام بحملة باتجاه الواحة الكبيرة يثرب، وكذلك حاول الحكام الرومانيون وممثلهم في مصر أليوس جالوس، الذين كانوا قد جابوا هذه الأرجاء. كما كان التجار العرب من الجنوب العربي قد أقاموا العلاقات مع الواحات ومع القبائل البدوية المجاورة لهم من أجل ضمان الأمان لقوافلهم المارة من تلك المنطقة المتجهة إلى البحر المتوسط.

وعندما قامت وتزايدت السفرات البحرية للبطالسة، ومن بعدهم الرومان في البحر الأحمر، الذين خاضوا الصراعات المريرة مع القبائل الساحلية التي كانت تعرّض الرحلات البحرية للخطر من خلال فعاليات القرصنة، كان أكسوم قد تمكن من تأمين السلام في هذه السواحل في السنوات الأولى من القرن الأول الميلادي وضمها إلى مناطق سيادته. وفي القرن السادس الميلادي تمكن اللخميون حلفاء الساسانيون من مد مناطق نفوذهم إلى أجزاء كبيرة من شبه الجزيرة العربية إلى نهاية حكمهم. ثم تطورت في غرب شبه الجزيرة نفسها، الحركة الإسلامية في القرن السابع الميلادي، وتمكنت لاحقاً من الاتساع إلى خارج شبه الجزيرة العربية.

وقد تضاعفت منذ القرن السادس، اهتمامات المؤرخين حول المنطقة، وكان لوجود مكة والطائف أهمية خاصة، وكذلك واحة يثرب التي تقع إلى أقصى الشمال من هذا المثلث، وهي واحة خصبة، أمكن زراعة النخيل والحبوب فيها من خلال شق الترع وأعمال الري. وهي لم تكن مستوطنة مغلقة، بل عبارة عن بيوت متناثرة تقطن فيها قبائل وعوائل. وإلى جانب الزراعة، مارسوا التجارة مع البدو، وكانت جزءاً من تجارتهم بعيدة المدى، وبالإضافة لذلك كانوا يحوزون على سمعة جيدة باعتبارهم عمال حرفيين مهرة.

وتقع واحة تيماء إلى شمالها مباشرة، حيث كان يعيش فيها يهود عرب، وهم بالأصل كانوا قد حلوا هنا من فلسطين، ثم شكلوا قبائل مختلفة: قنيقاع، قريضة، بني نضير، وهؤلاء لم يكونوا يمتلكون مجلس قبيلة أو نظام سلطة قبيلة. وعندما تقدمت من الجنوب القبيلتان العربيتان: أوس والخزرج وتوسعوا باتجاه الواحات الخصبة، وكانوا في صراع بينهم، ثم تحقق توازن بدرجة ما عام 618 في معركة بوات Baut ولكن ذلك لم يوقف الصراع الداخلي الذي أثر دون شك على الوضع الاقتصادي الممتاز ليثرب.

ومقابل يثرب كانت الطائف التي تقطنها قبائل ثقيف، وهي منطقة جبلية خصبة كانت مستغلة من قبل قبيلة عامر القوية وكان هؤلاء قد عقدوا اتفاقية حماية بعد أن أخذت ثقيف بزراعة الأراضي

الشبه صالحة للزراعة، بالتمور والحبوب والفواكه. وكان عليهم أن يدفعوا لهم من إنتاجها. وكانت ثقيف قد حصنت مواقعها خارج وحول المدينة بجدار منيع، مثّل عائقاً غير قابل للاجتياز من قبل البدو. وهكذا فقد أمّنوا شر هجماتهم وتسللهم. وكانت ثقيف تعمل بالتجارة، وبهذا الصدد كانوا يستغلون اسم الآلهة "اللت".

وفيما كانت كل من الطائف ويثرب تقعان في مناطق خصبة مثمرة قابلة للاستغلال، كانت مكة تقع في وادي مجدب غير مثمر " سورة إبراهيم - 37" وهي على مسافة سفر يوم من طريق البخور المقدس القديم وتنتشر بيوت سكان هذه المدينة (مكة) حول الكعبة المقدسة. وتجمع كافة المصادر أن سكان هذه المدينة كانوا يمارسون التجارة في المقام الأول، مع القبائل البدوية المجاورة.

وكان وجهاء وزعماء قبيلة قريش يمثلون سادة هذه المدينة الصغيرة، وقد أتقنوا بمرور الزمن مستلزمات الوجاهة، وكانوا على اتصال مع البدو المحيطين بهم، واستطاعوا السيطرة على الأوضاع القبلية، كما أنهم كانوا يمنحون حق اللجوء الذي يظلله قدسية المكان. وكان يقطنها عدد كبير من الغرباء الذين دخلوا في نظام علاقاتها. واتّبع القريشيون نظام القبائل وإدارة شؤونهم من قبل مجلس القبيلة الذي لم يكن يسعى إلى العنف في تنفيذها، وإذا حدث وطرأت الحاجة لتنفيذ إحدى القواعد والقرارات، فإنه يحتاج إلى آراء الجماعة وإسنادهم ودعمهم.

وفي النصف الثاني للقرن السادس، بدأ نضال مكة من أجل توسيع نفوذها وسيادتها، وكان تجار الطائف من أهم المنافسين لمكة في هذا المسعى، وسوقها الشهير "عكاظ" ،الذي كان يتحكم بالجزء الأعظم من التجارة في نجد. وفي صلاتهم وعلاقاتهم مع القبائل البدوية في نجد. وقد تمكن المكيون من توسيع سلطتهم، وأن ينتصروا في الحرب الثالثة "الفجار" على الجارة الثرية "الطائف". وابتدأ السكان بدخول نظام علاقات قريش التي استولت على أفضل الأراضي التابعة لثقيف.

ومع توسع التجارة بدأت الفروق تظهر في قبيلة قريش. وكانت توسيع دائرة النشاط تستلزم وسائط مواصلات وأموالاً كثيرة ودبلوماسية ذكية باهظة التكاليف. وفي ذلك تمكن المخزوميون وبنو أمية الذين كانوا أقوياء في تثبيت مواقعهم. وبعد أن أصبحت نجد جزءاً من السوق المكية، اندفع التجار المكيون إلى احتكار تجارة البلدان العربية الجنوبية. و كان تجار عرب الجنوب حتى الآن يأتون إلى مكة من أجل طرح بضائعهم هناك، ومن مكة التي تجارتها قد أصبحت بيد قريش كانت تنقل إلى الشمال حيث المناطق البيزنطية.

وكان استلام تجارة عرب الجنوب يستلزم الإبقاء على علاقات طيبة مع الفرس الذين كانوا يسيطرون على الجنوب العربي. وبهذا التساهل الذي أبدوه، تمكنوا من الإبقاء على هذه التجارة، وعلى أية حال ضد المقاومة التي أبدتها بعض القبائل القليلة الثرية التي عقدت تحالفات للحماية ولنيل المساعدة(حلف الفضول). ومن ضمن هذه التحالفات، حاز بنو هاشم، وهي القبيلة التي سيخرج منها النبي محمد(ص)، موقعاً قيادياً. بينما كانت قبيلة بني أمية التي كانت في اتحاد معها، هي الآن متحالفة مع مخزوم وتعمل على إزاحتها. وكان أبو سفيان وهو أحد زعماء أمية، قد أصبح (في المرحلة التي كان فيها الرسول محمد(ص) شاباً) من أثرى تجار وملاكي مكة ويتمتع بزعامة قبيلة قريش وبموقع عظيم داخل مجلس القبيلة.

وفي عهد وحياة الرسول محمد(ص) كان المكيون يمارسون التجارة الواسعة مع البلدان الواقعة على حافة شبه الجزيرة. إذ كانت القوافل القادمة تأتي من الجنوب العربي محملة بالبخور والطيب
، ومن إثيوبيا بالذهب والعبيد وكانت هذه البضائع تسوّق إلى الشمال وتستبدل (كمقايضة) في سوريا مقابل أقمشة ثمينة وبالأسلحة. وكانت تجلب من مصر الحبوب الضرورية للمعيشة، وحيال هذه التجارة البعيدة المدى والواسعة كان على المكيين أن يمارسوا دبلوماسية ذكية وواقعية. وكان شركاؤهم التجاريون في عداء مع بعضهم البعض، ففي الجنوب العربي كان هناك وكيل الدولة الساسانية، وفي إثيوبيا الأكسوميون(نسبة إلى أكسوم ـ المترجم) الذين كانوا على صلات جيدة مع الحكام في مصر وسوريا والبيزنطيون. وهكذا لم يكن بوسع التجارة المكية أن تتقدم إلا باستخدام التناقضات بين هذه الدول واستغلال نقاط ضعفها.

وكانت المنتجات النفيسة السورية والمصرية من المنسوجات والأسلحة، تجد رواجها عند أرستقراطية القبائل وقبائل البدو. وتعقد في هذه الأسواق الصفقات مع التجار المكيين، وقد ربطت قريش نشاطاتها التجارية بين القبائل بمكانة مكة المقدسة. وكان المتحالفون مع مكة أو الذين عقدوا أواصر الصداقة معها من القبائل العربية، كانوا كأغلبية البدو ينظرون إلى مكة نظرة مقدسة ضمن نظام العبادة الذي هو تعدد القوى الغيبية Polytheism والتي تمثل عدداً كبيراً من الأرواح الخبيثة والحسنة والتي ومن وجهة نظرهم قد أرسلتها الطبيعة. وكانت في القرن السادس الميلادي تمنح انطباعاً عن الاتجاهات المتنامية لاتحاد القبائل، والتي كانت قليلاً ما تركز على أنواع الآلهة التي تُعبد في الكعبة. وكان اللات أحد أهم تلك الآلهة، ويلعب دوراً كبيراً، وكانت هذه القدسية لمكة سبباً في أن يزورها العرب سنوياً وبطقوس احتفالية، وكذلك الحجر النيزكي الأسود المشهور الذي يقبله زوار الكعبة. وكانت سفرات الحج هذه لها شهرها المحدد في السنة، وفي غضونها كان على القبائل أن تلتزم الهدوء(السلام) ويجري إيقاف عام للقتال. وفي هذا الوقت القصير، كانت الاتصالات المختلفة تجري وتشتد فيما بينهم، وفي تلك الأشهر كان يمكن حتى للقبائل المعادية أن تتواجد في مكة التي تسيطر عليها قريش، فتدور المحادثات الدبلوماسية حتى بين الأعداء، فيما كان شعراء القبائل يتواجدون بقصائدهم في المدح والهجاء، وهنا أيضاً كانت تقايض قريش بضائعها النفيسة مقابل منتجات البدو من الجلود.

ولم يقتصر نشاطهم على التجارة فقط، بل وكانوا يضاربون في السوق بالشؤون المالية. وكان أثرياء مكة يقرضون فقرائها وكذلك كانوا يفعلون مع البدو. وكان بوسع المستفيدين من الديون المساهمة بالقوافل التجارية مع سوريا، ويجب أن تعاد الديون مع فوائد عالية متصاعدة، وإذا عجز مستدين إيفاء ما عليه من ديون، فإنه سيسقط في التبعية للدائن وعليه أن يعمل لسداد الدين والفائدة. وبهذه العلاقات كانت القبائل والتجار توسع من ثرائها ونفوذها على حساب الفقراء وعناصر القبائل والبدو في الجوار ممن كانوا لا يزالون في طور العلاقات الجنتيلية(القبائلية الغير مستقرة) والذين يعيشون في المدن أو على حوافها.

ثانياً : محمد (ص) والإسلام

لم تصلنا جميع الأنباء التاريخية الموثوقة عن بدايات الإسلام وعن حياة وتأثيرات مؤسسة المكي محمد (ص)، ولكن أحد المصادر التاريخية وهو القرآن، الذي بموجبه يؤمن المسلمون، بوصفه كلمات الله المنزلة على محمد(ص). وعلى الرغم من بعض الصياغات الرمزية والتحفظية، فإن القرآن يبقى المادة الأكثر وثوقاً.

والمصدر الآخر عن الإسلام المبكر هو الحديث، وهو عبارة عن ملخص لأحاديث وأعمال الرسول(ص) مع رفاقه وأعدائه. وقد جمعت في القرن التاسع. وإذ ليس لهذه الأحاديث طبيعة تاريخية محددة، إذ أسهمت تيارات مختلفة داخل الإسلام في طريقة تقديم الرسول، أصدقائه وأعدائه. وقد كتبت (أحياناً)وفقاً للأهواء والأغراض وهذا ينطبق على الصياغات المختلفة للمسلمين عن حياة الرسول(ص)(السيرة)، لذلك فإن عرضاً نقدياً لهذين المصدرين هو أمر لا بد منه. وتأثيرات حياة الرسول محمد(ص)، هو أمر لا ينفصل عن تاريخ الإسلام، بل هو مترابط معه. لذلك فإن الصورة التالية عن سيرة حياته تمثل في ذات الوقت مقطعاً مهماً من تاريخ العرب.

ولد الرسول محمد(ص) في عام 570 م بمكة في قبيلة بني هاشم الفقيرة وهي من بطون قريش. وكان والده عبد الله تاجراً قليل النجاح قد توفي بعد ولادته، وعندما أصبح عمره ستة سنوات توفيت والدته آمنة بت وهب، وكان جده عبد المطلب بن هاشم آنذاك زعيماً للقبيلة، فأخذ الغلام اليتيم في حمايته. وبعد وفاة عبد المطلب عام 679 اهتم به ورعاه عمه أبو طالب، الزعيم الجديد للهاشميين. وتخبرنا الأنباء، بأنه عمل في صباه راعياً، ثم رافق عمه أبا طالب في رحلاته التجارية إلى سوريا. وفي حوالي العشرين من عمره عمل لمصلحة أرملة تاجر ثري(خديجة بنت خويلد) وقاد القوافل التجارية العائدة لها إلى سورية، ثم تزوج منها عام 595، ووفر هذا الزواج للشاب الفقير قاعدة مالية ثابتة ساعدته على أن يتمكن من العيش في حياة طيبة. وفيما عدا ذلك، فإن وجود هذه السيدة الحكيمة إلى جانبه ساعده، لا سيما في السنوات الأولى من دعوته الدينية، إذ قدمت له دعماً معنوياً مهماً. وفي أقدم السور القرآنية، تنص على الشكر الذي ينبغي تقديمه " ألم يجدك يتماً فآوى ووجدك ضالاً فهدى ووجدك عائلاً فأغنى " سورة الضحى - 8)(*)

وأسفرت هذه الزيجة عن خمسة أطفال بضمنهم أربع فتيات، منهن فاطمة وهي الأكثر شهره. ولم يتزوج الرسول أي من النساء حتى وفاة خديجة، وبحسب التقاليد التي كانت سائدة في تلك العهود، فإن ذلك كان يعد برهاناً على العلاقات الطيبة التي كانت بين الزوجين.

والأعوام 609 / 610 كانت من السنوات التي لعبت دوراً حاسماً في تاريخ الإسلام. والرسول الذي كان يعتبر قياساً إلى رفاق عصره بكونه إنساناً رقيقاً حساساً، كان يختلي غالباً لوحده في جبل حراء القريب من مكة، حيث كان يمضي الليالي ناسكاً في التأمل. وكان الرجل البالغ من العمر الأربعين ذو التجارب، تاجراً متوسطاً في مرتبته الاجتماعية، تكثفت في نفسه شخصية احتجاج اجتماعي.

وكانت حياة الرسول محمد(ص) دائماً في ظلال السلطة المضطهدة والفئات العليا من المجتمع المكي الساعية إلى التجارة والأرباح. وكان قد شاهد معركة الفجار، ولاحظ كيف تمكن من خلالها تجار مكة الأثرياء وقبائلها التجارية من بني مخزوم وبني أمية من تحقيق التفوق الاقتصادي والسياسي في مكة وجوارها على حساب استغلال القبائل بما فيها قبيلة محمد(ص) نفسها. كما أن محمد(ص) كان قد شاهد كيف أن قبائل مكة الضعيفة تحاول الدفاع عن نفسها ضد سيطرة الأغنياء الذين قرروا بقيادة بني هاشم طلب المساعدة (حلف الفضول)، كما كان شاهداً على استخدام أرستقراطية مكة لرموز العرب القديمة من الآلهة المقدسة، وهي تقدم على ذلك بلا وازع من ضمير خدمة لمصالحها ومساعيها. فهذه الأحداث بالإضافة إلى التجارب الشخصية، باعتباره كان أحد أعضاء قبيلة فقيرة مضطهدة من القوى الأكثر ثراء، وكان مليئاً بالأحزان مما دفعه إلى الاحتجاج. كما كان في سفراته التجارية, وفي مكة أيضاً قد تعرف والتقى مع مسيحيين ويهود، مما ساهم في تطوير أفكاره لاحقاً.

وفي إحدى ليالي شهر رمضان، ليلة القدر، وهي الليلة التي شهد فيها الرسول النزول الأول عليه. وبحسب ما يصلنا من المسلمين، فإن الملاك جبرائيل أنزل عليه القرآن(5ـ سورة الشورى) وإن الله اختاره من العرب ليكون لشعبه نذيراً ونبياً " يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر 3/1 المدثر) فهو قد آمن بأن الله قد نادى عليه وقد اصطفاه ليحرك الشعب ونيل رضا الله والإيمان به (الإسلام).

و كان على الرسول من خلال هذا النداء المفعم بالمسؤولية الأخلاقية إلى مواطنيه، أن يحقق العدالة الاجتماعية ويزيح الظلم. فبدأ هجومه على الفئات العليا من مجتمع مكة كما ورد في القرآن: " ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر " 2/1 التكاثر) وكذلك في سورة " إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين" 34/33 الحاقة) ويتوعد الكافرين بالقانون الجديد " إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحقت وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلّت وأذنت لربها وحقت يا أيها الإنسن أنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعوا ثبوراً ويصلى سعيراً " 1/ 12 الانشقاق). و كان الرسول (ص) يحذر بسور معبرة من أهوال يوم القيامة ويرغب حياة أهل الجنة، إذ كان يحذر الناس من يوم الحساب كل على أفعاله، وهي تعاليم ليست بعيدة عن المسيحية.

وكانت خديجة هي أول من اتبع الرسول مع ابن عمها المسيحي إيماناً بما كان يدعو إليه، ثم انضمّ إليه مبكراً ابنه بالتبنّي زيد بن حارثة، وابن عمه علي، وصديقاه التاجران أبو بكر وعثمان اللذان ينتسبان إلى قبيلة أمية القوية. وكان أتباع الرسول الأوائل ينتمون بغالبيتهم إلى (الفضلاء)، وأن ذلك يشير إلى أن احتجاج الرسول الاجتماعي قد انطلق من الفئات الوسطى من أرض مكة ضد الفئات العليا القوية المتنفذة بإحياء الأمل بمساعدة الفضلاء.

ولم يكن الرسول ليفضي بأفكاره في البدء إلا إلى وسط ضيق. فقد كان الرسول قد جوبه في البدء كرد فعل من الفئات العليا بالسخرية والتهكم حول دعوته. فقد رموه بالجنون (22- التكوير) و (2- القلم) وكساحر (2- ص) وكقارئ للغيب (42 ـ الحاقة) وكذلك في رفعه شعارات التوحيد لاحظ (34ـ المدثر) و(22/17 سورة عبس) و(7/1 الأعلى) و(9ـ المزمل). وكلما مضى الرسول (ص) في دعوته وفي شعارات التوحيد، كانت المقاومة تتصاعد ضده من مكة الثرية عندما رؤوا فيه حرباً على إيمان العرب القديم بتعدد القوى الغيبية Polytheism وإن هذا المذهب الجديد سيعرض مصالحهم الاقتصادية ومواقعهم القيادية للخطر، وهي التي كانت تعتمد

في جزئها الأعظم على استغلال عبادة الآلهة للأغراض التجارية. ولكن المكيون لم يستطيعوا التعرف على الإمكانات التي يطرحها الإسلام لهم، وأن محمداً(ص) كان قد حط من دين آبائهم " قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين" 6/1 الكافرون)، ثم أن الرسول كان يقول لهم " قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد " 4/1 الإخلاص).

ولم يقلص الرسول محمد(ص) من أهمية الكعبة التي كان الرب قد باركها منذ القدم. بل كان صارماً فيما يتعلق بوحدانية الله ومتشدداً ضد الشرك، والتسليم بالله الواحد. وتلك هي الضرورة التاريخية المطلوبة في دولة واحدة تكون مكة مع كعبتها في وسطها. وأن تطوراً كهذا يقدم موضوعياً لطموح المكيين الاقتصادي والسياسي ولأرستقراطية مكة الثرية، المزيد من التقدم وشروطاً أفضل، ولكنهم وفي خضم اهتماماتهم ومصالحهم اليومية لم يستوعبوا في غالبيتهم الفرصة التي يعرضها عليهم الرسول والإسلام في إصلاحاته. لذلك فقد كان في نظرهم خطراً حتى في اعتكافه عن المجتمع المكي.

وكان الرسول(ص) وأتباعه حتى ذلك الوقت، يمثلون ضغطاً متنامياً، اقتصادياً وجسدياً ضد الأرستقراطية التي قادها زعيم القبيلة التجارية القوية أبو جهل، كان محمد(ص) والكثير من أتباعه ينالون الحماية من قبائلهم، إذ لم تكن صلات الدم التقليدية قد فقدت تأثيراتها بعد. ولكن في غداة التحول إلى العام 615، وبناء على نصيحة من الرسول، هاجر بعض أتباعه وهم على الأغلب كانوا من العبيد الذين نالوا حريتهم، وأعراب بدون قبائل إلى إثيوبيا، وقد عاد جزء من هؤلاء عام 622 في حين لم يعد الباقون قبل 828. ويحتمل أن يكون الرسول محمد(ص) قد ربط هجرة أتباعه إلى إثيوبيا بآمال سياسية وتجارية من خلال التناقض الذي كان قائماً بين أكسوم حاكم إثيوبيا وبين مكة. وتشير فعاليات أكسوم اللاحقة على الأقل ضد مكة، أنها كانت تهدف إلى ذلك بوضوح، من خلال تهديد الاحتكار التجاري للأرستقراطية لهذه المدينة وإرغامها على الاستسلام.

وقد تواصلت المعارضة من جانب القبائل الثرية بعد هجرة أعداد من المسلمين، فقد حاول أبو جهل إرغام أبي طالب(قائد الهاشميين) لكي يرفع دعمه وحمايته عن الرسول محمد(ص) إى أن العم استمر حتى النهاية بتقديم الدعم لابن أخيه. ولما فشلت مجهوداتهم بعزل الرسول وأنصاره بدأت القبائل القوية تعمل في عام 616 بفرض المقاطعة على المسلمين في بيان تحريري طرح على سائر القبائل في مكة للالتزام به وذلك بتجنب إقامة علاقات تجارية مع بني هاشم والمسلمين.

ولكن بعد سنتين فقط، سقط هذا التحالف، فقد لاحظت القبائل بوضوح وتذكرت مرحلة حلف الفضول والإجراءات التي كانت تدعمها والتي لم تكن تحترم سوى الأثرياء والأقوياء. وكان فشل المقاطعة وانضمام عمر بن الخطاب الشخصية المؤثرة المحترمة قد غيرت من توازن العلاقات بين المجموعة المسلمة الفتية وأعدائهم وجعلتها متعادلة، فعندما توفيت خديجة زوجة الرسول، وعمه أبو أبو طالب في عام 619، كان ذلك يعني بالنسبة له فقدان الدعم المادي بوقوف قبيلته إلى جانبه، ثم استلم عدو غاضب على الرسول(ص) وهو من عائلة أبو لهب، استلم قيادة بني هاشم، وها هو ينقض الوعد باستمرارية دعم الرسول وحمايته. وكانت تلك مناسبة أن يرد ذكرها في القرآن " تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى ناراً ذات لهب وامرأته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد " 4/1 المسد).

وفي ظل هذا الوضع الصعب للمجموعة الإسلامية الصغيرة، أرغم الرسول على اتخاذ قرار بالغ الأهمية: إذ قرر الخروج مع مجموعة من أتباعه للمرة الأولى خارج حدود قبيلته قاصداً بني ثقيف في الطائف حيث تقدم له روابط الدم، الحماية التقليدية، وعلى أمل أن يكسب هناك أتباعاً، ولكن المحاولة أخفقت إذ أن سكان هذه المدينة قاموا بطرده بتأثيرات فئات مكة العليا وسيطرتها الاقتصادية.

وهكذا لم تبق أمام الرسول سوى آمال ضعيفة، ولكن حدث أن اتصل بالرسول محمد(ص) في عام 620 ستة أشخاص من أهالي يثرب كانوا قد آمنوا به. وكان توتراً في يثرب قد بدأ يسخن من جديد، بين المقيمين والقبائل الرئيسية وتهدد بحرب دموية بين الأخوة. واعتقد المؤمنون في يثرب بأنهم وجدوا في الرسول(ص) الحكم العادل الضرورة وغير المتحيز ثم انضموا من خلاله إلى الإسلام. وفي العام الذي تلاه، قررت مجموعة أخرى من المؤمنين في يثرب أن تعقد اتفاقية مع الرسول في تلال منطقة العقبة بالقرب من مكة سميت باتفاقية العقبة، وفي ذلك تعهد أهل يثرب أن يقبلوا بمحمد(ص) نبياً ورسولاً من الله، وأن يطيعوه وأن يقلعوا عن الكفر، وتوجه أحد المسلمين إلى يثرب ليعلم المؤمنين هناك الإسلام ويعظهم.

الهجرة بدأت، وهي لم تكن هرباً، أو هزيمة، بل هي كانت انفصالا عن القبيلة وعن العائلة واستبدالاً لرابطة الدم برابطة العقيدة المشتركة. وفي أواسط أيلول/ 622 غادر الرسول وأبو بكر مكة سراً. وفي حوالي نهاية أيلول أيضاً، وصل على ظهر بعيره إلى يثرب، وشيد في المكان الذي توقفت فيه الناقة وبركت، داراً واستخدمت كمسجد بعد وفاته. وفيما عدا جماعة من الذين هاجروا عام 615 إلى إثيوبيا ولم يعود قبل 628، فقد اجتمعت الجماعة الإسلامية الآن بشكل ثابت ودائمي في يثرب.

والآن فقد غدا الرسول محمد(ص) في موقعه الجديد القائد السياسي لجماعة كبيرة العدد محاطة بالأعداء والتحديات، ذلك ما نلاحظه في هذه الوثيقة النادرة(الصحيفة)، بأن نظام الجماعة في المدينة (التي كان اسمها يثرب، وهي مدينة الرسول) قد وضعت الدستور لنواة الدولة الإسلامية المقبلة، وفي حوالي منتصف العام الثاني للهجرة 624م في الهجرة من مكة إلى المدينة) والأنصار وهم سكان يثرب ـ المدينة من الأوس والخزرج الذين ساعدوا المهاجرين وكذلك مع جميع السكان القاطنين في المدينة من غير المسلمين" لقد كونوا أمة واحدة" W67 كما لاحظ الفقرة "إن المهاجرين من قريش ظلوا كما هم وقد دفعوا بشكل مشترك مبلغ التكفير وأطلقوا بأنفسهم سراح سجنائهم، وأن اشتراك ومساهمة المؤمنين الآخرين هي مسالة بدافع الصداقة والمحبة"(W67) وإن الأمر لا يقتصر كونه عقاباً أو غرامة ولكن شكلاً من اتحاد قبائل Konfordation التي هي عملية تقليدية عند العرب ما قبل الإسلام. وكانت القبائل في المدينة قد نالت شيئاً من الحكم الذاتي، في حين كان المهاجرون والأنصار يعدون قبائل. وهذه الحقوق كانت تشمل اليهود أيضاً " فهم كانوا يحتفظون بديانتهم، بل أنهم بنواً معبداً"(W70)، نعم فأن الأخوة في الدين كانت فاعلة بسبب شخص غير مؤمن ولا أن يقف مع غير مؤمن ويساعده ضد مؤمن" (w69)(**)

و استمر العمل بالجلسات التقليدية للقبائل، كما في حالات الثأر، وإن كانت تجري وفق التعاليم الإسلامية " إن المؤمنين هم لبعضهم في مسألة الثأر عندما يتعلق الأمر بقضيتهم في سبيل الله" (w69)، وقد تعززت مكانة الرسول الشخصية في مرحلة التحول من جماعة مسلمين وصراع قبائل إلى قائد جماعة وهو لم يكن بعد قد أصبح حاكماً لا حدود لسلطاته على الأمة، ولكن مكانته الدينية عند القبائل العربية ليست موضع جدال " عندما يحصل شيء ما بين المؤمنين أو

مشاجرة. فعلى المرء أن يخشى العواقب الشديدة، إذ أن القضية يجب أن تكون في سبيل الله والرسول" (w72) .

وكان على الرسول (ص) التركيز على السلطة السياسية. وفي هذا المجال كان زعيماً لقبيلة مثل غيره. وقبل عودة الرسول (ص)الظافرة إلى مكة، عندما استطاعت أرستقراطية مكة المعادية إرغامه على التراجع، كان يتوجب عليه أن يتخذ تدابير الوقاية في المدينة. وقبل كل شيء الانتباه إلى المعارضة داخل الجماعة الإسلامية وضربها من أجل ضمان وتأمين الموقع السياسي والقيادي وبصفة خاصة شكلت القبائل اليهودية الثرية والمنتسبين إلى زعامات القبائل العربية الذي دخلوا الإسلام، شكلوا للرسول ولأنصاره من المهاجرين خطراً متنامياً.

ومن أكثر المجاميع السياسية نشاطاً وفاعلية قامت من بين ما يطلق عليهم، المسلمين بالاسم (شكلياً) من قبائل الأوس والخزرج، والذين يظهرون تحت ستار الإسلام إ
خلاصاً مزعوماً للإسلام ويدسون على الرسول، لذلك سمي هؤلاء المنافقون. وكان قائد هؤلاء عبد الله بن أُبي من الخزرج، وكان قبل الهجرة يحاول من خلال إثارة اضطرابات حرب أهلية، أن يصبح حاكماً أو سيداً لهذه المدينة. أما الآن فالرسول محمد(ص) قد حل في المدينة، وأغلقت الطرق أمام بن أبي وجماعته. ولذلك ليس مستغرباً أن يترافق سعي المعارضة الإسلامية للرسول في هدفها، التطلع نحو السيادة الاقتصادية والسياسية، تبدأ في نفس الوقت فيه القبائل اليهودية مؤامراتها ضد الرسول.

كان الرسول(ص) وجماعته ما يزالون يعتقدون بأن اليهود سيدعمونهم في نضالهم الديني والسياسي(لاحظ 2- البقرة)، غير أنه سرعان ما تكونت لديهم حقائق مريرة " لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون" 52- المائدة). وكانت قبائل اليهود المتفوقين في التجارة والزراعة، قد باتوا يخشون المنافسة الإسلامية، واتخذت مقاومتهم شكلاً دينياً في الهجوم على الرسول محمد(ص)، وهكذا فإن صراع الرسول (ص)مع اليهود قد ابتدأ.

وفي مطلع عام 624 حوّل الرسول (ص) اتجاه القبلة للصلاة من الاتجاه نحو القدس وجعلها صوب مكة(150 ــ البقرة) وبدلاً من الصيام في عاشوراء تحول الصيام إلى شهر رمضان(185- البقرة)، وهذه الإجراءات مثلت عملية التعريب، أو تمكينها (جعلها مكية) والتي كانت في الختام تميزاً عن دين إبراهيم من جهة وارتباطا بالكعبة التي تعزى إليه بناءها، وبذلك أيضاً ميز أطروحته بأنه الرسول، وهو العضو الأخير في حلقة الأنبياء الذين يعودون في أصلهم إلى إبراهيم، وبأنه الرسول المرسل من الله إلى العرب. وقد بدأ الإسلام مكياً وجذاباً أمام المكيون الذين كانوا ما يزالون في عداء معه حتى ذلك الوقت.

وقد كانت مساعي الرسول محمد(ص) في تثبيت مواقعه في المدينة، هي من أجل الاستعداد والتحضير للصراع الحاسم مع مكة، لذلك شملت إجراءاته إلى جانب النضال ضد المعارضة في المدينة، بذل المساعي في تمتين المواقع السياسية والاقتصادية للمهاجرين. ففي عام 623 تزوج من عائشة ابنة رفيقه أبو بكر، ثم زوج ابنته من ابن عمه علي، ثم زوج ابنته رقية لعثمان بن عفان. وكان المهاجرون الذين كانوا قد تركوا كل ما لديهم عندما هاجروا معه عام 622، يعتمدون في معيشتهم على مساعدات الأنصار، لذلك كان من الطبيعي أن يكونوا على رأس المهاجمين لقوافل المكيين التجارية، وكان نظام الجماعة في المدينة ينص: " لا يجوز لأحد أن يذهب إلى ميدان المعركة بدون موافقة الرسول " (w71). وكانت هذه الغزوات قبل الإسلام ظاهرة اعتيادية مألوفة ولكن الرسول رفعها إلى مرتبة الحرب المقدسة (الجهاد)ضد الوثنيين في

سبيل الله. ومنح القرآن أولوية الحق للمهاجرين في افتتاح القتال " أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز" 40/39 الحج).

كانت الغزوة الأولى التي قادها حمزة عم النبي (آذار / نيسان 623) بسيطة في غنائمها، إذ أخافتهم المعارضة في المدينة، فهجموا بأعداد كبيرة وكذلك شارك البدو من أطراف المدينة الذين هجموا من أجل الحصول على الغنائم. وفي عام 624 تصاعدت حملات المسلمين في مهاجمة القوافل التجارية، وقامت قوة إسلامية بمهاجمة قافلة مكية قادمة من اليمن بالقرب من " نخلة " بين مكة والطائف. وقد قتل أحد المكيين في هذه الغزوة، وقد حدث ذلك في الشهر المقدس مما اعتبر في ذلك الوقت عملاً كبيراً سبب الاضطراب في المدينة نفسها. وهي فرصة تصيدتها المعارضة واستغلتها في الدعاية ضد المسلمين. وكان الرسول محمد(ص) يستنبط في العديد من الفعاليات السياسية، التوجيه فيها من القرآن " يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل. 217 - البقرة).

وبعد ذلك بوقت قصير، تسلم المسلمون نبأ عن قافلة ثرية للمكيين وتعود للتاجر المكي الثري أبي سفيان من قبيلة أمية قادمة من سوريا إلى مكة. وشعر المكيون بتهديد قافلتهم فأرسلوا قوات بقيادة أبي جهل لمساعدتهم، واستطاعت القافلة أن تتجنب المسلمين ووصلت سالمة إلى مكة. ولكن المقاتلين المكيين الذين أدوا واجبهم أرادوا أن يستغلوا المناسبة ليأخذوا بثأر (نخلة)، والتقى الطرفان في منطقة تدعى (بدر) إلى الجنوب الغربي من المدينة يقودهم أبو جهل العدو الغاضب للرسول محمد (ص) ومنظم المقاطعة ضده وضد بني هاشم في عام 616. وبنتيجة المعركة، هرب المكيون تاركين قتلاهم وأسراهم خلفهم، ووزعت الغنائم حسب القاعدة التي كان الرسول (ص) قد وضع أسسها: " واعلموا إنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذوي القربى اليتامى والمساكين وابن السبيل" 41 - الأنفال).

كانت معركة بدر مهمة في نتائجها للجانبين، إذ مثل نصر المسلمين في بدر ضربة ذات تأثير على تجارة المكيين، كما أن الكثير من القبائل البدوية بين المدينة ومكة، دخلت الإسلام المنتصر. وبسبب ذلك أيضاً تنامى الشعور بعدم الأمان بالنسبة للمكيين فيما يخص أهم مقومات حياتهم، ألا وهي التجارة مع سوريا، وأيضاً في السياسة الداخلية.

كما كانت هزيمة بدر مثقلة بالنتائج والآثار، آلت السيطرة بعد وفاة أبي جهل، لأبي سفيان بالسيطرة على السياسة المكية. فقد أدرك هذا التاجر بوضوح أكبر، السلطة والأهمية المتزايدة للرسول والصواب والحكمة والموضوعية في السعي نحو المركزية لا سيما للفئات المكية العليا. وفي هذا الصدد بذل المساعي والجهود ، حيث يتسيد الشعور المعادي للإسلام بتخفيف عدائهم في الأوساط المتنفذة في المدينة وفي اتخاذ مواقف واقعية حيال الرسول محمد(ص). وفي هذا الصدد كانت وفاة أبي لهب عاملاً مؤثراً لهذه المساعي.

أما بالنسبة للمسلمين، فقد كان النصر في بدر من شأنه أن يزيد من التأييد لهم في المدينة ضد المعارضة، فقد منحهم التأييد الإلهي صفة العدالة في نضالهم " فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً إن الله سميع عليم" 17- الأنفال).

وجهت الضربة الأولى ضد المعارضة اليهود من قبيلة قينقاع. وكانت للرسول (ص)حساباته الدقيقة والصحيحة، بأن القبائل اليهودية متحالفة مع مكة " إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون فإما تثقفهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون وأما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين" 58/55 الأنفال).

وفي نيسان /624 اتخذ الرسول (ص) من الحادثة مناسبة لتعطيل الدور الاقتصادي والسياسي لقينقاع. وبعد أسبوعين من الحصار، توجب على اليهود الذين أخل العهود معهم المعارض عبد الله بن أُبي، أن يرضخوا لشروط المسلمين، بترك سلاحهم وورشهم والانسحاب إلى سوريا. وفي غضون ذلك كانت تجري في مكة الاستعدادات بقيادة أبي سفيان لحملة انتقامية ضد المدينة. وكان الأمر يبدو أكثر من ضرورة بسبب الوجود المتنامي للمسلمين في الشمال حيث أرغموا المكيون، إرسال قوافلهم إلى سوريا والتجارة المكية هي القاعدة الاقتصادية للفئات العليا المهددة بالاختناق. وأدرك الرسول (ص) أن القليل من الفعاليات العسكرية هي أرجح من الحصار الاقتصادي، ومن هنا فقد ضاعف من الجهود في الأعوام اللاحقة من أجل ربط البدو في غرب شبه الجزيرة بالمسلمين، وبذلك دفع مكة إلى العزلة.

وقد أظهرت هذه الخطة التعبوية(التكتيكية) في مطلع عام 695 النجاح عندما ظهر المكيون بجيشهم أمام المدينة ومعهم قبيلة بدوية صغيرة تابعة للمكيين. وبأمر من أبي سفيان اتخذ المكيون المواقع السوقية(الاستراتيجية) المناسبة على تلال في شمال المدينة. ووضعت خطة خالد بن الوليد التعبوية (الذي أصبح لاحقاً أحد أبطال المعارك الإسلامية)، المسلمين في وضع حرج. إذ أصيب الرسول(ص) بجرح، وانتاب الضعف المسلمين ووضعتهم في موقف حرج، وكذلك بسبب خيانة قوات المعارض أبن أُبي. وقد قتل الكثير من المسلمين في هذه المعركة، ولكن المكيين لم يحرزوا نصراً حاسماً وانسحبوا عائدين.

وبرغم الهزيمة العسكرية، التي عبر عنها الرسول(ص) بأنها عقاب رباني بسبب عدم الطاعة التي أبداها بعض المسلمين في القتال (147/146 آل عمران)، تصاعدت المعارضة الداخلية في المدينة في أعقاب المعركة، لذلك فقد ركز الرسول (ص) جهوده على تحقيق الاستقرار في المدينة من خلال طرد قبائل بني النظير اليهودية الثرية، وكان زعيم هذه القبيلة قد أجرى قبل حدوث معركة أحد، الاتصالات مع المكيين وتآمر معهم ضد المسلمين، فاغتنم الرسول هذه المناسبة وعرض في آب ـ أغسطس/625 إنذاراً نهائياً إلى القبيلة بمغادرة المدينة وقد رفض بنو النظير ذلك فحوصروا، ثم رضخوا للأمر واتجهت القبيلة صوب واحة خيبر للاستيطان فيها. وتقاسم المسلمون أملاكهم من بساتين نخيل التي صارت من حصة المهاجرين التي بموجبها استقلوا اقتصاديا عن الأنصار، وكذلك نمت الملكيات الخاصة في الأمة، وكانت حملات الحروب والقتال التي أفضت إلى الموت، وإلى خسائر في الرجال، قد دعت الرسول (ص) أن يقوم في الفترة بين آب ـ أغسطس/625، ونيسان ـ أبريل/626، بنشر قواعد ودستور العائلة وحقوق الإرث (13/2 النساء)و لاعتبارات مصلحة وسلامة الدولة أيضاً. وفي هذا الوقت أيضاً تم منع تناول الخمور(90/ المائدة).

وكانت هذه الإجراءات والفعاليات كفيلة بأن تغري الكثير من القبائل بالتدفق نحو الإسلام وأيضاً أملاً في الحصول على الغنائم. فتسببوا بخلق مشكلة جديدة للجماعة الإسلامية في سحبهم للكثير من التقاليد البدوية إلى داخل الجماعة الإسلامية. وفي آب/ 626 قاد الرسول (ص) حملة في واحة دومة الجندل، حوالي 650 كم شمال المدينة، من أجل مهاجمة تجمع للقبائل من المؤيدين للمكيين. وكان الرسول (ص) قد عرف حتى هذا التاريخ، أن تعميق التوتر والغنائم الكثيرة

وحملات الغنائم الساخنة إلى خارج شبه الجزيرة العربية يمكن أن تكون لها نتائج إيجابية واستخدامها في الطريق الصحيح هو لمصلحة الأمة وقوتها.

وفي هذه الأثناء، كان المكيون قد نجحوا مرة أخرى وبمساعدة قبائل بدوية من غربي شبه الجزيرة العربية في تكوين جيش قوي، وفي نهاية آذار/627 ظهروا أمام المدينة. وبنصيحة من رجل فارسي، تمكن المسلمون من صد الهجوم، بفضل حفر خندق في الأماكن الخطرة، مما أصاب أعدائهم المكيين باليأس، وهو ما أمكن المسلمين من الصمود بهذه الخطة التعبوية الغير مسبوقة. كما أدى الانضباط الذي أبداه المسلمون بالإضافة إلى قلة الطعام لدى المكيون إلى نصر المسلمين. وقد ظهرت عبقرية الرسول(ص) الدبلوماسية التي استطاع من خلالها الاتصال بالقبائل للوقوف إلى جانبه، وحسم القتال لمصلحة المسلمين، وكانت هذه هي المحاولة الأخيرة للأرستقراطية المكية التي حاولت فيها إبادة المسلمين وباءت بالفشل.

وتحرك الرسول (ص) بدون إبطاء من أجل استغلال هذه النصر الهام من أجل تقوية وتثبيت نهائي لوضعه السياسي داخل المدينة، وتلقت القبيلة اليهودية الأخيرة الباقية في المدينة(بني قريظة) إشارة من يهود خيبر تطلب منهم فتح جبهة ثانية ضد المسلمين في المدينة خلال معركة الخندق. ونطق زعيم قبيلة أوس بقرار الحكم الذي كان الرسول(ص) قد وضعه كحاكم، والحكم ينص: يقتل كافة رجال بني قريظة، والنساء والأطفال سيكونون عبيداً ويوزعون على سائر المسلمين. وبعد ذلك بقليل تم القضاء على معارضة أبن أُبي وكان السبب المعلن لذلك هو سلطته المتنفذة في المدينة حتى ذلك الوقت.

وكانت الهزيمة أمام المدينة قد أوضحت للقسم الأعظم من أرستقراطية مكة، بأن اتفاقا سلمياً مع المسلمين فقط بوسعه الحفاظ على ثروتهم وسلطتهم، وإذا لم يعقد مثل هذا الاتفاق، فسوف يتم تحطيم احتكار مكة لتجارة القوافل إلى سوريا. بل أن المسلمين سوف يملؤون هذا الفراغ بأنفسهم. وهكذا فقد أرسل الرسول محمد(ص)القافلة التجارية الإسلامية الأولى إلى سورية بقيادة زيد بن حارثة، وبعد شهر أعقبها بأخرى إلى دومة الجندل، وهكذا فقد حدث انشقاق في التجارة الأرستقراطية المكية. وقد ابتدأ الجناح المعتدل والذي كان يسعى للاتفاق مع الرسول(ص) من خلال التكتيكات الذكية للتاجر الثري أبي سفيان زعيم بني أمية، فيما تزعم معسكر دعاة الحرب الذين يقودهم المكي عكرمة المخزومي، وهو أبن أبي جهل، وصفوان بن أمية.

أطّلع الرسول على هذه التطورات، وبدأ يستثمرها لمصلحته، فأرسل في آذار/628 العديد من أتباعه المسلمين إلى مكة لأداء العمرة " لقد صدق الله ورسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين، محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً" 27/ الفتح).

ولم يكن الرسول محمد(ص) مستعداً بعد لمفاوضات دينية فحسب، بل وفي تظاهرة سياسية، أراد بها استثمار للانشقاق في الفئات العليا المكية، وأن يكسب المعتدلين منهم على الأقل، وها هو يعرض أمامهم التعاليم الدينية الإسلامية في الشخصية العربية المكية. والهجوم الأول لم يقع، فالرسول كان يعتصم بضبط النفس، وهنا ظن المكيون بأن للرسول(ص) نوايا حربية فأرسلوا فرساناً لمقابلته، فانسحب المسلمون إلى الحديبية شمال مكة ودخلوا مع المكيين في المفاوضات. ونتيجة المفاوضات هذه التي كان يقود الجانب الإسلامي فيها عثمان بن عفان الذي ينتمي إلى قبيلة بني أمية، ومثّل المكيين سهيل بن عمرو وعقدت اتفاقية صلح الحديبية والتي بموجبها اتفق الطرفان على أن يحج المسلمون للمرة الأولى عام 629، وكانت النقاط الأخرى تتضمن تحديد

العداء بين كلا الجانبين لمدة عشرة سنوات، كما تضمنت قبول الخيارات الحرة لكل القبائل والأفراد في انتمائهم لحزب محمد(ص) أو لحزب المكيين.

مثّل الاتفاق نصراً عظيماً للمسلمين، وكان على المكيين الإقرار بالقدرات التفاوضية للمسلمين اللذين طالما سخروا منهم وطاردوهم، كما أعطت الانطباع بأن الصراع السياسي كان في مستوياته العليا ضمن الأرستقراطية المكية. ولكن كان هناك بين المسلمين من هو ضد الاتفاقية لأنهم كانوا يخشون من أن يؤدي وقف القتال(الهدنة) إلى الأضرار بمصالحهم في حملات الغنائم. وقد خاض المسلمون الحرب بعدها ضد خيبر في أيار/628 وضد يهود بني النظير الذين كانوا حلفاء للمكيين في عداء الرسول والإسلام والذين لم يتوقفوا عن تحريض القبائل البدوية ضد الإسلام. وكان هذا السبب الرئيسي لغزو هذه الواحة الثرية، ثم توزيع أراضيها لاحقاً على المسلمين المشاركين في المعركة واستغلالها. ثم سمح لليهود بزراعة الأرض ولكن المالك المسلم كان يستولي على نصف الإنتاج، كما كانت هناك جباية للضرائب، وقد أدى ذلك إلى نهوض ملكيات فردية للأرض في الإسلام(إقطاع)، وإن حادثة خيبر وغيرها من المستوطنات اليهودية كانت تعني نهاية النفوذ السياسي لليهود في شبه الجزيرة العربية، أما بالنسبة للمسلمين فقد كانت تعني استخدام القوة المسلحة بصرف النظر عن صلاحيتها السياسية.

في آذار / 629 توجه الرسول (ص) نحو مكة كما نصت على ذلك اتفاقية الحديبية من أجل أداء العمرة. وهنا استغل المناسبة للاتصال بالمكيين، وبالدرجة الأولى مع أبناء قبيلته ومع زعمائهم بعد وفاة أبي لهب. وكان عمه العباس قد استلم زعامة القبيلة وهكذا استطاع أن يلاحظ بنفسه التحول التدريجي في الآراء التي كانت تدور لمصلحته داخل الفئات المكية العليا، ومن ثم في انضمام اثنين من مشاهير مكة إليه وهما : خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص من قبيلة أمية اللذين أصبحا من مشاهير القادة العسكريين المسلمين في ميادين القتال.

ولم يمض وقت طويل حتى أقام خالد بن الوليد البرهان على قدراته في أيلول/ 629 عندما كان الجيش بقيادة زيد بن حارثة في حملة دومة الجندل على حدود البيزنطيين، بالقرب من مؤتة، حيث شهد الجيش الإسلامي الهزيمة على يد جيش متفوق في القوة، واستشهد زيد بن حارثة، ولم ينقذ بقايا الجيش الإسلامي سوى خالد بن الوليد الذي خف إلى ميدان المعركة للمساعدة.

وبعد ذلك توقفت الحملات نحو الشمال، وفي تشرين الثاني/629، خرق المكيون اتفاقية الحديبية، وكان الرسول(ص) قد أدرك أن توازن القوى في مكة يميل منذ عدة شهور لمصلحة المسلمين، فعاد في الأول من كانون الثاني/630 مع جيش كبير من البدو إلى أطراف مكة، فيما كان أبو سفيان الذي كان صهر الرسول (ص)(والد زوجته)منذ 628، يحاول تجنيب السكان القتال من خلال وساطة رفضها المسلمون.

وهكذا التقت القوات في 11/كانون الثاني/ من أجل دخول مكة، ولم تحصل إلا مقاومة بسيطة من أنصار جماعة الحرب (عكرمة وصفوان)الذين حاولوا عبثاً الوقوف أمام رجال خالد بن الوليد من المسلمين. وبعد أن تم دخول مكة بدون إراقة دماء، أصدر الرسول(ص) عفواً عاماً ولم يستثني منه إلا قلة قليلة، منهم عكرمة. وتحولت الآن المدينة بعد أن تم تحطيم كافة الأصنام في مكة إلى مركز ديني للمسلمين.

واجه المسلمون بعد احتلال مكة وضعاً صعباً، إذ أن كل من قبيلتي هوازن وثقيف كانتا قد اتفقتا على عقد اتحاد بينهما، وها هي القبيلتان تهددان مكة بجيش كبير. وكانت كلتا القبيلتان تأملان بغنائم كثيرة في المدينة المسلمة. وفوق ذلك، كانت ثقيف تهدف لانتزاع استقلال الطائف التي

كانت مكة تسيطر عليها. وبعد قتال متناوب تمكن المسلمون من النصر في حنين في نهاية كانون الثاني على أساس الحفاظ حتى على الرجال الذين كانوا حول صفوان بن أمية، لكن حصارهم لثقيف كان قد فشل.

دخلت قبيلة هوازن الإسلام بعد مفاوضة، والخطوة نفسها جرت في الكثير من الحالات شكلياً، كما فعل ذلك كافة قادة مكة السابقين بعد نتائج معركة حنين، وأعقب ذلك استسلام الكثير من القبائل العربية في شمال شرق ووسط شبه الجزيرة. ولكن الرسول(ص) لم يرغم أحداً على الدخول في الإسلام، بيد أنه طالبهم بدفع الضريبة، وكانت تلك ضرورية، إذ أن الغنائم التي كانوا يحصلون عليها من خلال الحملات، تتناقص كلما تزايد عدد القبائل التي تدخل الإسلام، وتقاتل مع المسلمين.

استأنف الرسول عام 630 الحملات التي كانت قد توقفت، باتجاه الشمال حتى وصل إلى تبوك مع تحاشي الصدام العسكري مع البيزنطيين. وقد اكتفوا بالكثير من المدن التجارية المسيحية واليهودية، التي ألزموها دفع الضريبة السنوية. وبعد العودة من تبوك تمكنوا من احتلال الطائف، كما عقد الاتفاقيات مع العديد من القبائل منها قبيلة تغلب في أسفل نهر الفرات.

وحتى عام 632، كانت جماعة المسلمين تتألف من خليط من اتحادات القبائل التي انضمت إلى الإسلام لأسباب مختلفة، وكانت المدينة ومكة مركزين لتلك القبائل المسلمة. ثم واجه الرسول(ص) المقاومة في وسط شبه الجزيرة، وبدأت المعارضة المعادية للإسلام بقيادة الأسود العنسي، فوجه الرسول(ص) ضربة نهائية لها، وجدت إسنادها النظري في الآية:" فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم " 5/ التوبة).
وفي آذار /632 وضع نظاماً للحج والعمرة وفيها تم تحديد المراسيم الجوهرية التي ما زالت متبعة حتى اليوم 97/95/4/2 المائدة) وبذلك فإن الأسس هي: الشهادة، الصلاة، الصوم، الصلاة، الزكاة، الحج، وهي الأعمدة الخمسة للإسلام والالتزامات المقدسة للمسلمين. وبعد ذلك بوقت قصير جهز الرسول(ص) جيشاً بقيادة أسامة، وهو ابن الشهيد زيد بن حارثة الذي سقط في معركة مؤته ضد البيزنطيين، ولكن وفاته أحبطت هذه الحملة، إذ توفي الرسول (ص) في 8/ حزيران/ 632.

إن الأهمية الكبيرة لأعمال الرسول محمد(ص) تبرر الإسهاب النسبي في عرضنا حياته. و التطور التاريخي ومع توفر المستلزمات الموضوعية، فقد تمكن الرسول محمد(ص) وباستخدامه لقدراته الشخصية أن يؤثر على نطاق واسع على أكثر المراحل حساسية من تاريخ شعبه " إن شخصية الإرادة هي عامل في التطور الاجتماعي عندما، وحيثما، وبأي مدى لما تتاح له العلاقات الاجتماعية أن يكون" (1) فتعاليمه التي وفرت الأساس الأيديولوجي للأوضاع العرب والمسلمين اللاحقة، ومن خلالها أيضاً تسارعت عملية تهاوي على طريق تحقيق تطور اجتماعي جديد وأن محمداً (ص) استطاع بشخصيته المهمة أن يكون مهماً لتاريخ شعبه اللاحق حيث تمكن خلفاؤه من بناء دولة كبيرة كان هو من وضع حجر الأساس لها.

هوامش

(*)يعتمد مؤلفوا الكتاب على ترجمة (معاني) القرآن إلى اللغة الألمانية لماكس هينك، فيما اعتمدنا نحن على نصوص القرآن باللغة العربية. المترجم

(**) هذه الوثيقة النادرة التي يشير إليها المؤلفون، هي مترجمة من قبل : J, Wellhausen Skizzen und Vorarbeiten المجلد رقم IV/ 4 عام 1889 في برلين بألمانيا ضمن كتاب عنوانه وسوف نشير إلى هذا المصدر كلما ورد بالحرف الأول W مع رقم الصفحة، دون الحاجة إلى كتابتها كل مرة. المترجم

(1)Plechanow, G.W : über die Rolle der Personlichkeit in der Geschechte, Berlin 1945 , S.28

ثالثاً : الفتوحات الأولى

أدت وفاة الرسول(ص) إلى تهديد الجماعة الإسلامية الفتية بأزمة، إذ كانت القبائل البدوية التي تشعر بأنها ملتزمة فقط بشخص الرسول النبي، بدأت بعد وفاته بالارتداد وبأعداد كبيرة عن الإسلام.

وفي المدينة، ابتدأ التفريق بين المكيين والمدينيين(المهاجرين والأنصار) وبدأت كل الأطراف تحاول أن تضع لمساتها في عملية اختيار من سيخلف الرسول من بين صفوفه، إذ أن الرسول نفسه لم يكن قد اختار أحداً لخلافته قبل موته. والمجادلات والمداولات دارت بدبلوماسية وبمناورات باردة بين أقرب المقربين للرسول من رفاقه: أبو بكر، عمر، أبو عبيدة. وألقى أبو بكر خطبة أكد فيها استمرار الولاء للرسول وهو من أكثر المقربين للرسول(ص) وإخلاصا له، ووالد زوجته، لذلك فقد انتخب وبويع كخليفة لرسول الله، ونهض بالجماعة الإسلامية كقائد ديني أعلى (إمام) وكقائد سياسي، ولكنه لم يحتل منصب السلطة على الفور، كما لم يوصف كخليفة إلا فيما بعد، وعمل خلال خلافته التي استمرت سنتين (634/632) وفقاً للقواعد التي وضعها الرسول(ص)، في حين كرس كل جهوده لتثبيت سلطة المسلمين وتوسيع نفوذ وسيادة المدينة من خلال البدء بالحملات العربية ـ الإسلامية.

وقد شخص المؤرخون هذه المرحلة التي تحققت فيها السيطرة على كامل شبه الجزيرة العربية خلال سنتين، بمرحلة حروب الردة. ووفق تقديراتهم، أن شبه الجزيرة كانت عند وفاة الرسول(ص) تحت سيطرة المسلمين. ولكنها بعد وفاة الرسول محمد(ص) ارتدت قبائل بدوية إلى الوثنية. ولكن القبائل في البوادي المحيطة بالمدينة وجدت أن مصيرها ومستقبلها سيبقى مرتبطاً بالمدينة، أما في المناطق البعيدة في غرب شبه الجزيرة ووسطها، تناقضت فيها إرادة أرستقراطية القبائل مع المدينة التي تريد متابعة نظام الجماعة الإسلامية، وتلك القوى كانت تريد استعادة سلطاتها التي فقدتها.

وعلى رأس تلك القوى المحلية، كان هناك "النبي الكذاب" الذي يحاول أن يطرح ذات الشعارات التي كان الرسول(ص) قد طرحها، و جرت في اليمن محاولة يعود أصلها إلى عهد الرسول وقد ضربت في وقتها. كما كان هناك تحرك للقبائل في وسط شبه الجزيرة ضد المدينة، ولكن الجيوش الإسلامية تمكنت من سحقها. وكانت منطقة اليمامة من المناطق قد شهدت صراعاً مريراً، وهي منطقة خصبة تمر فيها القبائل المتجهة من اليمن إلى العراق الذي كانت تحت الاحتلال الساساني، كما كان هناك أيضاً مسيلمة الذي سمي من قبل المسلمين " بمسيلمة " تصغيراً واحتقارا لشأنه ثم لقب "بالكذاب" والذي كان ما يزال تحت تأثيرات مذهب تعدد الآلهة(الوثنية)، وقد أعلن مسيلمة في الحجاز عن تمرده، وكان يهدف إلى إقامة سلطته والاستقلال عن النظام الإسلامي.

وقد نجح أتباع مسيلمة في البداية من رد القوات الإسلامية على أعقابها وهزيمتها، إلى أن جاء القائد العبقري خالد بن الوليد" سيف الله " الذي ينتمي إلى قبيلة مخزوم مع بضعة الآف من المسلمين إلى القبائل المتمردة طي وأسد وغطفان وألحق الهزيمة بهم. ففي معركة " حديقة الموت " بالقرب من "عقربة" حيث دارت معركة دموية عام 633 بين المسلمين والمرتدين قاتل فيها المسلمون قتال الأبطال واستشهد فيها الكثير من قادتهم، بنتيجة هذه المعركة، أصبح

الطريق مفتوحاً لانتصارات أخرى وفيها أثبتت قيادة المدينة قدراتها السياسية ضد القبائل المرتدة. وكان النضال من أجل توحيد العرب.

ومن الآثار القريبة لإخماد الردة، تمسكت القبائل البدوية بالإسلام من جديد، وفي عام 634، كانت قد أنجزت السيطرة على المناطق في محيط وشرق وجنوب شبه الجزيرة أيضا. وكان المقاتلون المسلمون الأشداء قد اندفعوا من البوادي بقيادة القائد الموهوب خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وبقيادة زعماء القبائل البكرية مثل المثنى بن الحارثة كالتيار إلى خارج شبه الجزيرة.

وفي الهلال الخصيب، شمال شبه الجزيرة العربية، اصطدم العرب بعائق صعب تمثل بالقوتين العظمتين: الفرس والبيزنطيين. وقد كانت بلاد الرافدين تمثل الحدود الغربية للملكة الساسانية التي كانت متوغلة بعيداً في أواسط آسيا، وكانت شعوب كثيرة تحت سيادتهم. أما سوريا التي كانت تعود إلى المناطق الشرقية للإمبراطورية البيزنطية: مصر، شمال إفريقيا، وجزر شرقي البحر المتوسط، بما في ذلك صقلية. كانت جميعها تقع آنذاك تحت سيادة القيصر البيزنطي. وكانت عمليات النظام الإقطاعي تدور في كلتا الإمبراطوريتين أما على الصعيد السياسي فقد كان تطور هذه العمليات تجد ترجمتها في صراع دائم بين الطبقات المسيطرة في مصر وسوريا وفلسطين. وكانت الحروب الدائمة تمثل الصمام للعمليات الدائرة ضمن مجتمعات هذه البلدان.

وكان الفرس قد استغلوا عام 610/609، ضعف الإمبراطورية البيزنطية فهاجمت قواتهم بنجاح سورية وفلسطين حتى وصلت مصر، بل أن القوات الفارسية وصلت حتى البوسفور. ولكن زحف البدو الأتراك والكازاخيون وبدعم من القوقازيون، تمكنوا من ضرب البيزنطيين والفرس وتوصلوا عام 628 إلى عقد اتفاقية سلام في التخلي عن المناطق المحتلة. وقد أدى اندلاع سياسة التوسع الفارسية إلى أزمة قوية في بلاد فارس حيث تناوب على العرش بين عام 628/ 632 ثمانية حكام. كما أدت الحروب الطويلة إلى رفع مستوى الضرائب بصورة محسوسة مما أدى إلى استياء الفلاحين وسكان المدن، هذا بالإضافة إلى مساعي بلاد الرافدين وشمال إفريقيا في التحرر من القوى الأجنبية، وقد تجلى ذلك بصفة خاصة أيديولوجياً في ذيوع البدع المسيحية، والانحراف عن العقيدة الأرثوذوكسية وذلك من أجل تثبيت أوصال الإمبراطورية ولكن ذلك كان عبثاً غير مجدي.

في نفس الوقت كانت أقطار الشرق الأوسط منذ مئات السنين تتداخل دائماً باطراد مع العناصر العربية التي كانت تؤدي في سوريا وبلاد الرافدين واجب (بلدان حماية الحدود)، هذه المحطات الدفاعية التي كانت تتحمل دائماً مخاطر البدو القادمين في شبه الجزيرة العربية، وكانت قد تجزأت قبل التوسع العربي بعشرات السنين: اللخمية وعاصمتها الحيرة 601، المملكة الغسانية في سوريا بعد عام 581، ليس فقط من بوادي شبه الجزيرة والقادمين منها، بل أعراب وبدو المناطق الأخرى. وكانت كل من القوتين العظمتين(الفرس والبيزنطيين) مهددة من قبل شعوب أخرى وهناك كما في حالة العرب في التأمين بواسطة التجزئة إلى مجتمعات جنتيلية. وفي شبه جزيرة البلقان، وقد هاجم العبيد في شبه جزيرة البلقان بنجاح في القرن السابع ميلادي، كشعب بسيط يريد التحرر من الضرائب العالية والقمع والاضطهاد. كما كانت الشعوب التركية في الشرق (أواسط آسيا) تهدد أوضاع الساسانيين.

وقد مر علينا انغماس البدو في عملية التحضر والتمدن، فقد لعبوا في الفتوحات الأولى دوراً أساسيا، وكذلك في الوضع الاقتصادي في شبه الجزيرة العربية، فالظروف المعيشية الفقيرة يمكن أن تؤدي مع الكوارث الطبيعية إلى المزيد من سوء الأحوال. فالبدو يمارسون منذ سنوات

عملية التحول للزراعة على حافات شبه الجزيرة، ثم أضافوا إليها الآن أرضاً جديدة. وتأثراً بالعمليات الدائرة في الشمال والتي جاءت بفعل انهيار النظام الجنتيلي والتي أدت إلى تصادمات مستمرة بين القبائل بسبب الأرض والماء. وكان يمكن لهذه النزاعات أن تجلب المخاطر لنظام الجماعة الإسلامية ما لم يدرك قادتهم بأن يضعوا جميع القبائل على طريق مشترك وهو فتح البلدان المجاورة والغنائم الوفيرة التي تضمها، وهذه التوجهات التي أقرتها الأرستقراطية الإسلامية والتي تنال هي حصة الأسد فيها. وأيضاً تأجيل التناقضات من خلال الانشغال بالفتوحات. ولوقت طويل، كان المؤرخون ينظرون إلى الفتوحات الإسلامية من زاوية دينية فقط، وإلى المسلم شاهراً سيفه من أجل نشر الإسلام، إلا أن ومنذ نهاية القرن التاسع عشر بدأ الاعتماد على المراجع القديمة وبالمزيد من التحليل يتوصل المرء إلى الأسباب المادية.

وقد تمكن الدين الجديد في غضون بضع سنوات أن يشمل شبه الجزيرة بوجوده وأن يعزز بالرباط الأيديولوجي الذي منح الحملات الحربية السبب المثالي لها، فالمسلمون كانوا يعدون التوسع العسكري (جهاداً) و(حرباً مقدسة) ينبغي أن تقوم بوجه الكفار (غير المؤمنين) من أجل دعوتهم إلى الإسلام. وكان هذا أيضاً من أهداف الحملات، أن يشهر المنتمون إلى الأديان الأخرى الإسلام، أو أن يدفعوا الجزية، فالجهاد كان مبرر الأرستقراطية الحاكمة والتي بمساعدة جيوش البدو تمكنوا من توسيع نفوذهم وحكمهم.

وقد كتب المؤرخ اللامع البلاذري (المتوفي عام 892) حول الفتوحات العربية، عندما نادى الخليفة أبو بكر إلى الحملة على سورية، كتب إلى سكان مكة والطائف واليمن وكل العرب في نجد والحجاز، ناداهم فيها إلى الجهاد، وبالإضافة لذلك إلى الغنائم من الروم.

وكانت القوات العربية تمتلك خبرة مهمة حيال جيوش القوى العظمى، فهي لم تكن مؤلفة من المرتزقة كما كان الحال مع الأرمن أو السوريون(الروم) الذين جُندوا للدفاع ضد المسلمين الزاحفين. إذ يتعود البدو منذ طفولتهم على الخروج بسلاحهم، كما أن روابطهم الجنتيلية بطبيعتها تشدد من التضامن بين المحاربين والمقاتلين، مع إمكانية التنافس فيما بينهم كقبائل، وأن يغزو بعضهم بعضاً. ولذلك كان من السهل أن يعبّئوا قواهم على ظهور الجمال في شبه الجزيرة العربية حتى عبر المسافات النائية، مقابل المقاتلين في الجيوش الفارسية والبيزنطية المسلحة تسليحاً ثقيلاً، وكان تسليحهم الخفيف برماحهم وأقواسهم وسيوفهم، تمنحهم قدرة عالية على المناورة العالية، وكان القسم الأكبر من القوات يستخدم الجمال، ولكنهم كانوا يترجلون عنها في القتال، إذ يصعب السيطرة على الجمال خلال ضجيج القتال.

وقد برزت لاحقاً قوات الفرسان القوية على ظهور الخيول، وكان المقاتلون العرب يستخدمون أسلوب المباغتة، فهم يهاجمون فجأة، كما أنهم لم يكونوا يبحثون عن المعارك الكبيرة، بل في معارك يتقابل فيها جيشان ويدور قتال فردي لفترة طويلة واشتباك بسيط. وفي المراحل الأولى لم يكن العرب يمتلكون تكتيكات الحصار التي كانت متطورة عند الفرس والبيزنطيين، ولكن القوة الحربية عند العرب كانت تكمن في شجاعتهم، وكانوا في حالة النصر ينالون غنائم كبيرة نسبياً.

وقد تركزت خطط الاندفاع الأول الرئيسي للفتوحات العربية بعد عملية التوحيد العربية (حروب الردة)التي تمت بالعنف، باتجاه الولاية البيزنطية: سوريا وفلسطين التي كانت مناطقها الحدودية قد تم استطلاعها سراً، وكان القيصر هيراكليس (هرقل في المصادر العربية ـ المترجم) قد اتخذ الإجراءات لمنع اندفاع العرب، ولكنه وبسبب أهوال الحرب فقد اضطر بأن يأتي بأعداد مضاعفة من المسيحيين العرب وأن يضعهم على حدود فلسطين، وقد اعتقد بذلك أن هذا

الإجراء قد يبعد من خطر هجمات العرب البدو. وفي نفس العام أرسل أبو بكر عدداً كبيراً من متطوعي الجيش في ثلاث قوات إلى الشمال. وفي عام 634 كانت قوات بيزنطية صغيرة قد تعرضت للضرب في فلسطين، وبدأت هذه الولاية بدفع الضريبة للمسلمين، وكان جيشاً بيزنطياً قوياً قد زحف من سورية لصد أعمال السلب والنهب العربية.
وهنا ظهر فجأة خالد بن الوليد مع قوات من الفرسان كان قد جاء بهم من العراق في مسيرة رهيبة عبر الصحراء الخالية من المياه، إذ كانت أوضاع المسلمين في خطر. وبسرعة اتحد خالد بن الوليد بقواته مع الجيش العربي الذي كان هناك، ثم أن هذا الجيش الإسلامي ألحق في صيف عام 634 وبقيادة خالد بن الوليد بالبيزنطيين هزيمة منكرة بالقرب من أجنادين، وبعد هذه المعركة بدأ العرب بالتحول إلى قيادة الحرب باستخدام المنطق والمثابرة، وأدركوا مواطن القوة في أنفسهم كما تعرفوا على الضعف العسكري للمناطق التي احتلوها.

بعد نجاحات أخرى ضد القوات البيزنطية، زحف المسلمون باتجاه دمشق، واستسلمت المدينة بعد عدة أشهر من الحصار أخيراً في أيلول / 635 نتيجة لتحركات في داخل المدينة. و راحت القوات والمفارز العسكرية العربية تتغلغل في كامل سوريا، إلى أن تمكن القيصر هيركليس عام 636 من تشكيل جيش جديد مؤلف بالدرجة الأولى من الأرمن والعرب. وكان الجيش العربي قد تمركز في منطقة اليرموك(شمال سوريا) وقد تجددت قواه واستعد لملاقاة العدو. وطال وقوفهما متقابلين. لكن البيزنطيين كانوا يعانون من الضعف بسبب عدم الاتفاق في صفوفهم وكذلك بسبب حلفائهم العرب الذين فروا من الخدمة من صفوف الجيش البيزنطي. وفي 20/ آب/ 636 وقعت المعركة الحاسمة وبنتيجتها انتهت سوريا كولاية بيزنطية. ولم تصمد سوى المدن المحصنة القوية فقط ولبعض الوقت مثل: القدس وقيسارية وأنطاكية. وفي عام 638 سقطت القدس، وهنا أيضاً، على مسرح العمليات السورية/ الفلسطينية، أظهر القائد خالد بن الوليد ألمعية في زج كافة القوى الإسلامية في المعارك، ومن خلال نجاحات الجيش الذي طرح احتمالا في استقلالية قادة الجيوش، لذلك فقد تم استبدالهم بأحد رفاق الرسول محمد(ص) القدماء: أبو عبيدة، وتعيّنه كحاكم هناك، فبدأ بتنظيم الولاية مع استعانة ضرورية بالقوى والعناصر المحلية.

وبنفس الوقت، ومع فتح فلسطين وسوريا، بدأت العمليات العسكرية في بلاد الرافدين ضد الساسانيين، وهنا أخذت القبائل المبادرة لأنهم وجدوا أنفسهم قد أصبحوا بين الفرس والمسلمين، فسرعان ما تحالفوا مع المسلمين وكان ذلك تصرفاً ذكياً. وبعد أن استسلمت شرقي شبه الجزيرة العربية، زحف خالد بن الوليد إلى جنوب العراق. وفي عام 633 استسلمت الحيرة(العاصمة اللخمية القديمة) مقابل ستون ألف درهم، وكان سكان المدينة يخشون على مدينتهم من النهب. ولكن سرعان ما استدعي خالد بن الوليد إلى الجبهة السورية(وقد مر ذكر ذلك قبل قليل - المترجم) فكانت عملية التقدم عبر الصحراء, فاستلم بدلاً عنه القائد المثنى بن حارثة وكان الفرس قد جمعوا القوات لمواجهة المسلمين، واستطاعوا فيما أطلق عليها بمعركة الجسر من إلحاق الهزيمة بالعرب وكان الفرس بقيادة ملكهم يزدجر الثالث.

وفي عام 637 صار بمستطاع العرب أن يعوضوا تلك الخسارة وقد جاءت من شبه الجزيرة جيوش جديدة من المتطوعين حيث وقعت معركة القادسية ذات الأيام الثلاثة، حيث تقابل خمسة إلى ستة آلاف من العرب بينهم عرب مسيحيون ووثنيون، وبين الفرس الذين كانوا بقيادة القائد العام لجيوشهم رستم حيث تحطم وتشتت الجيش الفارسي وأصبح الطريق إلى طيسفون المدينة العربية القديمة والتي أصبحت المقر الشتوي للقياصرة الساسانيين، حراً ومفتوحاً، وهرب الملك مع خلصائه وسقطت المدينة بكل غنائمها بيد العرب الذين توجب عليهم القتال مرة أخرى ضد الفرس في العراق حيث تمكنوا من إيقافهم في الأراضي الجبلية التي لم تكن مأهولة، وأبدى

السكان التعاون الإيجابي مع العرب الذين تقدمت جيوشهم واحتلت الموصل ثم واصلوا تقدمهم في الجزيرة(جزيرة بن عمر) حيث تمكنوا من الاتصال مع سوريا.

وكان من الصعب على العرب مواصلة التقدم لفتح المزيد من الأراضي الإيرانية ذات الطبيعة الجبلية، حيث اصطدموا هناك بمقاومة في المدن التي تم احتلالها، ولكن بجهود كبيرة. وكان عدم الاتفاق في وجهات النظر بين الأوساط الإيرانية التي سرعان ما انضم جزء منهم إلى جانب الفاتحين العرب، وعلى الرغم من وجود المقاومة ولكن العرب تمكنوا من إنهائها شيئاً فشيئاً. وفي معركة نهاوند بالقرب من أكباتانا Ekbatana هُزمت الجيوش الفارسية عام 641 هزيمة حاسمة، فيما واصل الملك الفارسي هربه باتجاه الشرق حيث لقي مصرعه اغتيالاً على حدود إمبراطوريته. وما أن حل عام 650/649 حتى كان العرب قد وصلوا إلى بلوجستان جنوباً على الحدود مع الهند، ثم تم احتلال أرمينيا شمالاً وكانت آراء حكامها متفرقة، وقمعوا انتفاضة شعبية. وهكذا في عام 640، كانت العاصمة دفين Dvin قد سقطت وفي عام 642 كانت قد أصبحت في قبضة المسلمين.

ومن فلسطين استطاع المسلمون أن يواصلوا تقدمهم إلى إفريقيا، ففي كانون الأول/639، وصل القائد الموهوب عمرو بن العاص مع وحدة من فرسان اليمن إلى حدود الولاية البيزنطية مصر، التي لا يمكن لمدن الحجاز الاستغناء عنها حيث كانت تمثل لها (صومعة حبوب), وكان عدم توحد الآراء بالإضافة إلى اللامركزية الشديدة في الإدارة قد سهلت من وقوع هذا البلد الثري في جملة الغنائم العربية. وعدا عن ذلك، فإن المصريين استقبلوهم كمحررين من الحكام الغرباء الذين كانوا يفرضون عليهم الضرائب والقمع حتى في دينهم الواحد(كمسيحيين)، لذلك رحب حتى الأقباط بالجيوش الإسلامية، وواصل العرب تقدمهم وانتصاراتهم، حيث تمكنوا عام 640 من ضرب القوات البيزنطية. وفي عام 641 كانت هذه البلاد قد انتقلت إلى أيدي العرب بصفة تامة، ولم تبقى سوى الإسكندرية العظيمة ضمن الممتلكات البيزنطية على الأراضي العربية.

كانت الإسكندرية محصنة جيداً، كما كان لوقوعها على البحر يتيح لها إقامة الصلات الدائمية مع المناطق البيزنطية، ولكن بعد وقوع مصر بأيدي العرب لم يعد للمقاومة فائدة تذكر، وكانوا قد أعفوا من الضرائب، وغادر اليونانيون البلاد سلمياً وبإرادتهم عام 642. وفي عام 645 سقطت المدينة بهجوم بحري وإلى الأبد بأيدي العرب. وباحتلال الإسكندرية تتحدث المعطيات عن إبادة مكتبة الإسكندرية المشهورة من خلال حلفاء المسلمين(المسيحيين الأُقباط) حيث كانت هذه المكتبة تحتوي على المعلومات القديمة التي دمرت، حيث دمرها المسيحيون باعتبارها أثراً وثنياً، ونادراً ما استطاع العرب العثور على بقاياها.

وبعد أن سقطت مصر السفلى في القرن الثالث عشر بيد المسلمين، فقد ظهرت بعض آثار المكتبة من الكتب والأعمال التي نقلها العرب في اتجاهين: الأول نحو مصر العليا حيث كانت قد عقدت اتفاقية مع النوبيين عام 652، وباتجاه سواحل شمال إفريقيا. وفي عام 642- 643 كانت هناك بعثة استكشافية عسكرية ضد بينتابوليس Pentapolis حيث تمكنوا من احتلال برقة دون سفك دماء، وهذه المدينة مثلت قاعدة انطلاق إلى فتوحات أخرى في المناطق البيزنطية في شمال إفريقيا. وفي عام 647 ظهر المسلمون في الولاية البيزنطية Provincia Africa وهنا حلت النهاية بالسيادة البيزنطية.

ولكن العرب لم يواصلوا زحفهم في آسيا الصغرى باتجاه قلب نواة الإمبراطورية البيزنطية، إذ لم يتمكنوا من استخدام تكتيكات الحروب الجبلية. وعدا عن ذلك فإنهم واجهوا مقاومة عنيفة. وقد كان أمراً مدهشاً أن يتمكن العرب من القبائل البدوية بقيادة موهوبين من أرستقراطية مكة

والمدينة أن يستوعبوا هذا التطور في غضون سنوات قليلة وأن يقودوا ويحكموا مناطق شاسعة، فقد ضربوا جيوش كبيرة مسلحة تسليحاً جيداً، وأرغموا مدناً حصينة بدرجة قوية على الاستسلام. وقد أحرزوا هذه الانتصارات العسكرية دون أن تكون لديهم في الغالب خطط عسكرية استراتيجية مسبقة. وقد يكون السبب الأساسي في ذلك هو السعي نحو الغنائم. وكان في بعض الأحيان يبدو مدهشاً حتى للمدن التي استسلمت لهم أن تشاهدهم بأسلحتهم الخفيفة وتجاربهم القليلة في مجال تكنيك حصار المدن، حطموا بها الإمبراطورية الساسانية التي كانت قوة عظمى ودمروها بالكامل، والإمبراطورية البيزنطية التي تحملت بدورها خسائر كبيرة في المناطق.

وقد أدى احتلال هذه المناطق الكبيرة التي تمتد من أواسط آسيا حتى شمال إفريقيا، أدى إلى تبدل في علاقات الملكية لاسيما في الأرض. والملاك السابقين للأراضي الأميرية(أراضي الدولة) الفارسية، أو تلك التي كانت لقيصر روما(بيزنطة) وكذلك ممتلكات الذين قتلوا في المعارك أو الذين فروا من الأعداء، أصبحت الآن ضمن ملكية الدولة الإسلامية، وكذلك أصبحت حالة الأراضي التي لم يكن لها مالكين، أو التي استصلحت من خلال تحسين نظام الري في الأراضي التي فتحت.

وإلى جانب هذه الملكيات الحكومية للأرض، كانت هناك ملكيات خاصة: المالكون الأساسيون الذين قدموا الولاء للمسلمين المنتصرين، كان بإمكانهم الاحتفاظ بأراضيهم وبيعها أو استخلافها(الإرث) وعدا هذه الغنائم التي لا يمكن نقلها(الأموال غير المنقولة) فقد أخذت الجيوش معها قدراً كبيراً من الأموال المنقولة، كما أخذوا معهم عدداً كبيراً من الأسرى كعبيد. وأصبح الحجاز مكاناً تتجمع فيه السلع (من الغنائم والأسلاب) وفائض من الأسرى العبيد. فقد كان معاوية بن سفيان والي سوريا الذي أصبح لاحقاً الخليفة الأموي الأول، يحتفظ بأربعة الآف من العبيد، وقد استخدم هؤلاء ليس فقط في أعمال الزراعة، بل وفي الأعمال اليدوية وفي الكتابة وكمغنيين في القصور وفي المدن التي لما كان العرب قد تعرفوا بعد عليها. وهؤلاء العبيد من الغرباء الذين وقعوا في الأسر بعد القتال، وتوجب عليهم العمل في مختلف الأعمال التي تتطلب أيدي عاملة كثيفة، لدى المسلمين. والمسألة الرئيسية كانت في البدء هي الغنائم. أما العناصر التي كانت تعمل في الدرجات الدنيا والوسطى، فقد تُركت وشأنها.

ولم يكن العرب يتعرضون إلى السكان بحال من الأحوال، بل أن الكثير منهم (السكان) عقدوا معهم اتفاقيات لتسديد ما عليهم من مستحقات للسادة الجدد، وعادوا إلى أعمالهم كما في حياتهم السابقة. وبصفة عامة فإن السكان (من غير المسلمين)في المناطق التي تم فتحها كانوا يصنفون في تلك المرحلة إلى الأديان غير الإسلامية ولا يحسبون ضمن صفوف سادة القوم. وكان العرب يشكلون في مجموعهم كمسلمين مصطلح ديني (مسلم) وعربي عرقياً، شكلاً من طبقة عسكرية، وكل شخص غير مسلم سواء كان ملاكاً أو شحاذاً فإنه يأتي بعد المسلم في المرتبة.

وأدى ترسيخ السيادة العربية مقابل الأعداد الكبيرة من السكان الذين أذعنوا للحكم العربي، أدى بنفس الوقت إلى ما كانت تتمناه الأرستقراطية من نجاح للفتوحات. كما كانت المساواة بين جميع المسلمين كما ترينا هذه الأحداث: يسمح للمؤمنين الآخرين من الأديان الأخرى وهم من أهل الكتاب بأداء ما تتطلبه أديانهم، وذلك يعني أن هناك وحياً منزلاً(الأديان السماوية)، فهم بهذه الحالة من أهل الذمة وهم في حماية المسلمين وينالون حريتهم الدينية مقابل ضريبة(الجزية ـ المترجم). وبذلك حصلت الجماعات الدينية شيئاً من الاستقلال الذاتي في قضايا الحقوق المدنية، كما نمت بذلك مكانة ونفوذ الكهنة ورجال الدين الذين عملوا على توثيق علاقاتهم مع الفاتحين(المسلمين).

وهذا الموقف الذي يتسم بالتسامح والتفهم، وهو ما لم يكن معروفاً أو مألوفاً لمسيحيي سوريا ومصر أو الساسانيين، مما خفف من المعارضة ضد السادة الجدد، وهكذا ظل يهود ومسيحيوا الشرق الأوسط بدون أي محاولة اعتداء عليهم من قبل المسلمين أو الاصطدام بهم، الأمر الذي كان مختلفاً في الدولة الساسانية ذات الديانة الزرادشتية(دين الدولة الرسمي) ففي ظل تلك الدولة الفارسية كان قد اختفي عدد كبير من رجال الدين من القسس.

كانت الدولة التي أسسها الإسلام أداة لكافة المسلمين كطبقة قيادية، ولكنها في الواقع كانت تخدم الأرستقراطية الإسلامية، وفي قمتها الخليفة المنتخب الذي تتمثل في شخصه القيادة العليا للدولة والدين المرتبطان ببعضهما. وتنامت بسرعة سلطة الخليفة. فأبو بكر كان ينادى في البدء باسمه، ثم نودي به كخليفة لرسول الله، والخليفة الثاني عمر 634 - 644 الذي كان من الخلفاء الذين أوصلوا الفتوحات إلى ذروتها، كان يطلق عليه أمير المؤمنين. ومع تنامي سلطة ونفوذ الإسلام، بدأت تدريجياً بيروقراطية إسلامية في التكون، وكان جهاز الإدارة يتألف من الذين أعلنوا خضوعهم للنظام الجديد، حيث بقى الموظفين من الدرجات الوسطى والسفلى قيد العمل ولا سيما هؤلاء الذين اقتضى نظام جباية الضرائب المعقد بقاءهم ولغة الإدارة القديمة. ففي المناطق البيزنطية القديمة ظلت اللغة اليونانية، وفي المناطق الفارسية اللغة البهلوية(اللغة الفارسية الوسطى)، ونظام العملة أخذ النظام المزدوج، حيث بقي الدينار الذهبي في الولايات البيزنطية، وفي المناطق الفارسية الدينار الفضي يحمل في أحد أوجهه صورة الملك وكان نظام التصريف هو حوالي 1 : 10 وظل الدينار الفضي الساساني يحمل صورة النار، رمز الزرادشتية.

وكان لا بد أن تتوزع الدولة العملاقة إلى ولايات، كان العراق أهمها، ثم سوريا ومصر. و كان قائد الجيش في هذه الولايات هو أعلى سلطة فيها، والحاكم ممثل الدولة تتركز في يديه سلطة الإدارة، وكممثل ديني للخليفة، يلقي خطب الجمعة من على المنبر، وتدريجياً بدأ العرب في التفريق بين الوظيفتين.

وظل المسلمون في المناطق المفتوحة معزولين عن السكان في معسكرات الجيش، التي سرعان ما أصبحت من أهم المدن العربية ـ الإسلامية حضارياً. ففي عام 635 بنيت البصرة في جنوب العراق، وفي 638 بنيت الكوفة في وسط العراق، وفي نفس السنة بنيت الفسطاط التي تقع مباشرة بالقرب من القاهرة. وفي هذه المستوطنات التي كانت بنفس الوقت مقرات للحاكم وممثلي الدولة، كان التركيز على العناصر العربية. وكان المقاتلون يسكنون مع عائلاتهم وبحسب قبائلهم، وهذا التقسيم على المجاميع جاء حسب المبدأ الجنتيلي القديم.

وكان هذا النمط الجديد المتطور عن النظام الجنتيلي يؤدي إلى مشاحنات ونزاعات رغم أن هذه العلاقات كانت قد فقدت الكثير من أهميتها وما تزال تفقد المزيد منها خلال الفتوحات. وقد سكن مواطني البلاد المفتوحة في بعض المعسكرات، لا سيما التجار والعاملون في الأشغال اليدوية، أما مقرات السكن القديمة للحكام، فلم يبق منها عامل سوى قصر دمشق الذي تحول إلى مقر للحاكم وممثل الدولة في سوريا العربية.

وكان تمويل الجيش يمثل الهم الأكبر للدولة الفتية، ولذلك تم في عهد الخليفة الثاني عمر، تأسيس الديوان، وهو ما يقابل هيئة الرقابة المالية، وبسبب كونهم ينتمون إلى عائلة الرسول(ص) واستحقاقهم لتوسع الإسلام يستلمون الهدايا، على الرغم من أن جميع المسلمين كانوا يعتبرون ذلك شكلاً من الضريبة. فقد كان هناك فارقاً كبيراً بين الحد الأعلى والحد الأدنى، فإن زوجات الرسول (ص) كنّ يستلمن مبلغاً سنوياً قدره اثنا عشر ألف دينار، والمشاركين في معركة بدر

خمسة آلاف دينار، وأبناء المهاجرين والأنصار ألف دينار. والعدد الأكبر من المسلمين مبلغاً يتراوح بين ثلاثة وخمسة الآف دينار. ولم يكن على المسلمين سوى القليل من نواحي الصرف، فكان على كل رجل أن يعطي الزكاة التي كانت تصرف على النواحي الخيرية، وإذا تملك المسلم أرضاً فعليه أن يدفع العشر التي هي أقل من ضريبة العقار التي يدفعها مالكوا الأراضي غير المسلمين، والفلاحون إلى جانب الجزية. وأصبح لضريبة العقار هذه موعدها السنوي الثابت (الخراج)، وتدفع إما على شكل منتجات طبيعية أو نقود. وقد استفاد العرب من النظامين البيزنطي والفارسي بهذا الصدد. ومن أجل الإحاطة علماً بنظام الضرائب التي يمكن أن تؤخذ من إحدى الولايات، ففي عهد الخليفة عمر كان الخراج يأتي من أرض السواد (العراق) 120 مليون درهم.

ورفعت الفتوحات -على ما أتت به غنائم كثيرة- من درجة الرفاهية والحاجة إليها في حياة المسلمين وأرستقراطيتهم بسرعة. كما دخلت إليه عناصر جديدة، لم تكن متوفرة قبل الإسلام. وبدأت الأرستقراطية تدخل الرفاهية في حياتها حتى في المدن المقدسة من الغناء والطرب وامتلاك العبيد. واقتبسوا من الفرس عناصر موسيقية جديدة، فيما ظل الشعر العربي في محتواه وشكله، ولم تجد الفتوحات إلا القليل من الانعكاسات فيه.

ومن الأهمية الكبرى بمكان ما تمثل في تشكل معايير جديدة ثابتة في التقاليد لاستقرار الإسلام، وكان الكثير من الصحابة قد استشهدوا في الحروب التي لا نهاية لها. وفي نفس الوقت كان مهماً صدور نسخ رسمية من القرآن من أجل إنهاء الجدال حول السور والآيات التي كانت تتناقل شفهياً، فقام الخليفة الثالث عثمان بنسخ المصحف عام 653، وأباد كافة النسخ الأخرى. وفي عهد الخليفة الثاني كان العمل يجري بموجب الشهر القمري للنظام الإسلامي والعام الذي تم بموجبه تثبيت العام الهجري(هجرة الرسول) الذي يطابق في 16 / تموز / 622 بموجب تقويم جوليان، فوضع قيد الاستخدام وما يزال حتى اليوم.

رابعاً : الصراع على الخلافة

ساعدت الفتوحات على إخفاء مؤقت للخلاف حول موضوعين، فقد كان اتحاد الأمة داخلياً حيال الفتوحات متيناً يغطي احتمالات التمزقات والخلافات، إذ نال مقاتلون بسطاء على حصة من الغنائم ولكنهم سرعان ما تصرفوا بها وأنفقوها، بينما كانت الأرستقراطية العسكرية تتمتع بثروات كبيرة لاسيما في الأرض والعبيد.

وفي ظل هذه الظروف عادت الأرستقراطية القريشية بقيادة بني أمية بعد تراجع مؤقت إلى موقع الصدارة وقد نالت الدعم من حلفائها القدامى ضمن شبه الجزيرة العربية ولا سيما في مدينة الطائف ومن أعراب سوريا الذين كانوا قد قطنوا تلك الأرجاء حتى قبل الإسلام والذين مثلوا ضمانة لفتح سوريا. وفي عهد الخليفة عمر عُيّن معاوية بن أبي سفيان عام 634 هناك، وهو من أنجال زعيم مكة السابق. وفي عهد الخليفة عثمان، وهو أحد أقدم المقربين من أتباع الرسول ومن أقرباء الأمويين، فساعدهم في توسيع نفوذهم عندما وضع أقرباءه في أهم الولايات وبذلك تمت السيطرة على غنائم تلك الولايات وهو ما جعل الاحتجاج يتصاعد بين المقاتلين البسطاء ضد سلطات وصلاحيات قادتهم. وكان الخليفة نفسه يحوز على ثروة كبيرة، كما تذكر المصادر من مال وأراض وممتلكات وخيول وجمال.

وقد طالب المقاتلون الساخطون تحسين أوضاعهم وتوزيع وارد الولايات بينهم وبين رجال الدولة في المدينة. فتوجه عدد كبير منهم من الولايات إلى المدينة لتحقيق مطالبهم. وعندما سمع هؤلاء بأن جيشاً قادم لقتالهم هاجموا بيت الخليفة عثمان وقتلوه وكان ذلك في عام 656. وقد وجد هؤلاء الساخطون دعماً سلبياً من بين رفاق الرسول ومن عائلته، الذين كانوا يرون في بني أمية خطراً مهدداً. وكان على بن أبي طالب يقف في مقدمة المقاومين لبني أمية، وهو ابن عم النبي وصهره، الذي طالب به الساخطون قائداً لهم. وقد امتنع في البداية ولكنه من جهة أخرى لم يمنعهم عن قتل الخليفة. وهنا غادر بنو أمية المدينة بعد مقتل عثمان، وتسيدت المعارضة الموقف مؤقتاً وطلبت من علياً استلام الخلافة، وهكذا تمت البيعة له والخلافة في عام 656.

ووقف بنو أمية على الفور ضد البيعة، ثم إنهم في ولاية سوريا كنقطة ارتكاز لهم لم يؤيدوا بيعة علي الذي لبى مطالب المتمردين، فعزل بعض الحكام وعين بدلاً عنهم مؤيديه، كما وزع رصيد الدولة في المدينة على المقاتلين، ولم يكن الأمويون في سوريا وحدهم الذين وجهوا اللوم إلى علي بن أبي طالب، وحمّلوه الذنب على أنه مشترك في اغتيال عثمان. فقد شاع عدم الارتياح في المدينة المقدسة من إجراءات علي، كما قام خصومه من المكيين في مكة من صحابة الرسول القدماء طلحة والزبير، بتركيز قواهم في العراق وتوجهوا مع بضع مئات من الرجال نحو البصرة واحتلوا هذه المدينة وبدؤوا بإدارة هذه الولاية. وقام علي بن أبي طالب بقيادة أتباعه من مدينة الكوفة ضد المتمردين. وفي كانون الأول/ 656 حدثت معركة الجمل الشهيرة بالقرب من البصرة حيث سميت بهذا الاسم كناية لجمل السيدة عائشة الذي كان وسط المعركة. وقد استشهد طلحة والزبير وأرسل علي المنتصر عائشة إلى المدينة، وبذلك انتهى التمرد.

وبعد هزيمة هذه الانتفاضة، دخل علي في مفاوضات مع معاوية محاولاً أن يستميله إلى الطاعة. وكان سبب النزاع بينهما هي مسألة السلطة التي ظهرت بصيغة مشكلة قانونية :

إذا كان عثمان قد قتل بدون حق فيكون لأقربائه الحق بأخذ ثأره. أما إذا كان قد اغتيل بحق فلا يحق لأحد أن يأخذ بثأره. وكان معاوية من أنصار الرأي الأول، بينما قرر علي معارضة أخذ الثأر.

لذلك فقد ظلت المفاوضات بدون نتيجة بين الاثنين، فتحرك كل منهما وباشروا بإجراء مناوشات صغيرة إلى أن بدؤوا في اشتباك عنيف، وأصبح موقف معاوية في خطر شديد. وهنا نصح عمرو بن العاص حليف معاوية وحاكم مصر المقاتلين برفع نسخ من المصحف على رؤوس الحراب إشارة لإيقاف القتال وجعل الكتاب المقدس(القرآن) حكماً، وهكذا أرغم علي على قبول هذا الحل وتم تسمية الحكام الذين ينبغي عليهم حل المسألة.

ولم يقبل الكثير من أنصار علي هذا القرار، فغادروا معسكره وبذلك حملوا اسم الخوارج، وبذلك أصبح للخليفة معارضون جدد من المتزمتين الذين يعتبرون أن المصحف هو المدافع عن حقوق المقاتلين البسطاء ضد سلطة الأرستقراطيين والمواقف المخالفة للدين ولعلي بن أبي طالب. واستغل معاوية نقطة الضعف الأخيرة هذه في حزب علي، فقوى نفوذه في مصر.

وقد حاول الخليفة علي إزالة ومكافحة الخلافات الناشبة داخل صفوفه، فجعل ذلك موضع اهتمامه الأول فحاول بكافة الوسائل أن يزيلها. وإذ فشلت الدبلوماسية في ذلك، فقد اندلع حمام دم بينهما (مع الخوارج)في النهروان عام 658 الذي تسبب في توجيه النقد له حتى من أتباعه.
بويع معاوية بدعم من قواته السورية كخليفة عام 658 وهذا الازدواج في السلطة الحاكمة: علي في الشرق ومعاوية في سوريا، وإلى الغرب منها استمر حتى عام 661، إلى أن سقط علي في عاصمته الكوفة ضحية على يد أحد الخوارج، وبذلك بقي معاوية الحاكم الأول ولكنه لاقى في العراق معارضة قوية إذ تجمع في الكوفة أتباع علي والمؤيدون لعائلته، الذي أصبحوا في القرون اللاحقة عنصراً سياسياً هاماً، كما خاض الخوارج نضالاً قاسياً ضد الشيعة ومعاوية بالكلمة والسلاح، وقد مثلت هذه الأوضاع في العراق مصدر قلق للأمويين. وكان العراق في نفس الوقت بموارده، من أكثر الولايات ثراءً.

إجمالي الفصل

شهد بداية القرن السابع الميلادي في شبه الجزيرة العربية، تصاعد ظروف وأوضاع تاريخية أدت موضوعياً إلى اشتداد الصراع وانهيار المجتمع البدوي البطريركي، وكان لهذه التطورات تأثيراتها الأخرى التي وضعتها على مسارات جديدة منه: تأسيس نظام دولة مركزية. وعندما تحقق ذلك على أفضل وجه على يد الرسول محمد(ص) الذي وفر القاعدة الأيديولوجية، والنظام الإسلامي وهي في الأساس امتداد لعملية احتجاج اجتماعية من الفئات المكية الوسطى ضد الفئات العليا ونظامها في تعدد الآلهة.

وفي غضون عشرين عاماً من النضال تمكن الرسول محمد (ص)، من تحقيق النواة المركزية للنظام العربي الإسلامي(الخلافة) في المدينة ومن إقناع الكثير من العرب في غرب شبه الجزيرة بما في ذلك الأرستقراطية العربية بمزايا الإسلام. وقد نجح الدين الجديد (الإسلام) في أن يحل العديد من المشكلات، والجهاد كوسيلة في حل الصراعات بين الأعراب البدو في شبه الجزيرة العربية في صورة جهاد من أجل الفتوحات وتوحيد الجهود وجعلها مركزية والتوجه نحو أهداف مشتركة من أجل الغنائم.

وقد تم في غضون فترة قصيرة وبقيادة قادة جيوش موهوبين وعباقرة برزوا من بين صفوف الأرستقراطية العربية، قادوا جيوش البدو، وبدرجة أساسية في عهد الخليفة عمر، وضربوا الإمبراطورية الساسانية والبيزنطية واستولوا على أراض شاسعة من هاتين الإمبراطوريتين.
وكان الجزء الأهم من شروط هذه المرحلة الأولى من التوسع العربي الإسلامي التي قادتها أرستقراطية لبدو ومحاربين بسطاء تتمثل في عملية توعية ومساواة بين جميع المسلمين. وبسبب توزيع غير عادل للغنائم نالت فيها الأرستقراطية حصة الأسد، هبت حركة احتجاجات المحاربين في عهد الخليفة عثمان، واحتدمت هذه التناقضات وأدت في تلازمها مع الصراع على السلطة ضمن الأرستقراطية نفسها إلى هزة في نظام الخلافة الفتي.

وفي غضون مسيرة الصراع الاجتماعي والسياسي الذي اشتد بين الخوارج والشيعة، برزت أول طائفة إسلامية، كما تمكنت في نفس الوقت الأرستقراطية المكية القديمة (بني أمية) التي تمكنت من خلال صراعها على السلطة مع الخليفة علي من تأسيس دولة في سوريا بقيادة عائلة بني أمية.

الفصل الثالث

الإمبراطورية الأموية
750 - 661

1. توطيد السلطة.
2. فتوحات جديدة.
3. العلاقات الداخلية.
4. حركات وانتفاضات.
5. نهوض العباسيين.

إجمالي الفصل

أولاً: توطيد السلطة

تمكن بنو أمية عام 661 من التوصل إلى السلطة التي ناضلوا طويلاً من أجلها على مدى تسعين عاماً ضد أعدائهم ومنافسيهم بواسطة معاوية بن أبي سفيان، وبقيادتهم تمكنوا من إيصال حدود إمبراطورية الخلافة في جميع الاتجاهات إلى أبعاد جديدة، كما تصاعدت أعداد الشعوب التي شملتها هذه الإمبراطورية. وقد وضعت عملية التمايز الاجتماعي الدائرة ضمن الفئات العربية الحاكمة وبمقاييس متصاعدة، حجر الأساس لإقطاعية عربية، بين مقاتلين ساخطين، وحلفاء الأرستقراطية العربية ومنتسبيها.

وكان العرب السوريون من هؤلاء الذين قدموا الدعم للأمويين، وهم الذين كانوا قد قطنوا هذه الديار في مرحلة ما قبل العهد الإسلامي وكانوا قد دافعوا بقيادة حكامهم من الغساسنة عن سوريا برعاية البيزنطيين الذين اعتبروا سوريا ولاية تابعة لهم، فدافعوا عنها ضد الساسانيين وبدو شبه الجزيرة العربية، ثم أقاموا العلاقات مع الحكام الجدد عبر امتيازات عديدة. وتداخلت القبائل العربية عبر التصاهر، كما أصبحوا جنوداً في الجيش الأموي، وكانت دمشق في وسط سوريا مركزاً للإدارة القديمة. قد أصبحت مقراً لحكم الأمويين.

وانقسم العرب في المناطق التي تم فتحها، إلى مجموعتين من خلال التنافس الدائم الذي يمكن تقديره كعامل سياسي. ففي الجبهة الأولى وقف اليمنيون الذين كانوا يمثلون من خلال صلة القبائل (القلب)، وكانوا ما قبل الفتوحات العربية ـ الإسلامية قد تداخلوا مع حدود شبه الجزيرة العربية شيئاً فشيئاً. وكانوا كبدو وأنصاف بدو قد نالوا مكانة اقتصادية ثابتة في هذه البلدان وهم لا يريدون أن يتنازلوا عنها بأي حال من الأحوال، كما أنهم كانوا قد اعتادوا وألفوا من خلال الصلات الدائمة مع سكان سوريا والعراق الذين كانوا قد سبقوهم، الكثير من المظاهر المتطورة والمتحضرة التي تركت آثارها فيهم. ومقابلهم كان عرب الشمال من قبائل نزار، والذين كانت قبائل قيس ممثلهم الرئيس، وكان هؤلاء الأعراب قد وصلوا سوريا وحلوا فيها مع الفتح الإسلامي، وتمكنوا من أن يحققوا لأنفسم مكانة في الأقطار المفتوحة. وقد بذلت كلتا المجموعتين من القبائل ذات المساعي المشتركة وجهوداً لتوسيع ممتلكاتهم من الغنائم من خلال الغزوات.

وقد استغل الأمويون أعمال السطو الدائرة بين القبائل العربية الشمالية والجنوبية بذكاء، ومع أنهم (الأمويون)، ينتمون بموجب الأصول القبلية إلى القيسيين، فقد كانوا يمنحون الأفضلية مرة لهؤلاء ومرة لمنافسيهم. و كان عليهم اعتبار العلاقات الجنتيلية التي ما زالت قوية في الحكومة، ويعتبر المؤرخون البيزنطيون بأن معاوية بن أبي سفيان ما يزال يعمل في التقاليد العربية القديمة، كقائد قبيلة ضمن نظام الشورى(التشريع) والتنفيذية. وكانت صلتهم (الحكومة الأموية) مع القبائل تتحقق بواسطة وفود القبائل الذين كان معاوية يعبر عن قراراتها. وفي نفس الوقت كان هو الحاكم الذي يدير الولايات بأمر منه عن طريق ولاة يعينهم بنفسه، يحوزون على سلطات(صلاحيات) قوية طالما أنهم يرسلون ما يكفي من الضرائب إلى دمشق ويظهرون القدرة على قمع كافة المساعي ضد حكم بني أمية.

وكان العراق بالغ الأهمية عند الخليفة. فهو يمثل النواة للنصف الشرقي من الإمبراطورية، هذه الأرض الواسعة الكبيرة، والأكثر ثراء وضرائب من بين جميع الولايات الأخرى. وفي كلتا

المدينتين: الكوفة والبصرة كان يتواجد العدد الأكبر من المقاتلين مع ذويهم في المعسكرات، وكان يقطن البصرة في عهد معاوية أكثر من مئة ألف منهم، بينما يتجاوز عدد المقاتلين وعوائلهم ومن يتعلق بهم إلى أكثر من هذا الرقم بكثير. وكان المسلمون يعيشون في هذه المعسكرات في مساكن مقسمة بموجب المبادئ القبلية البدوية. وكانت هذه الاعتبارات القبلية ما تزال سائدة بالنسبة للجيوش، وتمثل القوة الضاربة والخطر الأكبر.

وقد تعين على الأمويين أن يمنحوا هذه المنطقة اهتماما خاصاً، وأكثر من ذلك، فقد كان العراق يضم أكبر عدد من الاتجاهات المعادية للأمويين، لذلك حاول الخلفاء أن يضعوا في سلطة هذه الولاية أكثر الحكام اقتداراً من أجل إقرار سياسة الحكومة المركزية بالقوة واللين. ووجد معاوية في زياد بن أبيه رجلاً ذي تجارب لتحقيق المطلوب في هذا المنصب. وهو ابن جارية لأب غير معروف من الطائف، وكان قد عمل كأحد أتباع علي بن أبي طالب حاكماً على فارس، ثم تبناه الحاكم الأموي في عائلته كواحد من أبنائها واعتبره أخاً رسمياً له. و مضى زياد في غضون فترة عمله التي استمرت ثمان سنوات بقبضة قوية قاسية إلى الأمام ضد العوائق. وكوّن من أجل حمايته شخصياً حرساً خاصاً قوياً كان يرافقه في كل مكان في سفراته أو في ظهوره العلني، وقد وضع قوة من الشرطة تقدر بأربعة آلاف رجل من أجل الاحتفاظ بالنظام في الداخل، كما خاض قتالاً مريراً ضد القبائل الخطرة المتنازعة.

وجه الحاكم زياد ضربة لجيوش قبلية متحالفة، وقسم مدينة الكوفة إلى أربعة أقسام من عناصر مختلفة. وجعل من نفسه قائداً لكافة ممثلي القبائل في البصرة نتيجة لتفشي الفساد. كما قام بإخراج القبائل المثيرة للفتن من العراق وأرغمها على السكن في مناطق الحدود الشرقية للإمبراطورية، وقمع حركات الخوارج من خلال إعدامه للعناصر الخطرة منهم، ثم سعى لتكفيرهم. وبذل الجهود لتحسين أحوال الولاية للحصول على قدر أكبر من جباية الضرائب التي كانت مرهونة باستغلال أكبر للفلاحين، وكان ذلك في مقدمة طلباته من موظفي الضرائب في ولايته، وقد تمكن فعلاً من رفع غلة الأرض ومن خلال شق الترع والقنوات وتحسين نظام الري.

وكانت المهمة السياسية الرئيسية لمعاوية هي تأمين السلطة لعائلة بني سفيان، وخلافاً للأساليب والأنظمة التي كان عليها الحكام السابقون، فقد قرّر وثبّت ولده يزيد ولياً للعهد وبويع وهو على قيد الحياة. وعندما توفي عام 680 بعد فترة حكم طويلة، بعد أن كان قد تمكن من إطفاء لهيب حركات المعارضة القوية، ارتقى ابنه إلى سدة الحكم، فأعلن أنصار علي بن أبي طالب على الفور اعتراضاتهم على الخلافة ووجدوا دعماً من الأعراب في المعسكرات الذين كانوا ساخطين على سياسة الحاكم الأموي زياد بن أبيه، وهم الذين كان يقع على عاتقهم ثقل السياسة الأموية في العراق.

وكان الحسن بن علي قد تنازل عن كل حقوقه في الحكم ويعيش بين ممتلكاته الثرية عيشة رغيدة بسلام. فيما ينادي الآن للخلافة أنصار علي في الكوفة لشقيقه الحسين. ولكن الحسين لم يجد من بين أصدقائه في المدينة سوى القليل من التأييد في رحلته، فيما اتخذ عبيد الله بن زياد بسرعة العديد من الإجراءات الدفاعية المضادة. وقد استطاعت القوات السورية في 10/ تشرين الأول/ 680 بالقرب من كربلاء أن تقتل الحسين، وبالنسبة إلى الشيعة شهيداً، حيث بدأت هالة من الأساطير تحاك حول هذه المسألة بما يتجاوز ما هو طبيعي. و تحول موقع المعركة إلى أثر تذكاري لأولاد علي، وأصبح في القرون اللاحقة مكاناً مقدساً لكافة الشيعة.

وحدث ما هو أخطر من ذلك من نهوض ومعارضة، وتمثل ذلك في تنامي معارضة الأرستقراطية العربية التي كانت تعيش في المدينة ومكة، فقد بايع الذين أقصوا عن القيادة على يد الأمويين: عبد الله بن الزبير وهو ابن أخت عائشة(زوج الرسول ص) إلى الخلافة، ومارسوا العديد من أعمال التحريض في جميع الولايات، فأرسل يزيد جيشاً ضد المدينتين المقدستين، فاحتلت المدينة، وحوصرت مكة. ولكن الجيش عاد مسرعاً بعد موت يزيد عام 683 وتفاقم الأحوال في سوريا. وحل يزيد الثاني بن معاوية الذي توفي بعد فترة حكم قصيرة عام 684، ووقفت قيس إلى جانب ابن الزبير خصم الخليفة الأموي. وبدا وكأن حكم بني أمية سيشهد نهايته، ولكن مروان بن الحكم استلم الحكم بمبادرة منه بوصفه زعيماً لعائلة بني أمية. كما ساهم عبيد الله بن زياد قائد قوات القلب بإنقاذ الحكم، بانتصاره على قبيلة قيس في معركة مرج راهط بالقرب من دمشق. وتمكنت الأقلية الأموية وباتباع أساليب الحيلة من توجيه ضربة مميتة لها وبذلك أصبحت سوريا مرة أخرى مؤمنة للأمويين، وبعد ذلك بسنة واحدة صعد الخليفة عبد الملك بن مروان كثاني ممثل للفرع المرواني إلى الحكم، وكان همه الأكبر هو الانتصار النهائي على أعداء الخلافة في مكة التي هي من أكبر أجزاء الإمبراطورية وإخضاع العراق الذي كان تحت حكم الزبيريين، وقبلها كان قد قمع حركة كبيرة 687 يقودها المختار.

وفي غضون ذلك، حاول عبد الملك بن مروان في سوريا تقويض مكانة ابن الزبير دينياً، فقد حاول أن ينقل المكانة الدينية المهمة لمكة إلى القدس، إذ شيد عام 688 - 691 جامع قبة الصخرة وهي الآن إحدى القبلتين للمسلمين.

وبعد أن غطى الخليفة عبد الملك ظهره بهدنة مع البيزنطيين، صار بإمكانه أن يفكر باستعادة الحجاز. ففي عام 692 حوصرت مكة وهُدمت الكعبة بفعل القذائف، ودخلت القوات السورية إلى هذه المدينة المقدسة واحتلتها بقيادة معلم سابق يدعى الحجاج بن يوسف، وقد قتل في هذه المعركة ابن الزبير، وبذلك فقد استتب هدف الأرستقراطية الحجازية في الخلافة، وأصبحت المدينتان المقدستان، مكة والمدينة، اللتان يسعى كل حاكم للاحتفاظ بهما كمركز ديني/ثقافي، أصبحتا مركزاً لتجمع الأوساط المحافظة دينياً، وظلتا في عزلة نسبياً عن الإسهام في تطور التعاليم الدينية الإسلامية والتي كانت ضد قيادة عائلة بني أمية في دمشق.

وعاد العراق في عام 494 تحت قيادة حاكم قوي يحمل صلاحيات نائب الخليفة وهو الحجاج الذي بقمعه للقوى المعادية للخلافة قدم خدمة كبيرة للعائلة الأموية. وفي خطبته التقليدية لاستلام السلطة قي مسجد الكوفة الذي هو مركز لأتباع علي، أعلن بوضوح للمدينة المتمردة في نظام حكمه بقوله: إنني أرى هنا رؤوساً قد أينعت وحان قطافها، وإنني سوف لن أكون مثل التينة التي تعصر، أو سهل المنال كالقرعات الجافة، لقد انتخبت بسبب ورعي وإني سأتابع هدفي حتى أحققه ".

وبطاقة كبيرة وحيوية، كافح الحجاج الخوارج الذين خاضوا ضرباً من حرب العصابات في العراق. ثم قمع حركة ابن الأشعث الكندي عام 701 والذي قابل بنفسه قوات النخبة التي أرسلها الحجاج من الشرق، كما أنه لاقى المساندة من قبائل الموالي. ومن هناك، من قصره ومحل إقامته في واسط الذي كان يقع بين الكوفة والبصرة وهي (معسكر مدينة) أسسها لقواته السورية، قاد هذا الحاكم الأموي سياسة اقتصادية بجهد مركزي من خلال أعمال الري واستصلاح الأرض وربط الفلاحين إلى الأرض، واستغلالهم بدون رحمة من أجل إنتاج أكثر. وبعد وفاته، (حكم 20 عاماً)، كان قد ترك في خزانة الولاية وحدها مئة مليون دينار، وتكتب المصادر عن ضحاياه بعشرات الآلاف في سجون العراق. وكانت خدمة الحجاج في عهد اثنين

من الخلفاء مثلا العصر المزدهر لهذه العائلة (المروانية): عبد الملك 685- 705 ، وكذلك الوليد بن عبد الملك 705 - 715.

ثانياً : فتوحات جديدة

بعد أن أزيح المتنافسون في الداخل، أصبحت القوة العسكرية محررة وجاهزة لفتوحات جديدة، ووجدت في عهد وليد الأول توسعها الأكبر. وكانت الحملة ضد بيزنطة، الهدف الرئيسي في سياسة التوسع لحكومة دمشق، وتقع ولاية بيزنطة على حدود ولاية سوريا، منذ أن كان معاوية لما يزل بعد حاكماً للولاية في عهد الخليفة عثمان الذي كان قد اهتم ببناء أسطول عربي، وكلفت ورش بناء السفن في الإسكندرية وفي المدن الساحلية السورية بهذه المهمة، وتقنع البرديات المصرية بوضوح أن بناء هذه السفن الحربية وتجهيزها بالعناصر اللازمة وتشغيلها، كانت من مهمة ولايتي سوريا ومصر. ففي مثل هذه السفن مورست أعمال النهب والقرصنة البحرية ضد الجزر الواقعة في شرقي المتوسط والتي كانت سيادتها تعود للبيزنطيين. وعلى سبيل المثال ضد قبرص عام 649، كما أحرزت انتصار بحري على سواحل بحر إيجة عام 655، وأعقب ذلك إنزال عربي على أراضي آسيا الصغرى.

واستعانت بيزنطة ضد هذه المخاطر بقوات سلافية، ومنهم تسرب الكثير إلى العرب. وكانت حالة الهدنة غالباً ما تخرق عندما يشعر أحد الطرفين (الأمويين أو البيزنطيين) بصعوبات داخلية كانت تدفع للقتال، لذلك كان ناقوس الحرب متأرجح بينهما. وفي خدمة الدولة البيزنطية زحف المارديتيون(نسبة إلى مدينة ماردين ـ المترجم)واستقروا في لبنان حيث استمروا بتهديد العرب، أو العمل في خدمتهم ومساعدتهم في الجيش ولاسيما في العمليات في عهد الوليد وخلفه سليمان 715 - 717 عندما زحفت القوات السورية بقيادة القائد المشهور مسلمة وهو أحد أبناء الخليفة عبد الملك بن مروان في الأراضي البيزنطية 717 - 718.

ودمر البيزنطيون الذين كانوا يتمتعون بدعم البلغار الكثير من السفن العربية بواسطة النار اليونانية الشهيرة، والأجهزة التي يتمتعون بها، وبالإضافة لمشكلات التموين والإمداد مما تسببت في فشل الحملة العربية، وبذلك نجت مدينة القيصر ولبضع سنوات قادمة سوف لن يشاهد أي مسلم تحت جدرانها (القسطنطينية)، كما أن الحدود الحدود السورية ـ البيزنطية لم يجر عليها أي تعديلات جوهرية، رغم أن غزوات السلب والنهب كانت تجري بين وقت وآخر في الأراضي البيزنطية صيف كل عام، وكانت القوات السورية قد اكتسبت المهارة في القتال كما أنها استطاعت التخلص من المشكلات الداخلية.

وبعد أن تقدمت الجيوش العربية لطرد القوقاز، استطاعوا في عام 737 اختراق الخطوط الدفاعية التي كان يدافع عنها الخزريون، واندفعوا إلى مناطق شمال القوقاز وتمكنوا من إيقاع عشرون ألفاً في الأسر كما أنهم أقاموا الحدود السورية ـ البيزنطية هناك.

وفي الشرق تقدم المسلمون بقيادة الأمويين حيث تقيم هناك شعوب تركية، وكانت محافظة خوزستان الثرية تمثل القاعدة لانطلاقهم في تلك الأنحاء. ومن هناك عبروا إلى عمورية واسمها اللاتيني Oxus وفي عام 713 استولوا على سمرقند وكان الأتراك الذين استوطنوا تلك المناطق قد أصبحوا مسلمين، وفي الجنوب الشرقي، تقدمت القوات الإسلامية بقيادة الوليد الأول إلى الهند. كانت هذه الحملات في الشرق ومثلها في الغرب، تشتد بحسب توجهات الحكومة

المركزية كما أنها كانت تتأثر بالمبادرات التي يتخذها حكام الولايات التي كانت الحملات متأثرة بها بحسب الوضع الذي يسود منطقته.

ومن الأهمية الخاصة لتاريخ العرب وأوربا، هو تقدم المسلمين إلى شمال إفريقيا. وبعد الاضطرابات في الخلافة في أعقاب مقتل عثمان، توقفت الفتوحات باتجاه الغرب، وجهز الخليفة الأموي الأول من جديد بضعة آلاف من الفرسان إلى شمال إفريقيا وصلت إلى المدن الساحلية التي كانت تحت السيادة البيزنطية حيث يعيش القسم الأعظم منها على جوانب هذه المدن قبائل بدوية بربرية. ومضى الفرسان المسلمون في شمال إفريقيا على شكل حملات صغيرة وهجمات سريعة، وارتبطت تلك الحملات بشكل وثيق باسم القائد الجسور المقتحم عقبة بن نافع الذي اعتُبر بعد وفاته شهيداً وكُرم كثيراً حيث تسمى إلى يومنا هذا منطقة (سيدي عقبة) وكأنها منطقة مقدسة، وكانت قيروان (المدينة ـ المعسكر) قد تأسست على يده في تونس عام 670 والتي لعبت دوراً كمحطة رئيسية ومنطلقاً لفتوحات أخرى.

وبعد أن انتهت الصراعات المسلحة والحروب مع أعداء الخلافة في المدينة المنورة(عبد الله بن الزبير) صار ممكناً لحكومة دمشق أن تفكر من جديد بإخضاع شمال إفريقيا التي شهدت انتفاضة مريرة للبربر، إذ تمكنوا بعد وفاة عقبة بن نافع في عام 693 أن يوجهوا بقيادة زعيمهم كسيلة ضربات ناجحة ضد المسلمين وأن يعيدوهم إلى الوراء، وعند بداية القرن الثامن تجمع البربر مرة أخرى ضد العرب وهذه المرة تحت قيادة كاهنة Kahina. وكوسيلة للحماية من احتمال عودة المسلمين أقاموا منطقة موت(قتل) لإبادة أي محاولة للتقدم. ولكن هذه الإجراءات لم تكن كافية لصد أعراب البدو. فقد كان العرب قد تحالفوا مع البربر المقيمين في المدن الساحلية الذين كانوا قد دخلوا إلى الدين الإسلامي متحالفين مع العرب، وفي عام 703 ضربت كاهنة مع قواتها، وبدأت بالتوسع والتقدم بالعمل وأصبح البربر الآن يمثلون عنصراً بدوياً جديداً من أجل فتوحات جديدة.

وفي عام 709 وبعد أن تم احتلال المناطق الساحلية بمساعدة الأساطيل العربية واحتلال المغرب الواقعة في غرب شمال إفريقيا ووصول الجيش الإسلامي إلى ساحل المحيط الأطلسي، قام في عام 711 وبقيادة طارق بن زياد الذي كان يعمل مع موسى بن نصير حاكم شمال إفريقيا، ثلاثمائة عربي وسبعة آلاف بربري بعبور المضيق الذي عرف باسمه (جبل طارق) إلى إسبانيا وهنا وقعت مملكة الرب الغربية (اسم إسبانيا آنذاك) في أزمة عميقة من خلال الصراع الطبقي الآخذ بالتعمق بين العبيد والفلاحين من جهة، وسادة الإقطاع الذين كانوا فيما بينهم في صراعات ومشاحنات من جهة أخرى. ودولة ضعيفة كهذه لا تستطع أن تصد هجوم المقاتلين البدو. وفي معركة وادي البكاء Wadi Bakka ويسمى بالإسبانية Jerez de la Frontera، اندحر الجيش الإسباني بصورة حاسمة وفرّ على أثرها الملك الإسباني، إذ كان قدر مملكته قد حُسم.

وتساقطت المدن الواحدة بعد الأخرى غنيمة سهلة بيد المسلمين، أو أنها أخذت بعد حصار ولم يبد السكان المحليون أي شكل من أشكال المقاومة أمام تقدم القوات العربية. وفي عام 718 كانت معظم أجزاء إسبانيا قد سقطت باستثناء مناطق في الشمال الغربي والشمال الشرقي. وزحف العرب عبر جبال البيرنية إلى جالين Gallien حيث الإمبراطورية الفرنكية الميروفينيك Merowing حيث بدؤوا بالاستقرار هناك إذ سهلت الصراعات الداخلية بين جيوش الإقطاعيين والحكومة المركزية، العمليات العسكرية للعرب. وفي عام 720 تقدم المسلمون من العرب والبربر واحتلوا نابورنا Nabornne، ثم اصطدموا بمقاومة قوية بالقرب من تولوزToulouse.

وفي عام 732 حل جيش إسلامي جديد في جالين وتقدم فاحتل بوردو Bordeaux ثم تقدم إلى تور Tours حيث أغرتهم كنوز الفرانكيين من الثروات الوطنية ومقدسات مارتين. وفي معركة بويتيز Poitiers هُزم المسلمون على يد جيش من الفرسان الفرنكيين بقيادة كارل مارتيل(هي على الأرجح معركة بلاط الشهداء ـ المترجم) ووضعت هذه المعركة حداً للحملات العربية الصغيرة والتي كانت مهمة جداً للعرب، فقد اكتفوا بالقيام بغزوات صغيرة من جالين للحصول على غنائم دون أن يفكروا بالتوسع والاحتلال. وكانت الصراعات الداخلية في إسبانيا لها تأثيرها في أضعاف الدولة، ولكن هذه المعركة كانت مهمة للفرانكيين الذين بدؤوا منها كمقدمة لتوحيد جالين. ولم يكن المسلمون قد طُردوا من مناطق شرقي البيرنية، واشتبكوا انطلاقا من نابورنا في مشاحنات إقطاعية حيث تحالَفوا هناك مع مالكي الأراضي وأسلموا لمحيطهم مصير الحملة.

ثالثاً: العلاقات الداخلية

كانت سلطة الأمويين قد شملت أصقاعاً واسعة بلغت من أواسط آسيا حدود الإمبراطورية الصينية تانك Tang إلى ما بعد جبال البيرينيه (جبال بين إسبانيا وفرنسا ـ المترجم)، وتطرح إدارة هذه الأراضي الشاسعة واجبات ومهمات ليس من السهل إيجاد الحلول لها.

ولا يوجد لدينا إلا القليل من المصادر التي تشير إلى العلاقات الداخلية في الخلافة الأموية، ولا يمكن الوثوق إلا بالبعض منها، وهو ما يسمح لنا برسم صورة عن تلك البلدان التي تشمل الأقطار العربية وعدد كبير من بلدان ذات تطور اجتماعي عال. ففي مناطق حافات حدود الخلافة، في أواسط آسيا في شبه الجزيرة العربية، وفي شمال أفريقيا، كان ما زال هناك أقوام من الأتراك والعرب والبربر تمارس الرعي، وكانت تسود بينهم العلاقات البدوية الرعوية وقد عرف عن هؤلاء البدو بأنهم مقاتلون أشداء. وتشير لنا ظواهر محدودة أن البدو تواجدوا في الولايات المتطورة والمهمة اقتصادياً في الشرق الأوسط ومصر، وأن بعضها قد توصل إلى مرحلة أكثر تطوراً من خلال العلاقات الإقطاعية، وهكذا نلاحظ بأنهم كانوا من جهة ما يزالون في البداوة، ومن جهة أخرى أحرزوا تطوراً، لا سيما الأرستقراطية إلى درجة الإقطاعية على الرغم من أن الصلات القبلية كانت ما تزال مهمة.

وفي العصر الأموي اكتسبت الأرستقراطية العربية القوة عندما تمكنت في العقود الأولى من فتح بلدان واستولت على أراضٍ، سواء من خلال شرائها من أصحابها غير العرب، أو من خلال أراضي الدولة (القطيعة) والتي كانت على الأغلب خاضعة للإرث. وبالنسبة لأراضي القطيعة فقد كان صاحب الأرض يلتزم بزراعتها، وعلى المسلم أن يقدم للدولة الزكاة عنها. ولكن الفلاح الذي كان يعمل غالباً تحت سياط مالك الأرض، كان عليه أن يدفع الخراج عن القطعة ويبقى الريع هو في الفارق بين المبلغ الواجب دفعه كضريبة للأرض والمبلغ الواجب دفعه كزكاة.

وعلى عكس أوربا، فإن أصحاب الأملاك لا يعيشون في أراضيهم في المزارع، بل في المدن العسكرية حيث يكون بإمكانهم استخدام حاجاتهم الشخصية وتغطيتها دون أن يضطروا على سبيل المثال إلى العمل في التجارة، كان هذا بالنسبة للأرستقراطية في غرب شبه الجزيرة لذلك فقد كانوا يعيشون حياة رغيدة، فالتجارة لم تعد مهمة جداً كما في الماضي حتى في الجزيرة العربية نفسها، من خلال الفتوحات التي عمت الشرق بأكمله فقد اندفعوا إلى محيطهم. وكانت التجارة العربية التي تدور على الطرق القديمة عبر الهلال الخصيب قد تراجعت وتركزت بيد التجار المحليين في الولايات المفتوحة.

واستمر البدو الذين عملوا كرعاة ومجهزي الحيوانات للجيوش الإسلامية، لكن المنتجون في ولايات الإمبراطورية لم يكونوا عرباً بل ليسوا مسلمين في معظم الأحيان. وكان يعمل في الزراعة فلاحون من سكان المنطقة نفسها ومعظمهم مستأجرين من عربي أو من أحد سادة الإقطاع. وفي بعض الأحيان كانوا يستلمون منهم إلى جانب الأرض أدوات العمل والماشية من السادة المؤجرين، ولكن مع دفع ترتيبات إضافية، وكان هؤلاء مرتبطين بالأرض عبر هذه العلاقات ولم يسمح لهم بمغادرتها ولكن مع ذلك، كانت هناك في حالات الاستغلال الكبير،

حركة انتقال من الريف، إما للعمل في المدن، أو للانضمام إلى السراق واللصوص مع العصابات الناشطة في تلك الأرجاء ومواجهة سلطة الحكومة في مصادمات طويلة.

ورفعت حملات الفتوحات أعداد العبيد من خلال تصاعد أعداد الأسرى بأعداد كبيرة، ومن هنا فقد تسبب دين العبودية مصدراً آخراً للمال، فالعبيد كان عليهم العمل إلى جانب الفلاحين في الأرض ولاسيما في شبه الجزيرة(الحجاز) عدا عن استخدامهم في شق الطرق والقنوات، كما عمل العبيد أيضاً في استغلال ثروات الأرض (المناجم)أو في الممالح كما في جنوب العراق. أما الأعمال اليدوية والحرفية، فتلك مهن كان يمارسها المواطنون المحليون، وهم في الغالب ليسوا مسلمين كعملهم في ورش النسيج المصرية المشهورة على سبيل المثال.

وفي المدن ولاسيما في العاصمة، كان العرب يشكلون الفئة ذات الامتيازات الكبرى، حيال الذين لم يكونوا عرباً، سواء كانوا مسلمين أم لم يكونوا لذلك كانوا في المدن المفتوحة يعدون أقلية أما السكان الآخرين وقد تركزوا بالدرجة الأولى في مدن المعسكرات، ففي مصر مثلاً كان أربعين ألف عربي مسجلين عام 661 في الديوان كدافعي ضرائب.

وكان يتربع في قمة الدولة ممثلوا الأرستقراطية العربية. فقد تفرعت العائلة الأموية وتداخلت مع آخرين من خلال سياسة زواج ناجحة بين الأسر. وكان الجيش هو الأداة الحاسمة للسلطة والذي كان يضم أيضاً مقاتلين ليسوا عرباً، ففي الشرق كان الإيرانيون، وفي الغرب كانوا من البربر، وقد مثلوا جانباً مهماً من هذه الجيوش. وكان الجنود العرب يستلمون رواتباً ثابتة بموجب معطيات صادرة عن الديوان، فيما كانت حصة المقاتلين غير العرب هي المساهمة في المغانم فقط. وقد خدم الجيش في الحملات الواسعة وفي إخماد الحركات الداخلية والاضطرابات. ومن أجل الغرض الأخير هذا فإن حكام الولايات قاموا بتأسيس وحدات شرطة خاصة، ففي العراق مثلاً بلغ تعداد هذه القوات أكثر من أربعة آلاف شخص. وكان هناك حرس خاص من أجل الحماية الشخصية للخليفة أو لحكام الولايات، يقوده أحد المقربين من الحاكم أو الخليفة.

وتشير المعطيات التاريخية بأن خبرة وتجارب القوات المقاتلة قد تنامت بصورة ملموسة من خلال حملات الفتوحات، وقد تطورت في المقام الأول معدات الحصار، إذ كانت المدن المحاصرة تشكل الغنيمة المفضلة، فكانت تُقصف بآلات قذف(ربما المنجنيق ؟ ـ المترجم) أو مد أنابيب تحت المياه إذا كانت المدينة المحاصرة تقع على نهر.

وكانت الأحكام القضائية في الدولة تُتخذ على أساس القرآن وأحاديث الرسول محمد(ص)، كما كانت تجري في المدن المقدسة عملية تجميع لها لدراستها ومناقشتها، ثم يمارسها الحاكم (القاضي). وكان العاملون في قوات الشرطة يقفون إلى جانبه لتنفيذ العقوبة.
وكان القضاء يدار من قبل العرب، وقد احتفظوا في البلدان المفتوحة بالبيروقراطية العاملة وأبقوها إلى جانبهم، فهم(العرب) لم يكونوا يحوزون على المعرفة والمعلومات الكافية لحل المشكلات المعقدة في آليات الإدارة وفي مقدمتها تنفيذ نظام الضرائب وكذلك من أجل استمراره. كما طبّقوا أنظمة مركزية صارمة في جميع الولايات. وبسبب حملات الفتوحات فقد تطلب النجاح السريع للجيوش العربية نظاماً مركزياً فعالاً للإدارة سمحت بصلات بين جميع الولايات ومقر الخلافة في دمشق، أو بين حاكم الولاية والموظفين العاملين لديه، وقد تكون ولايته كبيرة، لذلك فإن الخليفة عبد الملك قد جعل محطات تقوية، حيث كان هناك فرسان دائمين كسعاة جاهزين باستمرار من أجل إيصال الأنباء الهامة للحكومة. كما كان العبيد(الأسرى) في كل مكان إلى جانب الفلاحون يعملون بأمر من الخليفة في الشوارع والطرق، كما كان تثبيت

علامات الطريق ونقاط تعين المسافات، مفيداً ليس فقط من أجل العمل السريع للسعاة فحسب، بل وفي التجارة أيضاً.

وقد استمر في إدارة الولايات، وبنسبة كبيرة استخدام ملاك الأرض والنبلاء القدامى الذين بتقديمهم الولاء للدولة العربية، كما استمر استحصال الضرائب بأيدي الملاك الصغار من الفرس وكان الواحد منهم يسمى الدهقان، استمروا بالعمل وبحمل ذات الألقاب القديمة. كما استمر الحاكم المدني لمدينة الإسكندرية بحمل اللقب الروماني التشريفي أوغستاليس Augustalis. وكان يتواجد تحت إمرة الخليفة مسيحيون ينتمون إلى العائلة الدمشقية سرجون Sargun ومنهم اللاهوتي المهم في الكنيسة اليونانية جوهانس داماسينوس Johannes Damascenus المتوفي عام 754 والذي ترعرع في صباه مع الخليفة يزيد الأول. وحتى في قمة السلطة وفي عموم إدارة الضرائب في دمشق.

واستمرت لغة الإدارة أيضاً قيد الاستخدام إلى جانب نظام الإدارة القديمة. ونمت تدريجياً بيروقراطية عربية ـ إسلامية حيث أمكن في عهد الخليفة عبد الملك والوليد الأول في نهاية القرن السابع وبداية القرن الثامن من إجراء إصلاحات في نظام الإدارة للإمبراطورية، كانت الإجراءات الأولى هي سك نقود عربية ـ إسلامية وكان حتى ذلك الحين يجري التداول والعمل بالنقود البيزنطية والفارسية. وكانت قيمة الدينار البيزنطي الذهبي هي بنسبة 1: 10 إلى الدينار الفارسي.

وعدا عن ذلك فقد بدأ العمل بتعريب الإدارة على الأقل في الإدارات المركزية في العاصمة والولايات بدلاً من اللغة اليونانية والقبطية في الغرب والفارسية في الشرق. ودخلت الآن اللغة العربية واستلم العرب والعناصر المستعربة من المسلمين الوظائف القيادية، ولكن مع الاستمرار (ولوقت طويل) في استخدام الموظفين القدماء واللغات القديمة في الولايات على مستوى الوظائف المتوسطة والدنيا. وهكذا أصبحت اللغة العربية في مصر لغة الإدارة المركزية في الفسطاط(عاصمة مصر الإسلامية) بدلاً من اليونانية. ولكن القبطية استمرت في التعاملات لوقت أطول. وبقيت اللغة العربية في المناطق المفتوحة محصورة في المدن، وكان العرب نادراً ما يسكنون الأرياف، حتى وإن امتلكوا الأراضي الكثيرة وإلى جانب ذلك، كان أعداد الذين يدخلون في الدين الإسلامي يتصاعد، وتتصاعد الحاجة لتعلم اللغة العربية بسبب أن القرآن الكريم باللغة العربية، ومن هنا بدأ الفرس لا سيما في العراق بالعمل لغوياً مع العرب وقدموا دراسات مهمة في قواعد اللغة.

وكان الشعراء من الأدوات المهمة التي كانت بأيدي الأوساط السياسية المختلفة، الذين استخدمهم الخلفاء من أجل إحداث التأثير على الرأي العام لمصلحة الأمويين من خلال تقديم الهدايا الثمينة لهم. وعلى النمط القديم من الشعر الوجداني في هجاء الأعداء. ومن بين هؤلاء الكثيرين من سادة الكلمة برز: الشاعر الأخطل (حوالي 640–732) وجرير المتوفي عام 732، والفرزدق 641 - 732 وهما شاعران متنافسان، وكلاهما مسلم.

وبينما كانت الأمور تسير على هذا المنوال في دمشق، كان الشعر القديم يتطور في الحجاز، وعلى الأغلب في قصائد أفلاطونية بدوية، وشعر وجداني جديد، والذي مثل هذا الاتجاه الشاعر الأرستقراطي عمر بن أبي ربيعة 644- 712، أما سائر فروع الفنون والعلوم فاستمرت تحت هيمنة العناصر غير العربية.

وعلى صعيد الفن المعماري، مثل مسجد قبة الصخرة، البناء الأفخم الذي شيده الأمويون في القدس كذلك بنوا قصوراً للصيد والمتعة على حدود الصحراء في سوريا والأردن وهي من عمل حرفيين أجانب، بل أن معظمهم كان يعمل بأمر من قيصر بيزنطة وهو مركب بين الفن البيزنطي والفن العربي الإسلامي.

كان غير المسلم لا يكاد يشعر بشيء في عهد الخلفاء الأمويين، فقد كانوا في نظر الحكام يدفعون الضرائب كاملة، ولم يكن هناك اهتمام بعقيدة الناس. كما كان العديد من غير المسلمين ينالون وظائف مهمة في الدولة والبلاط، كمدير للضرائب، طبيب، شاعر بلاط، ولم يكن يعوقهم شيء في ممارستهم لديانتهم، إلا أن التظاهرات الدينية كانت ممنوعة.

رابعاً: حركات وانتفاضات

تنامت في العصر الأموي أعداد المسلمين بين الأصول غير العربية، وكانت المبادئ الاجتماعية القبلية ما تزال لها تأثيرها ومفعولها. وبذلك أطلق على أولئك الذين انتموا إلى الدين الإسلامي(من غير العرب ـ المترجم) حديثاً لقب الموالي وكان التصرف حيالهم ضرباً من العلاقات القبلية ولكنهم لم يكونوا مسلمين ورعين كالعرب. فهم على سبيل المثال لم يكونوا ينالون راتباً مثل المقاتلين العرب، بل جزءاً من الغنائم في حالة الغزو والحملات، كما كان عليهم مواصلة دفع الضريبة التي كان يتعين عليهم دفعها قبل أن يصبحوا مسلمين والتي كان ينبغي أن يعفوا منها.

وكان الفرس يمثلون العدد الأكبر من الموالي في الولايات الشرقية للإمبراطورية، وفي الغرب كان دخول قبائل البربر في الدين الإسلامي. وهذا التباين الاقتصادي أدى إلى تنامي التذمر والاستياء بين المسلمين الجدد وبين المرتبطين بهم من المقاتلين العرب البسطاء في العراق وفي مشرق شبه الجزيرة لأنهم لم يكونوا أيضاً يستلمون الرواتب من الديوان، أو أنهم كانوا يستلمون مبالغ قليلة، على الرغم من أن الفقراء العرب أو الموالي، الأقل شأناً، كانوا يؤدون المتطلبات والقواعد الدينية بمساواة.

وتعبيراً عن هذه الحالة، فقد اندلعت العديد من الانتفاضات، في العراق بالدرجة الأولى، وقد ارتدت هذه الحركات والتوجهات الاجتماعية رداءاً دينياً، وهكذا تكونت شيعة علي، وهو الحزب الذي رفع شعار حقوق سلالة علي في الخلافة، ثم تحولت شيئاً فشيئاً إلى جماعة دينية أدخلت عناصر غريبة على الإسلام مثل فكرة انتظار المنقذ Missianisim وجعلوا من (المهدي) قائد فئة أو جماعة دينية وشيئاً مقدساً وواسطة عند الله ومنه وله يطبقون واجباتهم ومعتقداتهم، ولا سيما العدالة للجميع أمام الله وقوانينه. وكانت الشيعة في الأصل حزباً سياسياً عربياً خالصاً، ولكنه تحول تدريجياً بتغلغل الموالي إليه إلى حركة تطالب بالعدالة والمساواة لجميع المسلمين. ثم حدثت الانتفاضة الشيعية الكبرى عام 687/685 بقيادة المختار الثقفي في العراق. الذي قام بثورة لصالح محمد بن علي بن أبي طالب(ذو النفس الزكية ـ المترجم)، الذي لا ينحدر مثل الحسن والحسين من فاطمة ابنة الرسول محمد(ص).

اندلعت الانتفاضة، وبسبب وقوف قادة القبائل الذين كانوا قد ناضلوا إلى جانب علي، كما كانت مساهمة الموالي الذين تعرضت امتيازاتهم للخطر واضحة وحاسمة، استطاعت الانتفاضة أن تمد نفوذها بسرعة إلى أجزاء كبيرة من العراق وإيران مستفيدين في ذلك من الصراع بين الأمويين والزبيريين، لكن الحركة تلقت ضربات من ممثل الزبيريين في العراق، قتل فيها المختار بعد معارك مريرة.

وكان الخوارج، هم الأخطر من هذه الانتفاضة المحدودة والتي لم تدم طويلاً في العراق بالنسبة للأمويين أو للزبيريين(وكانوا قد تمكنوا من السيطرة على العراق لفترة)، والخوارج هم الذين لم يرضوا بالتحكيم الذي حدث كنتيجة لمعركة صفين، إذ خرجوا من جيش علي وبدؤوا بالسعي لتحقيق الديمقراطية وبذلوا المحاولات لتحقيق القواعد الإسلامية القديمة، ورفعوا مطالب ثابتة

في النضال ضد المظاهر المتنامية في الإسلام التي تؤدي إلى تعميق هوة الخلاف ضمن الجماعة الإسلامية.

وعلى الرغم من أن حركة الخوارج كانت في البداية مثل الشيعة، حركة عربية خالصة، ولكن انضمام الكثير من العناصر غير العربية، حين وجدوا في المناطق الجبلية ملاذاً لهم وهم يقيمون مكانة المسلم بمدى تطبيقه الصارم للتعاليم الإسلامية بلا هوادة. وبحسب آراء أتباعهم: أن على المسلم الصالح أن لا يمنح طاعته إلا ضمن شروط مشددة.

وفي مجرى الزمن والأحداث انشق الخوراج إلى عدة فئات، حدد المعتدلون منهم انفصالهم في مدن المعسكرات بخوض مناقشات دينية، فيما وضع المتطرفون منهم مبادئهم القائمة على العنف موضع التنفيذ وشكلوا تهديداً مستمراً للعراق إذ كونوا مجاميع مقاتلة صغيرة نسبياً وخاضوا معاركهم وفق الأسلوب العربي القديم في بلاد الرافدين، أسلوب الإغارات السريعة. وكانوا يقاتلون أعداءهم(وهم مسلمون أيضاً) بدون رحمة، ينسحبون بعدها إلى الأراضي الجبلية المرتفعة في إيران. وقاموا بأعمال إرهابية ومنهم فئات تعتبر كل من هو ليس خارجياً فهو كافر مع عائلته. وقد أرعبت هذه الأفكار حلفاءهم الطبيعيين وهم فلاحوا العراق الذين لم يكونوا جميعاً مسلمين(بينهم من أهل الذمة) الأمر الذي لم يكن له أهمية عند الخوارج. ولم تتح التناقضات الداخلية الحادة بين مجاميع الخوارج إقامة قيادة موحدة لهم، بل مكنت الحكومة الحكومة المركزية من إلحاق الهزائم بهم باستخدام قوات صغيرة مع أن القوات الحكومية المركزية كانت قوية. وتمثل النجاح الأكبر للخوارج بمنجزات الأباضية المعتدلين بين بدو وسط شبه الجزيرة ووسط وشمال إفريقيا.

وكان على الحكومة المركزية في دمشق الأخذ بنظر الاعتبار في سياستها. وكانت الإصلاحات في عهد عمر بن عبد العزيز 717 - 720 كرجل إصلاحي مرتبطة بأحكام القرآن، كان قد أعطى أوامره إلى حكام الولايات لتحسين مكانة الموالي، إذ ينبغي تحرير هؤلاء المسلمين غير العرب من الضرائب التي يدفعونها ورفع هذا الحيف عنهم، وما يعني بالضريبة هو كل ما لم يرد ذكره في القرآن، ولكنه يتحمل بدرجة عالية ضريبة المناطق المفتوحة التي لا بد أن تلغى. كما ينبغي الآن منح الرواتب للموالي ومساواتهم بالمقاتلين السوريين الذين كانوا يستلمون رواتباً أعلى من غيرهم من مقاتلي الولايات.

وإنه لمن المشكوك فيه فيما إذا كانت هذه القرارات قد نفذت، إذ أنها تطرح تغيرات هامة لها وزنها في ميزانية الضرائب، ولم يشعر موظفوا الولايات بالاستحسان لهذه التجديدات والتي لم يطبقها الخليفة الذي جاء بعد عمر بن عبد العزيز، وهو هشام بن عبد الملك 724 - 743 بل تقرر ضد ما كان قد اتخذه عمر من الإصلاحات وما كان قد تحقق منها، واتخذ سياسة مالية قاسية جرى تطبيقها من خلال تعين مدراء جدد لجباية الضرائب إلى جانب ما كان يقوم به حكام الولايات الموثوقين.

وتركت ضريبة العقار التي كانت تؤلف القسم الأعظم من واردات الضرائب، قضية الموالي من دون علاج قانوني إذ يفترض ألا تقع ضريبة العقار على ملاك الأراضي المخصصة، بل على أي قطعة أرض بصرف النظر عن الانتماء الديني لمالك الأرض وهذا يعني أن عدد دافعي الضريبة قد ارتفع وأن هذه السياسة أدت إلى الاستغلال في جميع الولايات التابعة إلى إمبراطورية الخليفة، وإلى الانتفاضات التي كانت سبباً في النهاية بسقوط نظام بني أمية. ولكن التفوق في استخدام القوة المسلحة الحكومية قد نجح في إلحاق الهزيمة في معظم هذه الانتفاضات التي لم تكن تخلو من هزائم لقوات الحكومة.

وقد أدى هذا النهوض إلى قيادة موحدة وإلى برنامج شامل. وعلى الأغلب وجدت مطالب الثوار ترجمتها إلى بدع في ديانات المسلمين وغير المسلمين.

واندلعت في أواسط آسيا خلال العشرينات والثلاثينات من القرن الثامن، العديد من الانتفاضات المعادية للعرب، وبعضها كان من حلفاء الخليفة ونادى المتمردين ضد السلطة العسكرية للعرب في المناطق الحدودية حيث طلبوا المساعدة من البدو الأتراك.

وكانت حركات الشعوب في مناطق ما وراء القوقاز ضد الاضطهاد المزدوج: من الحكام العرب أولاً ومن مستغليهم من الفئات المحلية من ملاكي الأراضي ثانياً. وكانوا في تلك المرحلة مرتبطين بالبدعة المسيحية باوليكان Paulikian الذين كانوا يطالبون بالمساواة والتحرر من كافة أشكال الاستغلال وقمعت هذه الحركة من قبل العرب ومن الإقطاعية الأرمينية ومن الكنيسة والقوات البيزنطية قمعاً دموياً.

وفي الفترة 740 - 742 تمرد البربر في شمال إفريقيا بسبب دعايات الخوارج عندما رفعوا الضرائب بشكل غير قانوني من قبلهم، وكانت هذه الانتفاضة خطرة بالنسبة للحكومة المركزية في دمشق عندما سيطرت هذه الحركات لفترة قصيرة في ولايات الغرب البعيدة، وقد تمكنت القوات الحكومية بعد محاولات عابثة، ومعها قوات بربرية من ضرب هذه المحاولة للخوارج.

وفي 725– 726 نهض الفلاحون والأقباط المصريون الذين يعانون من الضغط ووطأة الضرائب الحكومية، وقد حاولوا الفرار من أراضيهم ومزارعهم. وإلى جانب انتفاضات المضطهدين التي كانت لها أحيانا ألواناً وطنية، وجد العرب أنفسهم في نزاعات لا نهاية لها وهي عبارة عن تمرد وعصيان تمثل العهد الأخير للمرحلة القبلية وعلاقاتها. وعلى نقيض قيس وكلاب التي خاضت الحروب الصغيرة من أجل التوسع، تمكنت مجاميع عربية كبيرة من الاستيطان خارج مدن المعسكرات وبعيداً عنها في جميع ولايات الإمبراطورية.

وكان الأمويين يناورون بذكاء بين القبائل، إذ كانوا يلتزمون هذا الطرف مرة وذاك الطرف مرة أخرى، وكانت بلاغة الشعراء تكتنف هذه النزاعات وتثير حماسة القبائل إذ كانوا يهجون خصومهم من القبائل بكلمات قوية.

ولكن برغم كل هذه المساعي والجهود لم تستطع أن تكون جبهة موحدة ضد خصومها الداخليين والخارجيين، وهكذا كانت سلطة الأمويين تمضي إلى الضعف.

خامساً : صعود العباسيين

كان الاستياء الكبير يعم الشعب بسبب الظلم وارتفاع الضرائب وعدم كفاءة واقتدار حكام العائلة في إيجاد الحلول للمشكلات الداخلية، وإلى جانب ذلك استخدمت الأسرة العباسية التي تعود بأصلها إلى عم النبي (ص) العباس مسألة أحقية الخلافة التي يجب أن تكون لبني هاشم. وبحركة الشطرنج الذكية هذه تمكنوا من تشكيل جبهة مع الشيعة، إذ يرجع كلا من علي والعباس إلى أسرة بني هاشم. وقد انطلقت مطالبة العباسيين من قرية صغيرة على البحر الميت بالعمل ضد بني أمية، وسرعان ما نقل العباسيون مقرهم السياسي إلى العراق، تلك الجمرة المتوهجة كما وصفها مؤرخوا ذلك العصر.

وقد نال العباسيون الدعم الاجتماعي القوي من الموالي، ولا سيما في الولايات الإيرانية، فقد كانت دعايات العباسيين تروج أن الخليفة القادم سيكون من عائلة النبي وسيمنحهم المساواة السياسية والاجتماعية مع العرب والمسلمين. وكان المطلب الرئيسي للموالي هي العدالة في الضرائب مع العرب والعدالة في فرص العمل والوظائف وفي الجندرمة.

وكان أبي مسلم الخراساني قد تصدى للصراع العسكري مع الأمويين باسم مستعار وهو من محافظة خراسان الواقعة في أقصى شمال شرق الإمبراطورية، وكان يجمع من حوله العناصر الخطرة ومن ثم كان يتسبب بأحداث الكثير من المتاعب للأمويين. وفي عام 743 ظهر القائد أبو مسلم الخراساني الذي قاد الكفاح العسكري للعباسيين، وكان فارسياً على درجة من الذكاء، ذو قيادة شعبية ممتازة وله دراية في التنظيم، إذ نظم ووحد عناصر كثيرة في النضال ضد الأمويين. وربما بسبب من وضاعة أصله لم يحتل سوى منصباً محلياً فحسب في الانتفاضة.
وقد تألفت القوة الرئيسية للخراساني من عامة الناس والفلاحين وعامة الموالي في خراسان، وكذلك من ملاك الأراضي الصغار من الفرس ومن بعض الأعراب الذين استوطنوا هذه الولاية. ومن خلال هذه الفعاليات أصبح أبو مسلم قائداً عسكرياً ولمع اسمه في الحركة.

وفي عام 747 تحرك المتحالفون في الانتفاضة تحت راية سوداء إلى واحة (مرو/ في أواسط خراسان)، ثم أصبحت الراية السوداء فيما بعد رمزاً انتصار العباسيين وتعتبر الراية السوداء، راية الرسول(ص)، وكانت جماهير الناس قد ارتبطت بهذه الراية وطال انتظارهم لها. وبعد أن تم للخراساني احتلال مرو لم يعد الخراساني يعرف لأي خليفة يناضل، ولكي يحول دون تحطم المعارضة العادلة ضد بني أمية التزم بالإخلاص والوفاء والطاعة لأي فرد من أسرة الرسول(ص)، ثم بدأ الزحف بنجاح باتجاه الغرب تحت الراية السوداء ولم يلق النداء اليائس الذي بعث به حاكم خراسان إلى الخليفة الأموي مروان بن محمد (744 - 750) أي رد ذو فاعلية، فقد كان الخليفة يواجه ثورات وتمرد أشبه ما تكون بالحرب الأهلية في سوريا وفلسطين. وقد حاول آخر خليفة أموي إعادة الاستقرار من خلال إصلاحات عسكرية ورفع قدرات الجيش واستخدام جنود محترفين والاعتماد على وحدات متحركة.

وفي غضون ذلك سقطت على يد أبي مسلم الخرساني مدن إيرانية كثيرة: نيسابور، أصفهان، نهاوند، وفي عام 749، حمل على الكوفة التي هي من مراكز الشيعة، وهنا بدأ العباسيون

يطرحون للمرة الأولى حقوقهم بالخلافة. وفي تشرين الأول / 749 بايعوا قائدهم أبا العباس الملقب بالسفاح، فيما كان مروان بن محمد يخوض معركة حاسمة بالقرب من الزاب الكبير(أحد روافد دجلة) حيث هزمت قواته وفرّ إلى مصر التي سقطت لاحقاً، ثم قتل مروان لاحقاً في إحدى قرى مصر العليا.

أما سوريا التي كانت مقراً ومستنداً لبني أمية فقد سقطت غنيمة باردة بأيدي العباسيين، إذ حوصرت دمشق لبضعة أيام قبل أن تستسلم في نيسان/ 750 ثم جرت تصفيات دموية ضد الأمويين، ففي حزيران / 750 م أقيمت في مدينة يافا الفلسطينية وليمة لثمانين من الأمويين، قتلوا جميعاً ووضع غطاء على الجثث وشرعوا بتناول الطعام.

ولم يستطع أن ينجو من التصفيات إلا القليل من هذه العائلة التي خلعت عن الحكم. ولكن وبعد مغامرات كثيرة استطاع المرواني عبد الرحمن بن معاوية وهو حفيد لعبد الملك بن مروان من الوصول إلى إسبانيا حيث تمكن عام 756 من تأسيس دولة أموية في إسبانيا، ففقدت سوريا مواقعها وامتيازاتها لصالح جارتها العراق. وقد باءت بالفشل كافة المحاولات والانتفاضات السورية ضد العباسيين التي جرت باسم الأمويين.

إجمالي الفصل الثالث

مثّلت السنوات التسعين التي هي عمر الخلافة الأموية، نمطاً من الحكم القديم للأمراء العرب، كما مثلت أيضاً استمرار التنافس بين الفئات المختلفة من خلال التمرد والعصيان وانتفاضات الجماهير التي كانت تتعرض للقمع والاضطهاد، وتميزت باستمرار التوسع العربي ـ الإسلامي. وقد استطاع الأمويين قمع مقاومة الشيعة والخوارج، وكذلك المتنافسين على الخلافة في الحجاز.

وابتدأ الحكم يشهد شيئاً من الاستقرار في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، وبذلك استطاع الأمويين أن يتابعوا الفتوحات.
وفي عهد خلفه الوليد الأول توسعت مساحة الدولة، إذ عبرت الجيوش الإسلامية القوقاز، ثم اندفعوا إلى آسيا الوسطى حتى وصلوا إلى الهند، كما بلغت الجيوش العربية والبربرية إلى سواحل المحيط الأطلسي، ثم احتلوا إسبانيا ووصلوا إلى مدينة جالين (فرنسا).

وكانت هذه المساحة الهائلة التي تمتد من حدود الإمبراطورية الصينية تانك Tang حتى سواحل المحيط الأطلسي، وتضم شعوباً عديدة غير عربية، البعض منها كانت بلداناً متطورة تطوراً عالياً في القوى المنتجة، وبالتالي فإن إدارة هذه الدولة كانت تطرح على الحكومة المركزية مهام صعبة.

وفي المناطق المفتوحة، كانت تدور علاقات إقطاعية مبكرة وعلاقات استغلال لم يمسها الحكام المسلمون، حيث مارس حكام الولايات وممثل الخليفة بإسناد من البيروقراطية المحلية استغلالاً للعمال اليدويين من السكان وسياسة ضرائب قاسية. وقد أدى ذلك إلى تضخم تدريجي انفجر على شكل حركات تحرر(انتفاضات) تحت راية الخوارج والشيعة، وحركات ذات محتوى اجتماعي في كافة الولايات. وسواء كان هؤلاء السكان عرباً أو غير عرب، مثلت هذه الحركات هزات زعزعت أسس الدولة، وهكذا لم يكن صعباً للأرستقراطية الإسلامية في حزبها العباسي من وضع نهاية للدولة الأموية الضعيفة في النصف الأول من القرن الثامن، وقد أسهم أبو مسلم الخراساني في الثورة المعادية للأمويين وحدثت مذابح ضد الأمويين ولكن هذه النتيجة لم تمثل مكسباً للشيعة الذي كانوا متحالفين مع الحركة العباسية.

الفصل الرابع

ازدهار الإمبراطورية العباسية 750 م وحتى أواسط القرن التاسع

1. ذروة السيادة العباسية.
2. الإدارة.
3. الحياة الاجتماعية والاقتصادية.
4. تطور التعاليم الإسلامية.
5. ازدهار العلوم والثقافة.

إجمالي الفصل

بلغ التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي للاقطار العربية في المراحل الأولى من العهد العباسي إلى ذروة التطور ومن خلال إجراء مقارنة مع ما كانت الدول الأوربية قد بلغته في مختلف الاتجاهات، فإننا نلاحظ ظواهر عديدة تسوغ لنا أن نقرر بأن نظاماً إقطاعيا على النمط الشرقي قد تسيد في تلك المرحلة.

ويمثل ضرورة التوصل إلى نظم ري الأساس لهذه الاتجاهات بالدرجة الأولى، إذ بامكانها أن تخدم حقاً شروطاً أكثر فأكثر للملكية (الاسمية) الشكلية للدولة باعتبار أن الخلافة متمثلة في شخص الخليفة الذي يعد المالك النهائي للأرض. وقد شخص كارل ماركس وفردريك أنجلز هذه الحقيقة على أنها " مفتاح الشرق بأسره " (1)

ومن هذه الحقيقة نتجت مجموعة من ظواهر التطور المميزة في نظام الخلافة. فمن خلال دور الدولة باعتبارها المالك الأعلى للأرض والوجود الضروري المرتبط به المنشأة أو المرفق المركزي، لذلك فقد نجم عن ذلك العديد من الأدوات الحكومية أداة للسلطة في المجتمع الشرقي القديم في حالة اعتبار أن البناء العباسي للدولة هو أساس التقاليد الساسانية.

ففي الزراعة، انهار في البدء ريع الإقطاع والضرائب عند الفلاحين، مما ألحق الضرر للدولة. وفقط بعد تصاعد توزيع امتيازات الأراضي (حقوق استغلال الأرض) إلى الكثير من كبار الموظفين والعسكريين وأدى نظام ضريبة الأرض(حق الاستثمار المؤقت) إلى انفصال هذين الشكلين من الضريبة ومباشرة إلى اشتداد اتجاهات انفصالية عند الإقطاعيين.

وكان هناك تطور في المدن الكبرى كمقر للإدارات المركزية أو المحلية، كمركز لإنتاج السلع وغالباً للتجارة البعيدة المدى وكانت هذه الخصائص والشروط الشرقية, وكانت المدينة في الدولة العباسية تعني بمقياس كبير استمرار للتطور الحاصل قبل الإقطاعية. والحقيقة أن المدينة في زمن الخلافة كانت قائمة على أرض الدولة، وإن سكانها كانوا متساوون قانوناً مع سكان المناطق الزراعية، وكان ذلك يعني أيضاً، أن عناصر أخرى من الأهمية الجوهرية تستحق الإيضاح فلا توجد هناك بورجوازية في المدن كطبقة في النضال ضد سلطات الإقطاعيين.

---

1. Marx – Engels : Werke, Bd28, Berlin . 1963

أولاً: ذروة السيادة العباسية

كان التطور الاجتماعي في الأقطار العربية في بداية الخلافة العباسية، يمثل طابع الدولة الإقطاعية المحلية على النمط الشرقي. وهنا أمر يستحق الملاحظة هو أن العباسيين لم يتسنَ لهم (إلا لفترة قصيرة جداً) أن يمدوا سلطتهم على كافة المناطق التي كانت تابعة للإمبراطورية الأموية وإن كانت إسبانيا، ومراكش، وإفريقيا، قد حرمت على الدولة العباسية، وهكذا فإن سلطة العباسيين كان يشمل في أفضل عهودهم: مصر، سوريا، فلسطين، شبه الجزيرة العربية، العراق وإيران ومناطق أواسط آسيا وما وراء القوقاز.

وكانت "الدولة الجديدة " كما يطلق عليها خصوم العباسيين متأثرة بنفوذ وتأثير الثقافة الساسانية القديمة، وقد أخذ العباسيون الكثير من مراسم البلاط الساساني ومنها وظيفة مدير تشريفات البلاط، وكذلك الجلاد، وهو الشخصية المهمة في حكايات ألف ليلة وليلة، وفلكي البلاط، والكثير مما لم يكن معروفاً في العصر الأموي وإجراءات أخرى مثل لقب خليفة الله، أو ظل الله على الأرض وهذه تعني في مسعاهم أن تكون الحواجز بينهم وبين الشعب غير قابلة للتجاوز، وإظهار قربتهم إلى الله بكل وضوح.

والخليفة الأول للأسرة الحاكمة الجديدة، أبو العباس السفاح، وأخوه أبو جعفر المنصور754 - 775 هو أحد أهم الخلفاء العباسيين كان قد عين أبو مسلم حاكماً على خراسان وعمه عبد الله في سوريا الذي كان سعى إلى الخلافة لنفسه. وبعد أن حبس عبد الله، فإن الخليفة تحول ضد أبو مسلم لنفوذه وشعبيته بين الناس لا سيما في الولايات الإيرانية مما شكل خطورة على شخصية ونفوذ الخليفة نفسه. وبسبب جماهيرية أبي مسلم وذكاؤه السياسي والتي بفضلها استولى العباسيون على السلطة أقدم العباسيون على اغتياله، فأثار مقتله موجة من الاستياء ذي البواعث الاجتماعية والدينية بين أتباعه في إيران وأجزاء أخرى من الإمبراطورية، فتجددت أعمال التمرد والعصيان بين الجماهير التي قمعت بشكل دموي.

ثم وضع أبو جعفر في عام 762، حجر الأساس لعاصمة جديدة، هي مدينة السلام على أرض القرية القديمة بغداد بالقرب من مقر الإقامة الساسانية القديمة قطيسفون التي تتمتع بموقع جغرافي مناسب لوقوعها على طرق القوافل فأمر الخليفة بناءها ووفر الإمكانات للمشروع، وقد فعل ذلك من أجل أن يبتعد بالعاصمة عن جنوب العراق حيث كان الخوارج والشيعة يؤثرون في سكانها.

وتشير المصادر، أن بناء مدينة بغداد استغرق 4 سنوات واستخدم في بنائها مئة ألف عامل، ولا يضاهي جمالها وسعتها وأهميتها في ذلك الوقت سوى مدينة القسطنطينية التي كانت تنافسها. وشيد الخليفة المنصور بلاطاً جديداً وعهد بسلطات الموظفين إلى إيرانيين واشتهرت عائلة البرامكة الذين كانت لهم صلاتهم الوثيقة بكبار ملاكي الأرض الإيرانيين. وارتبط اسم عائلة البرامكة بمنصب الوزير، وهو لقب عربي قديم وكانت لهم علاقاتهم الوثيقة بالخلفاء.

ثم تولى الخلافة المهدي، وقد حاول المهدي الذي قمع الحركات الاجتماعية مواصلة العمل بالتقاليد العسكرية الأموية، و للمرة الأخيرة ظهر عام 782 جيش عربي بقيادة هارون (هارون هو ابن المهدي الذي كان قد تلقى التربية على يد البرامكة) على ضفاف البسفور، وأرغم

البيزنطيين على دفع الضريبة للخلافة، واستمر خلفاء المهدي بتوجيه حملات النهب في الأراضي البيزنطية، لكن دون تحقيق الحسم أو نجاحات دائمة ثابتة.

وكان الخليفة هارون الرشيد 786- 809، معاصراً للحاكم الأوربي كارل الكبير(ربما شارلمان في المصادر العربية القديمة ـ المترجم) وهو معروف في أوربا جيداً، قد أسس شهرته بناء على تقارير التجار الأوربيين الذين وصفوا له فخامة بلاط الرشيد في بغداد، واشتهر الرشيد بعلاقاته مع كارل الكبير وهو أمر يرد فقط في التقارير الأوربية. كما تردنا أيضاً الأخبار عن هذا الخليفة في روايات ألف ليلة وليلة التي تنطلق بواعثها من أسس عربية وهندية وفارسية، ولم تنشر إلا في القرن الرابع عشر والخامس عشر في مصر وكان هارون الرشيد حاكماً جائراً يغادر بغداد إلى مقره الصيفي خوفاً من إرادة الشعب.

ومن الأنباء المهمة أيضاً القضاء على وظائف البرامكة وقد تناقلت الأنباء عن قضية البرامكة، ولكن الحقيقة أن البرامكة كان سلطانهم ونفوذهم قد بلغ مكانة كبيرة وكذلك قدراتهم المالية، فشعر الخليفة أن في ذلك تهديداً للخلافة. ثم قرر الرشيد (وربما تحسباً لاحتمالات حدوث انشقاقات في الخلافة) تقسيم الإمبراطورية بين ولديه الأمين 809 - 813 ووالدته عربية، والمأمون وأمه جارية فارسية. فجعل الأمين على الولايات العربية والمأمون على الولايات الفارسية.

وانتهى الصراع الذي ابتدأ بين الأخوة بعد وفاة الخليفة الرشيد مباشرة عام 813 لصالح حاكم خراسان(المأمون). ومن المثير تاريخياً محاولة الأمين كسب الصراع باستخدامه عصابة العيارين المسلحة في بغداد وفكر المأمون بنقل العاصمة من بغداد إلى مرو في خراسان كما حاول أن يهدّئ الشيعة وذلك بتسمية أحد المنحدرين من صلب علي إلى جانبه وقد بلغ استنكار البغداديين لذلك حداً بحيث فكروا باستبدال الخليفة. وفي عام 819 استطاع المأمون إحراز النصر النهائي فيما قُتل أو توفي المرشح العلوي.

ويمكن الإقرار بأن فترة حكم المأمون متنوعة في أهميتها فقد شهدت تلك المرحلة انتفاضات شعبية كبيرة ومنظمة. كما شهدت تأسيس حرس من العبيد الأتراك الذين تحولوا إلى عنصر مهم في السلطة وكذلك شهدت ازدهاراً في الاقتصاد وفي الإدارة والعلوم والثقافة. وخلال صراع الأمين والمأمون اندلعت في مصر انتفاضة تعبر عن الاستياء من سلوك القوات العربية، وسرعان ما قادتها فئات شعبية وكان سبب ذلك هو نهوض الأقباط والفلاحين بدرجة أساسية ضد نظام الضرائب. وفي عامي 831 ـ 32 تصدت قوات المأمون للانتفاضة وضربتها، وأُعدم الأقباط المساهمون فيها وسيق أطفالهم وأزواجهم عبيداً، ووُزعت أراضيهم وقراهم على المسلمين.

وفي سوريا نهض السفيانيون، وهم تيار كان يناضل من أجل عائلة بني أمية بدعم من قبائل كلب وطرحت قبيلة قيس مرشحاً آخر، وتجدد الصراع الدموي القبلي ذو الآثار المهلكة على الصعيد الاقتصادي في ذلك الجزء من البلاد وفي عام 820 - 835 هبت القبائل التي يعود أصلها إلى الهند ومنها قبيلة غات Gat المتجولة مع الغجر في جنوب العراق. وكان سبب هذه الاضطرابات غير معروف بالضبط مما اضطر الخليفة عام 835 إعلان العفو العام عن المشاركين وإبعاد قبيلة غات عن العراق.

أما الحركة التي شكلت الخطورة الأكبر على الخلافة، وكانت على درجة من التنظيم، هي انتفاضة شعبية برداء ديني تلك التي حدثت في إيران، وفي أواسط آسيا وما وراء القوقاز كانت

قد هبت منذ استلام العباسيون السلطة، ولكن الأخبار تشير عن انتفاضة الفلاحين بقيادة تسوروازترير سومبات ماجا Zoroastrier Zumbat Mage عام 755، وكذلك سكان موكانا Muqnna فيما وراء أرمينيا 776 - 783، وأخيراً انتفاضة الفلاحين بقيادة بابك الخرمي 815 - 16 حتى عام 837 التي بدأت في أذربيجان ثم اتسعت فيما بعد إلى أبعد من ذلك، وساهم فيها فئات عديدة ضد الخليفة العربي.

وكان الانتصار الذي حققته قوات المأمون الخراسانية عام 813 يعني في ذلك الوقت بداية توقف نهائي لمحاربي البدو من القبائل العربية. فالجيوش العباسية كانت قد طورت التكنيك الحربي لقواتها إذ تطورت أدوات الحصار عما كانت عليه، ولعب مقاتلوا القبائل الفرسان المسلحين تسليحاً قوياً في المراحل اللاحقة دوراً في المعارك المحلية كما كانوا يساهمون في الغزوات الحدودية مع البيزنطيين. وفي عهد الخليفة المعتصم 833 - 842 والذي يعد من الخلفاء الأقوياء، بدأ بتشكيل وحدات الحرس الخاص للخليفة من أتراك آسيا الوسطى الذين استخدموا لمعادلة التوازن مع القوات الخرسانية كقوات مخلصة للخليفة (بسبب أن ليس لهؤلاء الحراس صلات مع السكان في العراق) لكنهم سرعان ما أفزعوا سكان بغداد فقرر الخليفة المعتصم الانتقال إلى سامراء التي تبعد حوالي مئة كيلومتر شمالي بغداد مع حرسه للإقامة فيها، وبقيت هذه المدينة حوالي 50 عاماً مقراً للخلافة وما تزال آثارها دالة حتى اليوم على عصر الخلافة العباسية.

ومع ظهور الحرس التركي، إذ أصبح أمرهم يثير الهواجس في أن يكونوا كبريتوري العصر الروماني (*)، وبالفعل فقد تمكنوا من كسب الخليفة بالقوة والهيمنة على الخلافة، وما لذلك من علاقة بكونهم قوة تنامت بفعل تنامي الإقطاع حيث بدأ في القرن التاسع تمزق حقيقي للسلطة السياسية للخلافة التي أصبحت كالكرة يلعب بها الجنود المرتزقة الذين استطاعوا أن يشكلوا في هذا الظرف المناسب المكانة قوة إقطاعية محلية في العراق على الرغم من أنهم كانوا في مناطق السنة المسلمين ولفترة طويلة، يحوزون على المكانة والنفوذ الديني.

(*) Pratorian : البريتوريون هم حرس القيصر الخاص في العصر الروماني كان لهم النفوذ الأكبر في خلع الملوك وتتويجهم . المترجم

ثانياً : الإدارة

أدى انتشار التقاليد الساسانية الذي امتد ليشمل مفردات في نظام الإدارة، إلى ازدهار الإدارة العباسية المركزية وإلى نظام متطور بدرجة عالية في هذه الإمبراطورية الواسعة الأرجاء التي تضم بلداناً كثيرة وفي القمة منها يربض نظام الدولة الإقطاعي ـ الثيوقراطي، والخليفة الذي كان (شكلياً) يحوز السلطات الروحية والدنيوية حسب القواعد والقوانين الإسلامية(الشريعة).

وكان بإمكان الخليفة أن يحول جزءاً من سلطاته الدنيوية إلى الوزير والقانونية منها إلى القاضي وسلطاته العسكرية إلى الأمير(الجنرال) ولكنه يبقى شكلياً القائد الأعلى لجميع هذه الفعاليات.
وكانت وظيفة الوزير جديدة بالمقابل إلى الإدارة الأموية التي يمكن وصفها بالإدارة المركزية للفعاليات الحكومية. وكانت قيادة الإدارة في مفردات القضايا الاختصاصية بيد رؤساء الدوائر المختلفة في الديوان. وأهم تلك الدوائر: دائرة الضرائب والمالية(ديوان الخراج)، ديوان الجيش، وديوان الذمم. أما ديوان الخليفة نفسه فكان يسمى بديوان الرسائل أو ديوان التقوى، وهذا الأخير يعمل في بريد الدولة ويرأسه في نفس الوقت مسؤول المعلومات والتجسس، وبذلك فهو يشغل المنصب الأهم بين الوظائف وهو الذي يراسل(وفي بعض الأحيان بواسطة الحمام الزاجل) ويستلم بريد الولايات وأخبارها السياسية والاقتصادية، وهو الذي يطلع على أنباء حالة الأمن في الولايات أو الاتجاهات الانفصالية عند بعض الحكام.

وكان مدير قسم ديوان الشرطة مسؤول عن القضاء في الجرائم وتنفيذ العقوبات والحراسات وهو بنفس الوقت رئيس حرس حماية الخليفة. وفي المدن، يحرص شاهد السوق وسُمي لاحقاً (المحتسب) في الحفاظ على الهدوء والنظام والأخلاق العامة وضبط الموازين والأكيال ويأتي بمرتبة تلي القاضي ويمثل السلطة الرئيسية، فهو بذلك ليس موظفاً اعتيادياً والمحاكم حسب الحقوق الإسلامية هي(المدني ـ الزواج ـ الجرائم) وصلاحياتها بيد القاضي. وقد وُجد في بغداد في زمن هارون الرشيد منصب قاضي القضاة، وهذه الوظيفة مثلت اختصاص التعاليم العدلية العربية(الفقه) ويمثل المواطنون المحترمون شهوداً في القضايا النظامية خلال سير المحاكمة.

وقد اختصت بعض العوائل في مهنة القضاء، وإلى جانب ذلك وجد في المصطلحات القانونية وأحياناً في المناداة والمرافعة محاكم المظالم وهي على الأغلب بإدارة الوزير كممثل للخليفة، على طريقة البيروقراطية الإيرانية. وقد انعكست في المقاييس المصغرة هيكلية هذه الإدارة في الولايات أيضا وكان يقف على قمتها الأمير في العهود العباسية الأولى وهو حاكم الولاية ويعيّن على الأغلب بنصيحة من الوزير، وهناك أيضاً (بشكل مستقل عن أمير الولاية، على الأقل في العهود العباسية الأولى) رئيس الشؤون المالية الأعلى(العامل) وهذا كان مسؤولاً تجاه بيت المال في بغداد عن جباية الضرائب ومنها تستقطع احتياجات الولاية، وبمقدار ما يكون موقفه قوياً في ولايته مقابل ضعف القوة المركزية فإنه يسيطر على أموال ولايته ويتحكم في تعين القضاة، وتلك شروط مهمة ومقدمات لفصل الولاية عن بلاط بغداد في المراحل اللاحقة لضعف الدولة.

وحاول الخلفاء الجدد وكذلك العديد من الوزراء مواجهة هذه الاتجاهات في تزايد نفوذ أمراء الولايات من خلال موظفين جدد ومصادرة الأموال الوفيرة للعوائل المتنفذة في الوظائف سابقاً، وعلى هذا النحو فعندما ألغى نفوذ البرامكة صودرت منهم أموال بلغ مقدارها 30,676,000 مليون دينار نقداً بالإضافة للعقارات.

ثالثاً : الحياة الاجتماعية والاقتصادية

كان الخليفة يقف على قمة السلطة في الإمبراطورية العباسية العظمى. وكانت الأعداد الغفيرة من بني هاشم قد حصلوا على إعفاء من دفع الضرائب وكانوا ينالون الرواتب ولكن السلطة الحقيقية كانت بيد فئة متعددة الجنسيات وهي مؤلفة من كبار الموظفين، وكبار ملاكي الأرض، كبار التجار، الصيارفة ورجال المال، والمتنفذين دينياً وذوي الاعتبارات الخاصة. وأيضاً، كبار ضباط الجيش والمرتزقة من القوات، كما أن فئة متوسطة تكونت من صغار ملاكي الأرض والحرفيين والموظفين المتواضعين من رجال الدين والدنيا. فيما كان الجزء الأعظم من المواطنين هم الفلاحون المستغلون وأكثرهم لم يكن يمتلك الأرض، أو هو مستأجر تحت ضغط الإيجار ودفع الضرائب وينتمي كذلك إلى هذه الفئة أعداد كبيرة ممن يعملون بأجور يومية في الورش والمناجم والتجارة وفقراء المدن الذين لم يكن لهم مورد دائم.

وكان يقع ضمن هذه الفئات نظرياً، أهل الذمة(المسيحيون، الزرادشتيون(عبدة النار)، اليهود ...الخ) ومكانتهم هي أبعد من قدراتهم وفعالياتهم، وكانوا موجودين في كافة الصنوف والفئات الاجتماعية. ولكن هذه الأقليات الدينية كانت تُلاحَق بشدة عندما تهدد سلطة الدولة، وعندما يكون هؤلاء ممثلين لفئات مضطهدة ويمثلون الاحتجاج الاجتماعي وأفكار الزندقة والبدع الدينية. وهناك استثناء مثله الخليفة الفاطمي(الحكيم) في مصر في تعامله مع المسيحيين سجله له المؤرخون.

ومثّل العبيد قاع الهرم الاجتماعي ومع توقف الحملات الحربية تحولوا إلى سلعة تجارية بدلاً من غنائم الحرب، لا سيما في المناطق الإفريقية شبه الصحراوية، وكذلك العبيد الذين كانت القبائل التركية تأتي بهم من أواسط آسيا ومن القبائل السلافية في شرق أوربا. وكانوا يعملون في البيوت أو يُستخدمون في وحدات حراسة الخليفة وكذلك في المناجم وأعمال الري. وكان إطلاق حريتهم مختلفاً فإلى جانب انعدام الحقوق بصفة تامة، كان هناك بعض الجواري اللاتي كن يعاملن كعشيقات ذوات حظوة من دون زواج رسمي أنجبن أولاداً أحرار، وكان العبيد يحررون بعد وفاة السيد(صاحب العبيد) من الذين كانوا في خدمته ومن هؤلاء برز عدد من القادة العسكريين وموظفي الدولة الكبار، وبذلك كان يتقدم اجتماعياً حتى مستوى الحكام.

ومثل تطور الاقتصاد الطبيعي في الأراضي الزراعية، وكذلك العملية الدائرة في مدن الولايات الفقيرة لا سيما الكبيرة منها والتي تضم عناصر قوية في إنتاج السلع مثل الأساس الاقتصادي للإمبراطورية العباسية، طورت نفسها باتجاهات معينة في الحياة الاقتصادية.

ومثّلت الضرائب المصدر الرئيسي لمدخول الدولة إلى جانب الضرائب المفروضة على الفرد(الذمة) كانت هناك الضرائب على ورشات العمل في المدن وضريبة التجارة وضريبة الطرق والقسم الفائض من الزراعة. وقد ارتبطت إنتاجية الاقتصاد الزراعي في الشرق الأدنى بحالة الري وأساليبه وفي الصيانة والتعمير، الأمر الذي له علاقة بالاستقرار السياسي(كما كان الأمر في بدايات العصر العباسي)، وبحالة خزانة الدولة وبحكام الولايات(الأمراء). كما ألحق ملاكوا الأرض الكبار الأضرار (أنظمة الري) بعدد كبير منها فإن انهيار هذه المشاريع لم تكن تعني تحطم أعداد كبيرة من الفلاحين فحسب، بل وأيضاً الخسائر المالية والسياسية الكبيرة لأصحاب السلطة.

وفي تحديد قانوني دقيق للملكية العليا للدولة في شخص الخليفة في الأرض، كما هو الحال في عهد بني أمية، شهد العهد العباسي لمختلف أشكال ملكية الأرض التي كانت ترتبط شيئاً فشيئاً بنظام ضرائب دقيق التنظيم.(1)

وكان العرب المسلمون يدفعون ضريبة العشر كما كان الرسول محمد(ص) قد وصفها بالزكاة، وكانت هذه الأملاك متساوية ضريبياً مع القطاعي وذلك يعني أن أراضي الدولة سوافي توزع على كبار موظفي الدولة من ذوي النفوذ ولزمن غير محدد. ولكن نظرياً يمكن استعادة هذه الأراضي دائماً. وكلا النوعين من الملكية كانت تدار من ديوان أراضي الدولة(ديوان الداية)، أما الأراضي التي كانت معفاة من الضرائب فهي: أراضي الأوقاف والأراضي المخصصة للأغراض الدينية أو المؤسسات الحكومية (مثل الجوامع، المدارس، المستشفيات، ودور مسافري القوافل) من أجل الحيلولة دون وقوعها بأيدي قبضة من السادة المتحكمين.

وبقي القسم الأعظم من الأراضي بيد الدولة التي منحت حق التصرف بها إلى الموالي وأهل الذمة وللمسلمين العرب. وكانت ضريبة الخراج تُجبى إما نقداً أو بالمحاصيل والمنتجات. وفي بعض الأحيان بحسب الحاصل أو بحسب مساحة القطعة.
و تصاعد موجة الاستياء للفلاحين حول ارتفاع الضرائب أرغم الخليفة المأمون عام 820 بأن يجعل ضريبة الخراج ثلثي الناتج في حده الأقصى وهنا فإن كبار ملاكي الأراضي وعلى العكس من إقطاعي أوربا، كانوا يسكنون المدن عادة، حيث مركز الإدارة والسلطة ولا يمارسون على الأغلب أي نشاط اقتصادي آخر، وبذلك فإن ريع الإقطاع في الدولة العباسية كان على شكل ريع الإنتاج، وفي أحوال معينة ريع المال ونادراً ما كان يلعب ريع العمل دوراً.

وكان الكثير من موظفي ضرائب الدولة على درجة من الفساد بل ويحرصون على الاستزادة منها من خلال استغلال الفروقات التي كانت جارية بين السنة القمرية الإسلامية(بعد أن يستحق ضريبة الفرد)، والسنة الشمسية(بعد أن تحسب ضريبة الخراج) وكانت كلتا الضريبتين غالباً ما تخضعان للزيادة مرتين في السنة، وبنتيجة سوء الأحوال المالية للدولة وتنامي قوى الجذب المركزية التي دخلت في نظام جمع الضرائب سرعان ما تحولت إلى أيدي المتنفذين من حكام الولايات أو كبار ملاكي الأراضي الذين كان عليهم أن يدفعوا مبلغاً إجمالياً شاملاً فحسب.

وفي بداية القرن العاشر لم يعد أخيراً بمقدور خزانة الدولة التي كانت تدفع 50% من ميزانية الجيش وكان جندي المشاة العادي يستلم ثلاثة أضعاف أجر العامل اليدوي، أما الفارس فكان يستلم ستة أضعاف ذلك. وبعد توزيع ما تبقى من أراضي الدولة(القطاعيات) فقد أخذ كبار الضباط أيضاً الامتيازات من نظام الضرائب(أراضي القطاعيات). ولاحقاً أصبح هؤلاء الضباط جزءاً من كبار ملاكي الأراضي واندمجوا مع المستأجرين وكبار ملاكي الأراضي وكان هذا التطور قد أدى لاحقاً إلى عسكرة القطاعيات في العهد البويهي والسلجوقي إلى ذروته. ولا يمكن مقارنة القطاعيات بشكل تام مع النظام الإقطاعي الأوربي إذ استمرت الدولة هنا (في النظام الشرقي) بسيادتها على الأرض، ولو شكلياً، وبإمكانها سحبها من مستغليها كما هي غير خاضعة للوراثة ولا تشملها الحصانات الممنوحة للإقطاعيين، وبالتالي فقد كان بإمكان أصحاب هذه الأراضي تبادلها عندما يهبط الدخل نتيجة لتقادم الاستغلال.

ولا ينبغي للملكيات المعقدة، وعلاقات الملكية بالأرض أن تُنسي حقيقة أن الأغلبية العظمى من الفلاحين لم تكن تمتلك الأرض ومرغمين على الاستئجار، وعادة لا يستلم الفلاح المستأجر أكثر من خمس الحاصل ومع تراكم ديون المستأجر لصاحب الأرض تتطور علاقة من شأنها أن تعمق من الارتباط بالأرض بما يشبه نظام الاستعباد في القرون الوسطى الأوربية.

وتمثل الإنتاج الرئيسي للريف: الحنطة، الرز، الشعير، التمور، الزيتون، الكتان، ولاحقاً القطن. وكان الفلاحون المستأجرون والفقراء بحاجة إلى هذه المنتجات في معيشتهم، ومن أجل دفع الضريبة العينية من المنتجات وكان كبار مالكي الأرض فقط في وضع يمكّنهم من التعامل مع أسواق المدينة للحصول على السلع والبضائع التجارية العالية الجودة.

وكانت المدن العباسية غالباً ما تكون مزدهرة بإدارتها وبالتجارة والحرفيين من الصناعات اليدوية. ففي بغداد كان يسكن حوالي ثلاثمائة ألف نسمة وفي إجراء المقارنة فإنها كانت أكثر اكتظاظا من مدن أوربا الغربية حتى في أواسط القرون الوسطى. وغالباً ما كانت الجوامع الرئيسية تضم مدرسة ملحقة بها، كما كان هناك السوق ودار الحكم والحمام العمومي، وأمكنة للقوافل، ومستشفى. وكانت هذه تشكل ميزات وخصائص المدينة الإسلامية. وهذه المراكز تشهد تجمع القبائل المرتبطة بعلاقات عرقية في بعض الأحيان كانت منغلقة على نفسها في أحياء سكنية، ومن ذلك أن يكون لها جوامعها أو كنائسها ومدارسها وحماماتها.
وفي الاستطراد في مسألة تقسيم العمل بين الزراعة والعمل اليدوي والحرفي كان الإنتاج الحرفي في المدن تقليدياً ينصبّ في تأمين حاجات الفئات العليا وفي تأمين متطلبات التجارة البعيدة المدى.

وكان الكثير من الحرفيين يعملون في الفضة التي تستخرج من جبال هندكوش والذهب من النوبة والسودان، وأنواع مختلفة من الأحجار الكريمة التي تجلب من الأرجاء الواسعة للإمبراطورية وكذلك اللؤلؤ الذي كان يتم صيده في الخليج العربي، وإنتاج المجوهرات المزدهر الذي كان ينظر إليه في أوربا على أنه رمز لإمبراطوريات الشرق الأسطورية، كما كانت المنسوجات من أهم المنتجات التي اتسعت في عهد العباسيين وكانت مصر مركز لإنتاج الكتان في مصر السفلى وكان السجاد ينتج في كافة أرجاء الإمبراطورية ولكن أجودها كان يأتي من الولايات الإيرانية إلى جانب إنتاج الحرير في الكوفة ومقتنيات منزلية أخرى مثل المناضد والأرائك (الصوفات) والقناديل، والمزهريات، والأواني الفخارية والأدوات المطبخية التي كانت تنتج في المدن المصرية والعراقية والسورية، وكانت السيوف الدمشقية الصلبة مشهورة بصفة خاصة، وكذلك الإنتاج الدمشقي والزجاج الجيد. وقد باح أحد الصينيين عندما أُسر وسُجن عام 751، باح بأسرار صناعة الورق التي انتشرت في أرجاء إمبراطورية الخليفة وانتقلت إلى إسبانيا المسلمة ومنها إلى أوربا.

وكانت صناعة الورق حكراً على الدولة، وكان يعمل في هذا الحقل عمال بأجور وكذلك عبيد، ويتكرر الحال في دار سك العملة المعدنية ومصانع السلاح وإنتاج قماش البروكاه المقصب Tiraz من أجل حلة الخليفة أو من أجل الشخصيات المهمة وإلى جانب ذلك كان عدد كبير من الحرفيين والعمال اليدويين يعملون في المدن الإسلامية معتمدين على أنفسهم. وكانوا يقدمون في بعض الأحيان جزءاً من إنتاجهم كضريبة إلى موظفي الحكومة، وإلى التجار ليسوقوها في التجارة البعيدة المدى أو يبيعوها بأنفسهم في السوق. وهناك فرضية واسعة الانتشار بأن العصر المزدهر للخلافة شهد وجود (روابط حرفية)، تنتخب من بينها القائد الذي يمثلها أمام الدولة بمساعدة المحتسب ورجاله وربما بذلك واصلوا التقاليد البيزنطية والساسانية التي عطلت حتى القرن الخامس عشر قيام منظمة للعاملين.

كانت أقطار المشرق العربي منذ القرن الثامن تشهد نشاطاً متزايداً، وبالدرجة الأولى المدن العراقية، بسبب المستوى العالي لإنتاجهم الحرفي والوضع الجغرافي المناسب في نقطة تقاطع للتجارة بين الشرق الأقصى وأوربا، وكذلك بين الأقطار التي تضمها الخلافة, كما تجددت

التجارة الدولية البعيدة المدى وتجارة الترانزيت، فتوصل عدد من التجار المسلمين وبدرجة غير بسيطة عدد من التجار اليهود إلى تأسيس تجارة عبر موانئ الخليج العربي وموانئ البحر الأحمر، وكذلك عدن وإلى الهند وسيلان، وشرقي آسيا والصين. فتاجروا مع هذه البلدان بالحرير والتوابل والمطيبات، الخشب والقصدير وسلع أخرى، وكذلك التجارة عبر الطرق البرية طرق القوافل مثل " طريق الحرير" عبر سمرقند وطشقند إلى الصين الذي كان متطوراً بدرجة عالية. وكان التجار من بيزنطة يجلبون معهم (برغم الصراع العسكري الدائم) الذهب والفضة والمواد الصيدلانية والجواري والخصيان وفنيين في مسائل الري.

أما في مناطق البحر الأسود وبحر قزوين فقد كانت التجارة مرتبطة مع خراسان وفولغا البلغارية ارتباطا وثيقاً ومنها تجارة الجلود والفرو والكهرمان حيثما كان ذلك ممكناً، وبذلك وصلت النقود العربية إلى البلاد الأسكندنافية حيث وجد منها الكثير هناك. كما شهد ميناء الإسكندرية في مصر تطوراً من أجل التجارة في البحر المتوسط، ولكن التجارة مع أوربا الغربية لم يكن لها صفة الاستمرار والثبات، واستمرت كذلك لفترة طويلة.

وكان التجار يجلبون العبيد وعاج الفيل وخشب الأبنوس، فيما كان التجار الكبار منهم يعقدون في أعمالهم البعيدة الشراكات بصفة مؤقتة وكانوا يجمعون الأرباح ويستخدمونها في أغلب الأحيان في شراء الأراضي والبيوت، وفي هذه الحالة كانوا على صلة جيدة بكبار ملاكي الأراضي الذين ساهموا بدورهم في الأعمال التجارية ولا سيما أثرياء أهل الذمة من المسيحيين واليهود، وقد طور بعض كبار تجار المسلمين وصرافي النقود وموظفي المالية الحكوميين أعمالهم باعتبار أن القرآن قد حرّم بعبقرية الربا، إذ أصبحوا مصرفيين وينجزون أعمال وصفقات تجارية بعيدة المدى بواسطة الصكوك أو رسائل الاعتماد التي كانت معروفة منذ القرن التاسع وقد رأت الدولة نفسها ملزمة بإملاء خزائنها، وهي مضطرة إلى التعاون مع الصيارفة والتجار.

وهكذا كانت المدن الكبرى في الخلافة ليست فقط مدناً عسكرية ـ إدارية، بل وأيضاً مراكزاً اقتصادية وثقافية مهمة وقد لعبت من خلال تطور مهم وعالي المستوى للصناعات الحرفية والتجارة دوراً مهماً في علاقات (سلعة ـ نقود) ولكن أعاقت من جهة أخرى المساواة القانونية للسكان من الدولة والبلاد وكذلك امتداد شامل ثابت للدولة الإسلامية في مجال السلطة المركزية اللاحقة أكثر فأكثر إلى سلطة شخصية محلية Lokal Authority (خليفة ـ موظفين ـ سلطة عسكرية ـ ملاك أراضي ـ الشخصيات الروحية ـ الأرستقراطية) شكل دولة المواطنة، كطبقة تناضل من أجل إدارة الدول بنفسها وهذه الاتجاهات كانت تشتد بصفة مستمرة(مع بعض الاستثناءات) على يد العسكريين وتنمو لدى القادة العسكريين.

رابعاً : تطور التعاليم الإسلامية

كان التطور السريع إلى إقطاعية شرقية كالعهد العباسي وكذلك ازدهار الاقتصاد والعلوم والثقافة متلازماً مع النهوض الاجتماعي والسياسي للعناصر الغير عربية، الموالي وأهل الذمة. وبنفس الوقت تنامى نفوذ أديان متعددة كانت قد تجذرت في هذه المناطق منذ عهود بعيدة. وكانت التعاليم الدينية بسيطة إلى الآن، لكن لم يعد بوسع هذه الأفكار البسيطة من التعامل مع الحياة بالإضافة إلى التيارات المختلفة التي كانت تشتد داخل الإسلام، وتمنح انطباعاً عن احتجاج جماهيري اجتماعي وأجهد الخلفاء العباسيون وخصومهم بقيادة الوجهاء الدينيون أنفسهم في أن يجعلوه ملائماً مع الظروف والشروط الاجتماعية المتغيرة من خلال بناء تعاليم دينية عامة تكون الرباط الوثيق بالخلافة العباسية. وكان في إعادة بناء مكة والمدينة وتنظيم عملية الحج السنوية في العراق، وظواهر أخرى متشددة ومتعصبة التي كانت قد بدأت تظهر ومنها تأسيس المدارس الفقهية الإسلامية السنية (في الأصل، مذهب مكتوبة باللغة العربية بحروف لاتينية ـ المترجم) الأساس في تنظيم القضاء وفي تنظيم الأحاديث وكذلك في خلق العقائدية الإسلامية الموحدة.

وفي البداية مثّل القرآن والسنة المصدرين الوحيدين للفقه الإسلامي، والتي لم تكن كافية حيال تنامي الضرورة والحاجة إلى الحسم في القضايا المهمة المدنية منها والجنائية(الجرائم). كما كانت غير كافية في الحالات السياسية أيضاً، لذلك فقد جرى إكمالها بمسألتين رئيسيتين: القياس والإجماع، التي غالباً ما كان يتم التفاهم بهما بين الفقهاء، في حالة إن لم يكن في الماضي الإسلامي شيئاً مماثلاً. وهذه المبادئ الأربعة تشكل القواعد في الفقه الإسلامي للمذاهب السنية الأربعة في العهد العباسي المبكر: المذهب الحنفي (المدرسة المتسامحة نسبياً) نسبة إلى أبو حنيفة 699- 767، و المذهب المالكي (الاتجاه المحافظ) نسبة إلى مالك بن أنس 715 - 795، والمذهب الشافعي نسبة إلى محمد بن أدريس الشافعي 767 - 820 والمذهب الحنبلي نسبة إلى ابن حنبل 780 - 855 وبعد أن تم تأسيس هذه المذاهب الفقهية وتم الاعتراف بها قانوناً وأخذوا بمبدأ الاجتهاد وذلك يعني الاستطراد بتفسير القرآن والسنة وفيما له فاعلية وتأثير مع العناصر الأخرى في حقبة زمنية طويلة لنظام الفقه الإسلامي والحيلولة دون جموده.

وإلى جانب ذلك فقد ثبت سريعاً أن من الضروري التأكد من الأحاديث واختبار صحتها وتنظيمها. فقد تشكلت اتجاهات بأن الأطراف في اختلافها على القضايا السياسية والاجتماعية والدينية اختلفت سواء بشكل حقيقي أو مختلق على أحاديث الرسول وتمسكت بمواقفها ونظّم البخاري 810 - 870، وهو فارسي، في السلسلة المتوارثة(الإسناد) ستمائة ألف حديث للرسول قد خضعت لاختبارات شديدة ومنها تم انتخاب 7275 حديثاً له قيمة عالية في العالم الإسلامي، مما جمعه الشيخ البخاري التي لها صفة الصحيح المطلق. وإلى جانب ذلك هناك خمس مجموعات أخرى، الصحيح لمسلم (المتوفى 875) والسنّة لابن ماجد(المتوفى سنة 886)، والجامع للترمذي (المتوفى عام 892) والسنّة لأبو داؤد 817 - 889، والسنّة للنسائي (المتوفى عام 915) اعتبرت صحيحة.

وفي مساعي الحفاظ والدفاع عن التعاليم الإسلامية ضد مختلف الأديان الغربية وتأثيراتها(وبالدرجة الأولى تأثيرات العقيدة الثنوية المانوية Manichaean، وفي الدفاع عن الوحدة السياسية للخلافة، والانتعاش الاقتصادي والعلوم والثقافة المرتبطة مع تنامي الحقوق الروحية لتعدد الشعوب والعقائد وقد اكتسب التيار العقلي اللاهوتي(المعتزلة)أهمية فائقة في القرن التاسع عشر .

وتعتمد هذه المدرسة على حكمه وعقل الإنسان وخياراته الحرة مع المسؤولية الأخلاقية في أفعاله وهي تستند بمساحة كبيرة على الأفكار الهيلينية. وكانت الموضوعة العقلانية Theme هي قضية الخلق الغرض الرئيسي في الصراع مع المسلمين المتعصبين أي أن القرآن ليس موجوداً من الأزل، وكاد المعتزلة أن يبلغوا مرتبة المذهب الرسمي للدولة في عهد الخليفة المأمون.

ولكن تصفية المعتزلة فيما بعد (فيما سميت بالمحنة) جرت بنفس التشدد والصرامة كما جرى ذلك لأنصارهم من قبل التيار المتشدد في عهد الخليفة المتوكل 847 - 861، وحاول هذا الخليفة أن يستغل نفوذ التيار المتشدد على الناس المتدينين من أجل تقوية نفوذ الخلافة التي كانت قد بدأت بالأفول. وكان تاريخ انتشار المعتزلة مترافقاً مع ازدهار علمي وثقافي لكن ليس بدون آثار مسيرة التطور العقائدية الإسلامية والمتشدد الديني الأشعري 873 ـ 936 الذي قاد المعتزلة العقلانية بشكل منهجي إلى عقائدية في الإسلام، كان في الواقع مؤسساً لعلم الكلام. وأطلقت هذه اللاهوتية الآن وبصورة حاسمة علوم الفقه وممثليها حددوا أنفسهم في دعم النظام القائم ودون التدخل المباشر في الشؤون السياسية.

ودخل التيار الصوفي في القرن التاسع والعاشر إلى الإسلام(ربما اكتسب اسم الصوفية لأن أتباعه كانوا يرتدون جبة من الصوف) لا سيما في المدن بين الفقراء، كما كان لهم نفوذ كبير في العراق وإيران. وقد أثرت الرهبنة المسيحية والزهد والتقشف على الصوفية فكانوا يواجهون الحياة الرغيدة للفئات العليا الثرية ويدعون إلى مواجهة السقوط والتداعي المستمر في الأخلاق والتقاليد الحميدة إنها عودة عن العالم والموت في اتحاد مع الله وبذلك فإنهم وضعوا أساساً لتطور الرهبنة المتسولة أشبه بنظام الدراويش الذين ترد أخبارهم في قصص البلدان غير الإسلامية(إيران ـ آسيا الصغرى) والذين كانوا قد لعبوا دوراً مهماً متخفين تحت أردية غامضة، ثم يظهرون بشكل عصيان أو تمرد اجتماعي أو ديني بين فئات مجتمعات المدن الفقيرة، والمثقفين بأفكار مذهب وحدة الوجود Pantheist وبأفكار مادية تجاه جمود المتشددين الإسلاميين وهكذا فقد كسبت الصوفية الزهاد والمنقطعين عن الدنيا والمؤمنين بالقضاء والقدر والقوى الغيبية(خارج حدود العقل)، منذ نهاية القرن الحادي عشر اليد الطولى. وقد حاول الغزالي 1058 - 1111الذي كان في السابق صوفياً ولم يحرم من النجاح في مسعاه من النجاح في النهاية أن يكيف العناصر الجوهرية للصوفية في نظام التعصب الإسلامي، وبذلك فإن التوجهات القديمة وإن كانت سلبية على الأغلب في الاحتجاج الاجتماعي قد غدت أكثر عمقاً.

ولكن التيار الإسلامي المتشدد المعادي للتقدم بالارتباط والعلاقة مع عوامل مختلفة، اجتماعية، اقتصادية، سياسية، انتصر وتمكن من تجميد الأبحاث العلمية والفلسفية التي كانت قد قدمت في العصر العباسي الأوسط أمثلة وإنجازات رائعة.

خامساً : ازدهار العلوم والثقافة / العصر العباسي

حفلت الفترة من القرن الثامن حتى القرن العاشر بشواهد الازدهار العالي للعلوم والثقافة في الإمبراطورية العباسية حتى بعد سقوطها السياسي وتجزئتها إلي عدة كيانات إقطاعية، ولكن تأثيراتها على التطور الثقافي في أوربا استمر حتى آخر العصور الوسطى وقد ساهمت جميع الشعوب المنظوية تحت الخلافة العباسية في هذه الفترة الثقافية الزاهرة وبالدرجة الرئيسية العرب ثم الفرس الذين ارتبطوا بحروف اللغة العربية والقسم الأعظم منهم بالسلام وكان ارتباطهم قوياً " وشعوب الشرق الأوسط وحوض البحر المتوسط الذين ورثوا وبدرجات عالية، التقاليد الثقافية للشرق والآثار الكلاسيكية وهم يحوزون تجربة روحية، الأمر الذي ساهم في تطور الثقافة في عهد الخلفاء بصرف النظر إن كانت هذه الشعوب عربية أو أنها كانت قد احتفظت بلغتها وعرقها".(1)

وكان الموالي قد سعوا من أجل المساواة السياسية والاجتماعية في عهد الخلافة كما حاول الفرس بنفس الوقت في هذا المجال من خلال الأدب الشعوبي. وبحسب أحكام القرآن "49:12ـ سورة الحجرات" وكما كان الرسول يساوي بين كافة المسلمين سواء كانوا عرباً أو غير عرب. و قد حاولوا قبل غيرهم من الموالي أن يكسروا احتكار العرب للميدان الثقافي مع أنهم في ذلك الصراع الروحي (الفرس) المسلمين منهم بالدرجة الأولى كانوا يلامسون الثقافة الإيرانية القديمة. وهنا لا يمكن الحديث عن حركة ثقافية وطنية فارسية، فقد كان الهدف الأوحد هو : المساواة في الحياة الثقافية في إطار الإسلام واستخدام اللغة العربية بفاعلية.

وكانت الشروط من أجل تحقيق تقدم أو ازدهار عام، علمي أو ثقافي، في العصور العباسية المبكرة مناسبة وكان المستوى المرتفع للزراعة ونظم الري بصورة خاصة والخزف والمصنوعات اليدوية متطوراً، وكذلك الأبعاد الهائلة التي بلغتها التجارة بعيدة المدى، أما المتطلبات الدينية كالتوجه إلى مكة أثناء الصلاة فقد تطلب هذا تطوراً في العلوم الطبيعية وبدرجة رئيسية للرياضيات وعلم الفلك، الكيمياء والجغرافية، وليس أخيراً فتحت الحياة المرفهة للفئات العليا الواسعة المجال لتقدم الطب وفن المعمار والأدب والشعر والموسيقى. كما قاد الصراع بين المدارس الدينية إلى ازدهار في الفلسفة ولكنه أنتج كما مر علينا المتشددين الإسلاميين اللاهوتيين وعلم الفقه. ووفر التعامل مع العلاقات السياسية الدينية والاجتماعية للماضي والحاضر الأساس في تطور سريع في مجالات الجغرافية والتاريخ والبناء العام للآداب وكذلك في الرد على الحركة الشعوبية وفي استمرار التطور في القواعد العربية الكلاسيكية والفلسفة.

وكانت كل المدن الكبيرة في الإمبراطورية مركزاً للحياة الروحية ولا سيما شمال بغداد، حيث شيد الخليفة المأمون عام 830 هناك بيت الحكمة كموقع مركزي لأعمال الترجمة. وكان ذلك مرتبطاً بمكتبة ضخمة كانت قد أقيمت ضمن المشروع وإلى جانب بيت الحكمة كان هناك أعداد كبيرة من المراصد والمستشفيات التي كانت بنفس الوقت مراكزاً للتعليم والبحث يعمل فيها عدد كبير طلاب العلم والأساتذة من جميع القوميات. ويساهم معلمون مشهورون في الجوامع التي كانت على الأغلب تضم المكتبات أيضاً في إلقاء المحاضرات على الأوساط المتعلمة من السكان وسرعان ما أسس أبناء الفئات الثرية منتدىً أدبياً(مجلس الأدب)، كما حازوا على المكتبات الخاصة. ومع التوسع في إنتاج الورق شهدت أعمال الكتب والمخطوطات قفزة مهمة في الاتساع إذ كانت مدينة بغداد تضم لوحدها 100 محل لبيع الكتب.

وشهد عهد الخليفة المأمون التطور الحقيقي في تفتح الثقافة العربية ـ الإسلامية، لا سيما في ميادين العلوم الطبيعية والفلسفة و في أعمال الترجمة الهندية والفارسية بالدرجة الأولى، وكذلك الأعمال اليونانية. وساهم في ذلك سوريون من المسيحيين النساطرة ويهود وأفراد من ديانات أخرى. وقام العديد من الأساتذة من بينهم الطبيب إسحاق بن حنين في أديسا، حران، أنطاكية، الإسكندرية، وفي عدد كبير من الأديرة السورية وفي بلاد النهرين بترجمة أعمال من اليونانية في العلوم الطبيعية والفلسفة مثل : كالين Galen ، هيبوقراط Hippokrates وبطليموس Ptolemaus وأويكليد Euklid وأرخميدس Archmedes وأرسطوطاليس Aristoteles وأفلاطون Platon ، وهم بذلك وضعوا الأساس في إدخال وحفظ هذا الإرث القديم في الشرق الإسلامي وبالتالي في إيصاله إلى المدرسة الأوربية في العصور الوسطى. ولم يقتصر دور الأساتذة الشرقيين في الإيصال السلبي للإرث الثقافي القديم إلى أوربا، بل ساهموا مساهمات جوهرية في تطوير تلك العلوم إلى مستوى أعلى، سواء كعلوم أو كتطبيق وأحرزوا المنجزات في مجال الطب والعلوم الصيدلية وكان قد تم إعداد الأطباء في المدن الكبرى ومنذ القرن العاشر كان عليهم اجتياز الاختبار وبذلك تم إبعاد الدجالين ممن يدّعون مهنة الطب. وقد تأسس في بغداد في عهد هارون الرشيد أول مستشفى وسرعان ما ارتفع العدد إلى 34 مستشفى في البلاد الإسلامية. وكان أحد اشهر الأطباء كيميائياً وفيلسوفاً بنفس الوقت وكان متديناً عقلانياً وهو الطبيب الفارسي الرازي (865 - 925) وعنه نقل إلى أوربا أعمالاً حول الكيمياء وأيضاً كتاباً عن الجدري والحصبة في ترجمته إلى اللاتينية عام 1565 وتقارير طبية عن الجدري في مؤلفة الرئيسي (الحاوي Al Hawi) وهو خلاصة لعلوم طبية يونانية وفارسية وهندية وعربية، ثم ظهر كتاب في أوربا على أساس أبحاث الرازي باللغة اللاتينية ترجم عام 1279، ومنذ عام 1486 صدر بعدة طبعات في أوربا.

وكان الرازي معلماً موسوعياً في العلوم، ثم ظهر ابن سينا وهو عالم في الطب والفلسفة من أصل فارسي ويسمى باللاتينية أفسينا Avicenna (980 - 1037) ومؤلفه "قانون الطب" وهو كتاب رائع في العلوم الطبية اليونانية ـ العربية، وقد صدر من الكتاب خمسة عشر طبعة لاتينية في العصور الوسطى في أوربا وكان قانون الطب كتاباً رئيسياً في علوم الطب حتى القرن السابع عشر.

وكانت مساهمة الفلكيين الشرقيين أصيلة في علوم الفلك والرياضيات كما كان هناك العديد من المراصد المجهزة بالأسطرلابات التي تعمل على مبدأ ربع الدائرة(وهو جهاز لقياس ارتفاع النجوم) مع ساعات شمسية وكرة أرضية وتوصل الفلكيون المسلمون في عهد الخليفة المأمون، إلى كروية الأرض ودوّنوا قائمة بارتفاعات النجوم المعقدة التي ثبتها العالم الخوارزمي (680 - 850) ثم جاءت عبر إسبانيا إلى أوربا حيث ترجمت في عام 1126 على اللاتينية، ومجموعة من العلماء الفلكيين الأفذاذ تابعوا ذلك حتى جاء عالم الرياضيات الفارسي والشاعر العبقري عمر الخيام (1033 - 1123) وهو الذي أنشأ أيضاً تقويماً أدق من تقويم غريغوري.

وبرز الخوارزمي الذي عمل أيضاً في الجبر ونظام الأعداد الهندي ذو الصفر(ومنها اشتق في اللغة الألمانية Ziffer أي الأرقام وفي اللغة الفرنسية Zero) وكذلك ما عرف في أوربا باللوغاريتمات العربية التي هي من عمل الخوارزمي، وبدورها وصلت إلى أوربا وترجمت أعماله إلى اللاتينية في القرن 12 وظل حتى القرن السادس عشر أهم كتاب في تدريس الرياضيات في الجامعات الأوربية.

وكانت الأعمال الرئيسية في الكيمياء هي للعالم الكبير جابر بن حيان(الكيمياء) وهو مؤلف عام 770 ويتضمن ما توصل إليه هذا العالم في الدرجة الأولى من النتائج العملية للتجارب. فهو يقدم

مساهمة مهمة في عرض مواد جديدة والحوامض والكحول Al Kohol وإلى جانب ذلك فقد تمكنوا من تحسين صناعة الميزان من أجل وزن دقيق ثم صنعوا أول جهاز للتقطير.
وهناك معارف أخرى جمعها هؤلاء الأساتذة أيضاً في علم البصريات حيث أثبت العالم ابن الهيثم(في اللاتينية الحسن Al Hazan المتوفي عام 1059) أن العين تؤدي واجبات العدسات، وأثبت ذلك علمياً.

وفي مجال الفيزياء الجغرافية نجح العالم الخوارزمي على أساس ما كان قد توصل إليه بطليموس من تخطيط الخارطة الإسلامية الأولى للعالم والأفلاك، وقد استخدمها الجغرافيون الشرقيون كأساس حتى القرن الرابع عشر.

وتطور من خلال التوسع الكبير للإمبراطورية وازدهار تجارتها البعيدة المدى إلى جانب ذلك فرعان من الأدب الجغرافي وبدرجة مهمة: الأول منها كانت كتب الأشعار العملية فهي إلى جانب كونها وصفاً طبوغرافياً(وصف طبيعة الأرض والتضاريس وأبعاد الثابت منها على الخارطة ـ المترجم) فإنها تضم أيضا وصفاً اقتصادياً واجتماعياً، وقد عاينها مؤلفوها على سبيل المثال اليعقوبي(المتوفي عام 897) في ولايات الخلافة، والثانية كانت الأعمال الجغرافية المنظمة كأعمال المقدسي(مولود عام 946) التي ظهرت في عهد الغزو المغولي الأول في المعجم الجغرافي لياقوت(1179- 1229) وكانت بذلك نقطة الذروة وتضم هذه الأعمال الكثيرة المعلومات المفصلة في مجالات التاريخ، الاجتماع والثقافة.

وعلى صعيد علم التاريخ بدأ المسلمون بكتابة السيرة التي تضم سيرة حياة الرسول محمد(ص) كابن إسحاق المتوفي عام 767، وابن هشام المتوفي عام 834 وأنباء الفتوحات الأولى للعرب: الواقدي (المتوفي عام 822) والمؤرخ البلاذري (المتوفي عام 892) مع وصف منتظم للفتوحات العربية. وكانت هذه المرحلة الجديدة في كتابة التاريخ هي مشخصة من خلال ظهور أعمال بأجزاء متعددة عن تاريخ العالم وكان مؤلفوها يكتبون تقاليد وسير متفاوتة، وعلم الإنسان وغالباً ما تكون نموذج وسياق تجميع الأحاديث، والتأكد من مصداقية الأحداث. ومن المؤرخين البارزين في هذا الاتجاه: ابن قتيبة (المتوفي عام 889)، والدينوري(المتوفي عام 895) وكذلك اليعقوبي الذي اشتهر كجغرافي أيضا، كما هناك المؤرخ المشهور وأستاذ طريقة كتابة التاريخ على حسب تسلسل السنين، الطبري (8383- 923) الذي في اطلاعه الواسع على تاريخ العالم وأسلوبه في تتبعه لأحداث التاريخ بطريقة الكرونولوجي Chronologie (كتابة التاريخ حسب تسلسلها الزمني ـ المترجم) قد أصبح مثالاً في هذا الأسلوب.

أما المسعودي "هيرودوت العرب" المتوفي عام 956 فقد انتهج نهجاً آخر في أعمال الموسوعية التاريخية ـ الجغرافية: فهو قد جعل الأحداث التاريخية في مجموعها في تطور العوائل والأسر والشعوب ثم جاء من بعده ابن خلدون العربي الأكثر أصالة فيلسوف التاريخ، وأحد أعظم المفكرين في العصور الوسطى الذي تابع عمل المسعودي.

والجهود من أجل نظرة فلسفية شاملة وبالدرجة الأولى الأرستوطاليسية والأفلاطونية الجديدة، وذروتها للإسلام أي من أجل عقلانية مدعمة بالحجج للدين وهي مترابطة بشكل لا يقبل الانفصام مع ثلاثة من الفلاسفة المسلمين في العصور الوسطى الذين برزوا في المشرق وهم : الكندي (المتوفي عام 873)فيلسوف العرب الفارابي (واسمه باللاتينيةAlpharabius المتوفي عام950)الذي يرجع في أصله إلى تركستان (فاراب) في أواسط آسيا، والفارسي ابن سينا (المتوفي عام 1037).

وتحول الكندي كأول فيلسوف عربي إلى الأرستطوطاليسية ومدرسته الفلسفية التوفيقية Eklektizitism وهي ضد التأملات النظرية اللاهوتية التي تمثلها التعاليم الإسلامية المتشددة وعلينا أن ندرك بأن العلوم الطبيعية وقبل كل شيء الرياضيات هي التي تمثل الأساس في الأفكار الفلسفية. وقد كتب الفارابي أيضا حول المدينة المثالية العربية بحسب المثال الذي كان أفلاطون قد كتبه مؤكداً على ضرورة دراسة علوم العالم.

وفي الختام مثلت الفلسفة الجوهرية للشرق المسلم لابن سينا بأفكاره مع ابن رشد اللاهوتية الأوربية التي أثرت بعمق في فهم أبدية وجود الجوهر(المادة) الذي كان في نظامه الفلسفي ذو تصورات مثالية ترتبط بمبادئ مطلقة(الله) وإلى جانب ابن رشد (اسمه باللاتينية Averroes) كان ابن سينا يعتبر ممثلاً مهماً لنظرية "الحقيقة المزدوجة" التي تضم نقداً صريحاً للرؤية الدينية للعالم وإبراز أهميتها للناس، وفي نفس الوقت من أجل تأكيد ضرورة وجود الفلسفة إلى جانب الدين.(أطلق عليهم الدهريون، ويقابلهم في لاهوت المسيحية السكولاستيون ـ المترجم).
وعلى الرغم من أن فلسفة كهذه لا تهز أرضية الإسلام فقد اكتفى التيار المتشدد بتأكيد الضرورة للبرهنة العلمية على أهمية الإدراك الحسي في عملية المعرفة والاستحقاق العام لتعميق المعارف في حقل العلوم الطبيعية من أجل خوض معركة صريحة ضد أطروحات الفلاسفة، التي اندفع إليها بصفة عامة اللاهوتي الإسلامي الكبير الغزالي. ومن جهة أخرى لم يكن مستغرباً أن هؤلاء الفلاسفة بصفة عامة وجدوا في التيار الشيعي الإسلامي دعماً معنوياً ومادياً.

وكانت الحركة الأدبية للشعوبية وبسبب انبثاقها في المدن متأثرة بشكل جوهري بهذه الروح ومؤثرة على سير تطور الشعر والنثر القصصي في فجر العصر العباسي. وهناك اثنان من الشعراء المنحدرين من أصل فارسي عاشا في المدن بإمكانات معيشية مرفّهة أطلقا العنان للعواطف والغرائز في تناول الخمر الذي حرّمه القرآن، وفي رفض صريح للتشدد الإسلامي، وهما : بشار بن برد(719 - 783) وأبو نواس (762 - 813) والحقيقة أن كلا الشاعرين وغيرهم كثيرين كانوا فاعلين في بلاط الخليفة وتلقي أعمالهم الضوء على حياة البلاط.

وإلى جانب هذه المتع والمباهج عاد الشعر ودخل حياة الزهد وقد مثل ذلك الشاعر المتفوق شعرياً ولغوياً أبو العتاهية 748 ـ 825، وكذلك الاهتمام بالشعر البدوي القديم.
ومن الذين الذين يستحقون الذكر في هذا المجال هو الشاعر أبو تمام 809 ـ 845 ، والشاعر البحتري 897 - 821 .

وشهدت القصة العربية طفرة جوهرية على يد الفارسي ابن المقفع 721 - 757، والتي هي جمع لأمثال هندية(كليلة ودمنة) والمنقولة عن الفارسية الوسطى إلى العربية. وفي نفس الوقت فقد أضيف إليها وجرى تعديلها وتهذيبها وقد ترجم عمل ابن المقفع هذا إلى اللغة اللاتينية في القرن الثاني عشر كما أنها لم تكن تخلو من التأثيرات العظيمة على الفن في أوربا. كما برز الجاحظ 775- 868، كأب حقيقي للقصة العربية وهو معلم وموسوعي المعرفة فهو الذي ألف حوالي 200 كتاب في مختلف العلوم المعروفة في ذلك الوقت وعرف بذكائه الثاقب وأسلوبه الساخر ومقالاته الشهيرة.

وتطورت القصة العربية نتيجة لتنامي تبعية الشاعر والدعم المالي من مشجعي الشعر بلغة رائعة، وبأسلوب أنيق يليق بالبلاط وعلى الرغم من أن الجاحظ كان غالباً ما يأخذ شكل المتشرد الذي يعكس حياة وأوضاع الفئات السفلى والمتوسطة في المدن والمقامات التي هي أدب مجمع على شكل أقصوصات درامية على سبيل المثال بديع الزمان الهمداني 969 - 1008، والحريري 1059 - 1122.

وبرزت الظواهر الأولى على ركود التطور الثقافي حوالي نهاية القرن العاشر، بما له علاقة بالانهيار السياسي للخلافة وبتقدم الإسلام المتشدد على أنها سوف تظهر بشكل محلي ومحدود في بعض دول الإقطاع في المشرق العربي.

إجمالي الفصل

باستلام العباسيين للسلطة تمركزت سلطة الخليفة في العراق، واتخاذهم بغداد التي تم تأسيسها حديثاً عاصمة للإمبراطورية العباسية(أواسط القرن الثامن حتى أواسط القرن التاسع)، انتشرت بشكل تام الإقطاعية على النمط الشرقي ووصلت الإمبراطورية العباسية باستخدام تقاليد نظام الإدارة الساسانية والنظام الاقتصادي والسياسي والثقافي وقدرات الموالي(غير العرب) إلى أعلى المستويات في الاقتصاد والإدارة والثقافة تلك المرحلة التي تسمى حتى اليوم (العصر الذهبي) للشعوب العربية والإسلامية هذا العصر كان شاهداً على ازدهار الثقافة التي أثرت على التطور الثقافي للعالم.

ولكن تأسيس حرس تركي لحماية مصالح السلطة والخليفة وتنامي الحركات الانفصالية للإقطاعيات المتمكنة ذات النفوذ، وكذلك وتصاعد الاضطرابات الشعبية التي كانت ترتدي الدين كواجهة للاحتجاج الاجتماعي من قبل الفئات المضطهدة والمستغلة وعدم الاستقرار الداخلي، أدى إلى تمزق الخلافة وسقوطها.

الفصل الخامس

سقوط الدولة العباسية، أواسط القرن التاسع حتى أواسط القرن الثالث عشر

1. حركات شعبية.
2. انتصار التجزيئية الإقطاعية.
   آ/ الطولونيون والإخشيديون.
   ب/ الحمدانيون.
   ج/ البويهيون.
   د / الفاطميون.
   ذ/ السلاجقة.
3. الحروب الصليبية.

إجمالي الفصل

أولاً: الحركات الشعبية

في أواسط القرن التاسع أي بعد 100 عام من استلام العباسيين السلطة، اتضح أن الإدارة العباسية لم يعد بوسعها أن تسيطر على الأراضي الشاسعة التي بحوزتها، فبدأت عملية تداع متلاحقة للإمبراطورية تجزأت فيها إلى إقطاعيات عربية وفارسية وتركية، ولكن ذلك لم يكن يعقبه انحدار في المستوى الاقتصادي والثقافي بل على العكس، ففي المناطق التي كانت تحت سيطرة إدارات محلية وبأيدي عائلات قوية يلاحظ ولزمن طويل أن هناك ازدهاراً اقتصادياً وثقافياً.

وأفضى تداعي الدولة العباسية الموحدة إلى عناصر مختلفة، إذ كانت هذه الدولة تمثل خليطاً غير متجانس من بلدان تنطوي على اختلافات كبيرة في مستوى تطورها الاقتصادي وكذلك على صعيد التقاليد الثقافية التاريخية وأن الروابط الاقتصادية والعرقية بين هذه البلدان كانت رخوة وسائبة، وفي ظل تلك الشروط والمزايا الاقتصادية فإنها لم تتمكن من تكوين سوق مشتركة.

وغالباً ما كان يتحكم بالسلطة ضباط مرتزقة، وخصيان القصر، وأقرباء الخليفة، وكبار الموظفين المدنيين والحياة المرفهة الخيالية في بلاط الخلفاء التي كانت سبباً في هبوط مستمر في ميزانية الدولة ثم أدت إلى سقوط شخصية ومكانة الخليفة في نظر الجماهير المضطهدة. ومقابل هبوط وتراجع سلطة الخلافة، كانت تنمو شخصية ومكانة الحكام المحليين للولايات(الأمراء)، الضباط، وكبار الموظفين الذين تطوروا إلى كبار مالكين للأراضي على حساب أراضي الدولة وبدؤوا بالانفصال السياسي عن سلطة الدولة لتحقيق أوضاع اقتصادية خاصة بهم.

كما أن ضعف السلطة المركزية أدى إلى بقائها مرغمة على السكون وقبول الأمر الواقع، وأخيراً فإن العديد من الحركات التي ارتدت رداءاً دينياً كان أمراً أدى إلى اهتزاز سلطة الخلافة، بل وفي بعض الحالات كانت موازية لها.

لاحظنا أن العباسيين ومنذ استلامهم السلطة قد أرغموا على الاحتفاظ بقوات عسكرية مهمة وزجها في مختلف مناطق الإمبراطورية تجاه الانتفاضات التي كانت لها بواعثها الاجتماعية والدينية والوطنية، وإن هذه الحركات قد اشتدت مع تدهور السلطة المركزية وتكونت لها اتجاهات ثلاث:

*حركات جماهيرية للعبيد
*والفلاحين الفقراء
* وكانت تلك الحركات تقوم بها الفئات الوسطى والسفلى وعامة الناس في المدن.

وكان العبيد يتواجدون في قصور الخلفاء، ويستخدمون كحراس شخصين للخليفة، كما كان جزء قليل منهم يستخدم في المناجم والأعمال اليدوية. بالإضافة إلى عبيد يستخدمون في الزراعة ولا سيما في جنوب العراق وجنوب غرب إيران في بناء مشاريع أنظمة الري وإزالة ملوحة الأرض وفي استخراج ملح الطعام. وكانت شرق إفريقيا تمثل المصدر الرئيسي للعبيد وكانوا يدعون بالزنج. وقد كان هؤلاء العبيد ملكاً للدولة أو لكبار الملاكين ويعيشون ويعملون في مجاميع تتراوح بين خمسمائة إلى خمسة آلاف فرد ويخضعون لاستغلال شديد. وقد سجلت عدة

انتفاضات لهؤلاء الزنج كانت أهمها تلك التي حدثت عام 869 وفي عام 883، ولقيت هذه الانتفاضات الهزيمة بعد تدخل قوات حكومية كثيفة بقيادة الأمير الموفق شقيق الخليفة وكانت الخلافة قد نقلت إلى سامراء بعدما كان الضعف قد نال من الخلافة بسبب تصفية البرامكة، الأسرة الإدارية ـ العقارية، وتفرد أحمد بن طولون في ولاية مصر واضطرار الخليفة لمسايرته.

وكان قائد ومنظم حركة الزنج رجلاً من المحرضين الشيعة وهو علي بن محمد وهو على الأغلب ينحدر من أسرة علي بن أبي طالب وقد اهتم قائد الحركة بنظرية الخوارج ولكن بدون أن يكون لذلك تأثير جوهري على الناس الجهلة الذين نادراً ما امتلكوا العبيد فقد وعدهم قائد الثورة بأن يكون لهم عبيد ومساكن وأحوال رغيدة. وكانت كراهيتهم العميقة للأغنياء ومساعيهم في تحسين ظروفهم الحياتية شكلت البواعث الدافعة لهم في تشكيل جيش من عدة آلاف نسمة من الجنود في جيش عبيد تتصف هجماته وفعالياته بوحشية وقسوة مبالغ بها.

وقد قرر الزنج أن يضموا إلى قواهم العبيد(بعد إطلاق حريتهم) والبدو العرب والفلاحين الفقراء الذين كانوا يفرون من الأرض ومن ظلم مالكيها وكذلك المرتزقة من العبيد السود من سكان المدن الذين يتركون جيش الخليفة ويلتحقون بالزنج ومعهم أسلحتهم. وهكذا أصبح لجيش العبيد تنظيماً ممتازاً بقيادة على بن محمد وكان هذا الجيش المتماسك بقوة يكمن في المناطق الوعرة بطمأنينة. وفي عام 870 احتلوا مدن جنوب الأهواز وفي عام 871 مدينة البصرة وأخيراً احتلوا عام 878(المدينة ـ المعسكر)واسط، ووصل الزنج في توسعهم إلى جنوب غرب الكوفة، وأسسوا عاصمتهم المنيعة (المختارة) وسط المستنقعات المالحة.

ولكن الزنج لم يغيروا أي شيء من طبيعة علاقاتهم الاجتماعية نتيجة انتصاراتهم هذه، بل إنهم أنفسهم بدؤوا بامتلاك أعداد من العبيد المنحدرين من البدو والفلاحين والمجندين من سكان المدن كما أصبح قادة الزنج من ملاك الأراضي، وأعلن علي بن محمد قائد الثورة نفسه خليفة، وسك النقود باسمه وبذلك فإنهم افتقدوا إلى جانب قوة الخلافة المقدمات الحاسمة لانتصارهم: التفاعل المشترك مع البدو المضطهدين وكذلك جماهير الفلاحين والمساواة بين جميع الزنج في النضال.

وقد تغلبت عليهم قوات الموفق المنظمة جيداً والتي كانت مجهزة بزوارق جديدة لاستخدامها في مياه المستنقعات. وقد استولي على المدن الواحدة إثر الأخرى حتى دفع بهم إلى مدينة المختارة ليحاصرها عام 883 لمدة ثلاث سنوات وما تبقى من قوات الزنج البائسة، جرى قتالها بشكل قاس حيث جلب رأس القائد علي بن محمد إلى الموفق. وهكذا فقد فشلت حركة الزنج نتيجة لتصوراتهم الاجتماعية الساذجة والقوة العسكرية للخليفة ولكن الأهمية التاريخية للحركة بقيت والتي كانت من أبرز نتائجها اختفاء العبيد في مزارع الخليفة كما تقلص إلى حد بعيد استيراد العبيد من إفريقيا.

والحقيقة أن العباسيين ومنذ استلامهم السلطة وتأسيسهم الخلافة، وسيطرة الموظفين وكبار ملاكي الأرض وكبار العسكريين المستندين إلى الإسلام السني المتعصب والدعايات الشيعية تكسب نفوذاً مهماً بين العبيد والفلاحين الفقراء وصغار التجار. ومن خلال الأمل بتحسين الأوضاع المعيشية التي تلتقي مع التصورات الشيعية منذ القرن الثامن في عودة الإمام المختفي(وهو من سلالة علي وفاطمة) ويسمى المهدي، وهو مرسل من الله والذي سيعيد العدل إلى الدنيا بعد أن امتلأت ظلماً وجوراً.

وإلى جانب ذلك انتظمت منذ القرن الثامن عدة تيارات شيعية وأحدها كان الأقرب إلى التيار السني المتشدد المتمثل بالسادة وهم أحفاد علي، تمركزت هذه الطائفة في اليمن(يقصد الزيدية ـ

المترجم)، كما نشأ تيار معتدل آخر في إيران وفق مبدأ المهدي المنتظر وهو التيار الاثنا عشري الذي نشأ بعد اختفاء الإمام الثاني عشر (المهدي المنتظر) عام 873 ,مثّل الأساس السياسي والنظري لقيام حركة شعبية ضخمة من أجل استلام السلطة من قبل قادة دينيين يقودون حركات كهذه في تأسيس حركة شيعية واسعة العدد ومتشددة هي الشيعة الإسماعيلية، أو الشيعة السابعة.

ويعترف الإسماعيليون بسبعة أئمة في تسلسل الإمامة ومنهم الإمام إسماعيل الذي حرمه والده من الإمامة بسبب إدمانه تناول المسكرات ومنحها إلى أخيه. وتعتبر جماعة الأئمة السبعة إسماعيل وابنه محمد هو الإمام المنتظر الذي سيظهر في الوقت المناسب مرة أخرى على الأرض وينقذها من الأشرار ويقود الصراع ضد التسلط السني.

وقد ألحقت بالأيديولوجيات الإسلامية مذاهب دينية تلفيقية مختلفة من الأفكار والعقائد التي لا تمت إلا بصلة بسيطة مع الحد الأقصى للإسلام. وأمر كهذا لا يثير العجب فأخوان الصفا الذين ألفوا في النصف الثاني من القرن العاشر موسوعة مشهورة في كافة العلوم المعروفة وكانوا على الأرجح من مؤيدي الإسماعيلية. ولكن الدعاة طالبوهم بعلاقة اسمية(شكلية)مع الإسلام والقرآن وليس من خلال تفسير مزعوم للباطنية والاستعادة والمجاز في القرآن وليس من خلال تفسير مزعوم للباطنية والاستعارة والمجاز في القرآن الذي هو في النهاية لا يفهمه أحد غيرهم بالإيمان وحلول الألوهية في إسماعيل وفي انتظار عودته كمهدي.

هذه المبادئ (العقائد) كانت في الأساس تشبه المنظمات السرية كالماسونية، التي يطّلع أتباعها بشكل تدريجي على أسرار تفاسير القرآن وتنطوي على مسؤوليات ثم صمت وسكون وطاعة مطلقة. وكما نهض العباسيون في الماضي، قاد الإسماعيليون دعوتهم السرية ونشروا تعاليمهم بين البدو والفلاحين الفقراء وصغار الحرفيين وعامة الناس، ووجدوا أنصاراً جدد لهم قدموا النقد المدعم بالحجج والأسانيد لفرضية وجود طوائف في الشرق قبل القرن الخامس عشر، وطرحت في الأزمنة اللاحقة نفوذاً إسلامياً على شكل منظمات للحرفيين.

وقد اكتسبت الدعاية الإسلامية تأثيراً مهماً في الحركة الشعبية التي سميت بحركة القرامطة، نسبة إلى قائدها الأول حمدان بن قرمط، وهو فلاح عراقي أراد استغلال القوة السياسية للإسلام لتحسين الحالة المعيشية لجماهير الفلاحين الفقراء. وفي عام 800 أسس مقره الرئيسي بالقرب من الكوفة، ومن ثم نقله إلى السلمية في شمال سوريا، وسرعان ما اتسعت حركتهم لتشمل فلاحين فقراء في جنوب العراق ومستأجري أراض وعمال يدويين كمقدمات لتوسيع الحركة القرمطية على الأرض.

وأقام حلفاء للقرامطة مع قبائل بدوية وبدؤوا بالزحف باسم صوفي غامض(أستاذ الصفاء ـ العفة) ويقال بأنه ينحدر من صلب علي ثم أعلن عن نفسه كخليفة، ووصل نفوذهم إلى العراق وسوريا وحاصروا حتى دمشق وتمكنت جيوش الخليفة من طرد القرامطة من سوريا والعراق ولكنها لم تستطع أن تخنق الحركة نهائياً، حيث تمكنت من البقاء بين عام 899 حتى القرن الحادي عشر وهناك مدينة للقرامطة على الساحل الغربي للخليج العربي يضم تاريخهم. كما أن هناك حادثة تستحق التسجيل وهي سرقة الحجر الأسود من الكعبة المقدسة عام 930، ويقال أنهم فعلوا ذلك بطلب من الفاطميين، ولم يعاد إلى مكانه إلا عام 951 مقابل دفع مبلغ كبير.

ولم تهدأ حركة القرامطة طيلة القرن العاشر والحادي عشر في العراق وسوريا، وكذلك في خراسان وأواسط آسيا. وخلال سيطرة الفاطميين على الحكم في سوريا تمكنوا من سحق

انتفاضات واسعة للقرامطة وكان نفوذها قد وصل إلى هناك، حتى أنها فرضت لفترة قصيرة الضريبة على دمشق.

وكان مبدأ الحكم لدى القرامطة هو ضرب من مبادئ وتعاليم الحقوق المدنية في المساواة والمشاعية في شؤون الدولة. وفي الواقع فأنها كانت تضم مقدمات لاقتصاد مبتذل وصغير ومعزول يهدف إلى إعادة حالة ما قبل الإقطاع وهذه الدولة كانت تمثل المساعي باتجاه عدالة اجتماعية ومساواة في التملك لجميع السكان، وكانت مرتهنة بتصاعد الضرائب وتزايدها وكذلك مع امتلاك العبيد واستعادة لعبودية جماعية. فقد كان يعمل في الزراعة ثلاثون ألفاً من عبيد الدولة. وتشير تقارير إسلامية أن القيادة في البلاد كانت بإدارة مجلس من ستة أشخاص (مجلس جمهوري)، كما وجدت نقود سكّت باسم هذه اللجنة.

وكان القرن التاسع قد شهد العديد من إشكال الظواهر المختلفة والمتفاوتة في ظرفها الزماني والمكاني، وحركات شعبية شهدتها المدن الصغيرة بشكل رئيسي في العراق وخراسان، وخارج هيئات العمل اتحادات مؤلفة على الأغلب من رجال أو شبان متزوجين(فتيان Fityan) يتسمون بالشجاعة وكان هؤلاء الرجال الشبان ينحدرون من فئات اجتماعية وعرقية مختلفة ويعملون في مختلف المهن، ولربما ينتمون إلى تيارات مختلفة من الإسلام ويقيمون في حياة مشتركة وروحية متحررين من عوائلهم وأسرهم، لأغراض الأمن الاجتماعي.

وبعد سقوط السلطة المركزية وتنامي سلطة الضباط المرتزقة اندمجت هذه الفتوة أكثر فأكثر مع البروليتاريا الرثة ممن كانوا يسمون بالعيارين في المدن وانضم إليهم حرفيون وعمال بالأجرة وآخرون من عامة الناس ممن لا أعمال ثابتة لهم وشكلوا مجاميع مسلحة يسطون على الأثرياء، أو يتعين على الأثرياء أن يدفعوا لقاء ضمان سلامتهم. وفي بعض الأحيان كانوا يحمون سكان المدن من المتنفذين الأقوياء، كما كانوا يتدخلون أحياناً بين الأطراف المتنازعة ويصبحون وكلاء لأحدهم ضد الطرف الآخر ويساهمون مساهمة فاعلة في حل المنازعات.

واستمرت مساعي السيادة الذاتية(الحكم الذاتي) بسبب عدم وجود البورجوازية كطبقة في المجتمع، وبسبب تنوع واختلاف الأهداف لدى هذه المجاميع(أي الفئات الوسطى بين الكادحين والفئات العليا ـ المترجم) وسلطة الضباط المرتزقة التي كانت قد أصبحت ظاهرة. وكانت قد برزت في المدن السورية مساعي قوية من أجل الحكم الذاتي وهنا كانت مهمات القوة المحلية التي كان لها واجباتها الرئيسية، كما ظهرت منظمة أخرى تدعى (الأحداث) وكانت لها ارتباطاتها بالفتوة وبقائدهم الذي يدعى الرئيس، وكان يدير السلطة في أيام الأحداث والاضطرابات السياسية أو الفراغ في السلطة كما حدث في القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر في المدن السورية. ولكن بعد أن بنى السلاجقة والزنكيون من بعدهم المعسكرات التي كانت كفيلة بتقليص الأحداث بدرجة كبيرة.

وتطورت عصابات الفتوة حتى نهاية القرن العاشر تحت تأثير الإسلام الصوفي والأفكار الصوفية الأرستقراطية الروحية المتأملة، وامتازت بأنواع الرياضة وممارستها وبتشكيل الاتحادات الرياضية. وقد حاولوا عبثاً الحيلولة دون سقوط الخليفة العباسي الناصر 1180 ـ 1225 والذي كان من مصلحتهم تقوية شخصية الخليفة وإبقاءه على رأس هذه الروابط(الاتحادات).

ثانياً : انتصار التجزيئية الإقطاعية

تأسست منذ أواسط القرن التاسع وفق نماذج أنظمة العائلات الإقطاعية الإسلامية في إسبانيا وشمال إفريقيا سلطات إقطاعية محلية في الولايات الإيرانية التابعة للإدارة العباسية(على سبيل المثال الصفاريون والسامانيون في إيران والغزنويون الأتراك). وكانت موجات من الهجرات لشعوب نصف بدوية قد تدفقت من أواسط آسيا باتجاه المناطق الخصبة إلى بلاد ما بين النهرين(دجلة والفرات) في ختامها استولى المغول في عام 1258 على مدينة بغداد.

وكانت الاتجاهات الانفصالية قد شهدت اتساعاً في الأقطار العربية وارتباطها بالخلافة والتي تعرفنا على أسسها. وأن حكام الولايات والقادة العسكريين وزعماء القبائل وزعماء الأطراف الدينية بل وحتى العبيد المرتزقة كانوا يريدون الاستئثار بالسلطة. وهذا الهدف كان يتنامى مع تنامي ضعف سلطة الخلافة وكان الخليفة مستسلماً لهذه التطورات، إذ كانت الاتجاهات المحلية الجديدة سنية المذهب واستمر رفع اسمه يوم الجمعة كقائد للمسلمين من على منابر المساجد، وترسل إليه الضرائب والجباية الرسمية في المناسبات ويطبع اسمه على النقود، إلا أن مثل هذه العلاقة الشكلية والاعتراف بالخليفة كانت تسقط إذا كانت تلك الأقلية التي استلمت السلطة شيعية.

آ : الطولونيون والإخشيديون .

عين الخليفة عام 868 جنرالاً تركياً بمنصب حاكم لمصر. وقرر الخليفة العباسي الذي كان قد نقل مقر الخلافة إلى سامراء إيفاد أحمد بن طولون إلى مصر، وهو ابن ضابط في حرس الخليفة الخاص وأمه جارية، وكان أحمد بن طولون قد وطد العزم بالاستفادة من ضعف وتدهور مكانة وقوة الخلافة في بناء مواقع قواه خطوة فخطوة، على الرغم من أنه استمر بتقديم الضريبة إلى الخلافة لكنه كان يمضي قدماً في تنفيذ مخططه لتأسيس عائلة حاكمة مستقلة باسم الطولونيين 868 - 905، وبعد وفاة حاكم الدولة العباسية في سوريا عام 877 استولي أحمد بن طولون على السلطة هناك أيضا.

واتسمت الفترة القصيرة من حكم الطولونيين بطابع النهوض والانتعاش في الاقتصاد والثقافة، والسبب في ذلك يكمن في تحويل جزء من الموارد المحلية وصرفها في تحسين أنظمة الري وبناء عدد كبير من المباني العامة. ويشهد جامع بن طولون في القاهرة اليوم وهو مصغر للجامع الكبير في سامراء على المستوى العالي للفن المعماري على الرغم من أن الخليفة في بغداد كان قد أرغم عام 886 على تمديد فترة حكم طولون لولايته مصر وسوريا لمدة ثلاثين عاماً.

وكان زواج الخليفة المعتضد عام 895 من ابنة أحمد بن طولون البالغة من العمر اثنا عشر عاماً قد عزز مواقع ابن طولون، ولكن نفوذ هذه الأسرة بدأ بالأفول بعد وفاة مؤسسها أحمد عام 884، وبوصفها عائلة غريبة على سوريا ومصر لم تكن لهم إلا علاقات ضئيلة مع السكان. وكانوا على غرار العباسيون في بغداد قد كونوا حرساً خاصاً بهم من المرتزقة الأتراك والأفارقة وضباطهم الذين كانت لهم صلات وثيقة بعائلة بن طولون ولكنهم بدؤوا فيما بعد بالعمل من أجل تكريس السلطة لأنفسهم، واستفاد الخليفة المكتفي 902 - 908 من هذه الظروف فأرسل جيشاً ضد القرامطة في سوريا وفي عام 904 أعادت مصر وسوريا مرة أخرى إلى السيادة العباسية.

وأرغم تصاعد ضغط الفاطميين في إفريقيا الخليفة عام 935 على تنصيب الجنرال التركي محمد بن توج وهو حفيد لجندي مرتزق يعود أصله إلى فرغانة في أواسط آسيا حاكماً على مصر فذهب إلى هناك وحمل عام 937 اللقب القديم لأمراء الإخشيد كرمز للاستقلال الواقعي. وسرعان ما اشتد النفوذ الإخشيدي 935 - 969 الذين كانوا في صراع دائم مع الحمدانيين السوريين وكذلك مع أجزاء واسعة من سوريا وفلسطين ومكة والمدينة. وكان الخصي الإثيوبي عبد المسك كافور هو الحاكم الحقيقي لمصر للفترة من 946 - 986، وهو عبد إثيوبي كان قد اشترى بثمانية عشر دينار نصب وصياً على أميرة إخشيدية قاصرة، إلى أن عُيّن من قبل الخليفة حاكماً على مصر في سيرة لامعة ووصلت عنه الكثير من الحكايات والسير والأشعار فيها المدح والهجاء من أشهر الشعراء العرب(المتنبي). ولكن الإخشيديون الذين كانوا غرباء عن مصر لم يصمدوا أمام هجمات الفاطميين بقيادة الجنرال جوهر من الاستيلاء على مصر عام 969.

ب / الحمدانيون .

أدى تدهور سلطة الخلافة في بداية القرن العاشر(حيث سلم الخليفة كافة سلطاته التنفيذية إلى رئيس حراسه) إلى اشتداد مساعي الأرستقراطية العربية في التقدم ونيل مواقع داخل السلطة بعد أن كانت قد انسحبت سياسياً واقتصادياً وعسكرياً منذ أن استلم العباسيون سلطة الخلافة. وكانت قبيلة تغلب العربية تمثل القبيلة الأقوى في بداية القرن العاشر في شمال ما بين النهرين، تتعامل وفق التقاليد السياسية والثقافية للقبائل العربية في عصر بداية الإسلام(على الرغم من أن هذه التقاليد لم تعد بدوية)، وكان الحمدانيون وهم أرستقراطية هذه القبيلة قد عينوا كحكام لشمال ما بين النهرين وكانت عاصمتهم الموصل ثم تمكنوا من نيل الاستقلال بسرعة عن بلاط الخليفة.

وفيما كان على الحمدانيين الاعتراف بالسلطة العليا للبويهيين، فقد ظل الفرع السوري للعائلة 944 - 1003 ومقرها في مدينة حلب تتمتع بالاستقلال لفترة طويلة، إلى أن سقطت سوريا بأيدي الفاطميين.

وبقيادة الحمداني علي الملقب بسيف الدولة والذي حكم من 944 وحتى 967، قام العرب وللمرة الأخيرة بالحرب المقدسة ضد الكفار البيزنطيين في آسيا الصغرى، ولم يكن هدفهم كسب أراضي ومقاطعات بل كسب الغنائم. والقتال الذي دار بين الجانبين وفي مجراه نجحت الجيوش البيزنطية بقيادة قادة مشهورين مثل نيكفور الثاني Nikephours II (في المصادر العربية نقفور - المترجم) ويوهانس الأول Johannes I من الوصول إلى حلب نفسها، واستطاعوا الاستيلاء على أنطاكية والاحتفاظ بها لوقت طويل وكذلك كليكيا(وفي هذا الوقت سقطت قبرص وكريت مرة أخرى بأيدي البيزنطيين) ولكن المعارك بين الجانبين بقيت بدون نجاحات دائمة.وقد أرغم سعد الدولة وهو خلف سيف الدولة البيزنطيين على تقديم الضريبة خاضعين وهم الذين كانوا قد احتلوا دمشق وحاولوا الوصول إلى القدس، إلا أنهم عقدوا اتفاقية مع الفاطميين أنهوا بها توسعهم في سوريا، وبموجب هذه الاتفاقية أيضاً تم إيقاف كافة الفتوحات والتوسعات.

واكتسب بلاط الحمدانيين مكانة الشرف في تاريخ الثقافة العربية - الإسلامية كمشجع للفنون والثقافة ومن تلك الشخصيات الشاعر العربي المشهور والمثمن عالياً حتى اليوم: المتنبي، والفيلسوف الفارابي، وأبو الفرج الأصفهاني (المتوفي عام 975) وهو مؤلف الأنسكلوبيديا المشهورة، وجامع للأغاني والقصائد وبنفس الوقت تناول عدداً كبيراً من سير الرجال

والتفاصيل التاريخية والقصص والحكايات النادرة، والشاعر العربي الكبير أبو العلاء المعري 973 - 1057ذو الانطباعات المتشائمة والبعيد عن التطرف الإسلامي.

ج/ البويهيون .

بفعل تنامي اتجاهات الاستقلال عن المركز(مركز الخلافة ـ المترجم) التي بدأت تتحقق من خلال تأسيس الدول الإقطاعية المحلية، الحركات الشعبية، تصاعد سلطة الضباط من الحرس الخاص الذين أوصلوا هيبة وسلطان الخليفة في العراق إلى درجة الصفر، وكان الخلفاء أنفسهم لعبة بأيدي الضباط يتساقطون في الصراعات التي كانت تنشب بين المتنافسين منهم، وقد لقي الخليفة المتوكل مصرعه على يد أحد الضباط المرتزقة وهرب المستعين 862 - 866 من العاصمة سامراء إلى بغداد ولوحق هناك وأرغم على التنازل وامتنعت أم الخليفة الذي أعقبه، المعتز 866 - 869 عن دفع مبلغ خمسين ألف دينار لإنقاذ ولدها وهو ما كان يمثل 50% من أمواله.

وهنا أعيد نقل الخلافة من سامراء إلى بغداد في عهد الخليفة المعتضد 892 - 902 الذي لم يعد يتحمل عملية تدهور السلطة. وفي عهد المقتدر 902 - 932 تم تبديل 13 وزيراً بما فيهم علي بن عيسى الذي كان يعد نموذجاً في الكفاءة والمهارة والنزاهة بل أن بعضهم لاقى الموت. ومن الملاحظات البارزة كانت سقوط هيبة الخلافة ومكانة الخليفة. وفي هذه المرحلة تعاقبت عدة أحداث ففي عام 909 نجح الفاطمي عبيد الله في شمال إفريقيا، وفي عام 929 الأموي عبد الرحمن الثالث في إسبانيا، في إعلان نفسيهما كخلفاء وهكذا كانت ثلاث أسر متنافسة تدعي الخلافة تتواجد في البلاد الإسلامية.

وعين الخليفة المقتدر رئيس حرسه الخاص مؤنس المظفر الذي خاض المعارك ضد الزنج وضد القرامطة والفاطميين في منصب القائد العام(أمير الأمراء) وبذلك غدا السيد الحقيقي في البلاد، ولكن هذا لم يكن ليقبل به الخليفة فعمل على خلعه واغتياله لاحقاً. وتواصل العمل بمنصب أمير الأمراء في المراحل اللاحقة الذي أتاح لشاغليه قوة تنفيذية كبيرة. وفي غضون ذلك عزل أمير الأمراء ثلاثة خلفاء بعد المقتدر وسملت عيونهم، وقد شاهد سكان مدينة بغداد أحد الخلفاء وهو يتسول أو يطلب الصدقات وجعل أمير الأمراء محمد بن رائق أن يتلى اسمه من على منابر الجمعة إلى جانب اسم الخليفة.

لذلك لم يكن مستغرباً أن يعمل الخليفة المستكفي 944 - 946 الخائف على عرشه وحياته على جلب البويهيين من إيران فدخلوا بغداد في عام 945 وبدؤوا بمطاردة الحرس الأتراك وقد أصبحوا محرري الخليفة وحماته. وكانت العائلة البويهية تستوطن في السابق جنوب بحر قزوين من القبائل الجبلية المحاربة في الجبال الإيرانية، ثم وضعوا أنفسهم في خدمة العائلة السامانية، وما لبثوا أن استقلوا بأنفسهم واستولوا على مساحات شاسعة من الأراضي في غرب وجنوب إيران.

وكانت مرحلة السيطرة البويهية في العراق 945 - 1055 مهمة لعدة وجوه: فقد أصبح العراق وللمرة الأولى منذ العهد الأموي ولاية ضمن بقية البلدان، وكانت شيراز هي العاصمة في ولاية فارس ثم أن البويهيين أسرعوا في اقتفاء أثر الجنرالات العبيد الأتراك فاستلموا منصب أمير الأمراء ثم جعلوا أسماءهم تتلى في خطب الجمعة في المساجد، وتطبع على العملة ويتحكمون في تنصيب أو عزل الخلفاء وقد سملت عينا الخليفة المستكفي أيضاً.

والحقيقة أن البويهيين يعودون في أصولهم إلى شجرة الساسانيين وكان عضد الدولة 949 ـ 983 أقوى زعمائهم يحمل اللقب الفارسي القديم شاهنشاه (ملك الملوك) مما يعني أن التوجهات كانت إيرانية وتميزت هذه الاتجاهات بأن أتباع البويهيين وسعوا من قاعدة الاتجاه الشيعي في إيران، وبالذات التيار المعتدل في الشيعة (الاثنا عشر) وهكذا كان الموقف ينطوي على تناقض، فالخليفة السني المتشدد كان في (حماية) شخص مرتد دينياً (أمير شيعي).

والبويهيون انتزعوا من الخليفة صلاحياته في تعين الوزير وتركوه في أملاكه كأي إقطاعي، ولكنهم لم يتعرضوا إلى مكانته وشخصيته الدينية من أجل تطمين الأغلبية السنية من السكان. وبهذه الحالة أصبح البويهيون مقاتلين للتوجهات السياسية للمتشددين السنّة في نزاعهم مع الفاطميين الشيعة في مصر التي كانت واحدة من المشكلات في السياسة الخارجية للبويهيين.

وفي التطور الاقتصادي اللاحق للأقطار العربية كانت عملية عسكرة ملكية الأراضي التي بدأها البويهيون لها أهمية خاصة، كما أن سياسة التوسع الاقتصادي للفاطميين قد وجدت من مصر مركزاً تجارياً شرقي البحر المتوسط، وكذلك إلى هبوط في التجارة البعيدة المدى مع روسيا والصين في القرن العاشر وفقدان العديد من مناجم الأحجار الكريمة والذهب والفضة قد أدت مع تصاعد النفقات وازدهار البيروقراطية والجيش وشخصيات السلطة السياسية، فهؤلاء كانوا يستلمون بدل الرواتب قطعاً من الأراضي من دائرة الخراج(إقطاعيات) وبذلك كانت كمية كبيرة من الضرائب تفلت من خزانة الدولة.

والحقيقة أن هذا النوع الجديد من ملاك الأراضي وهم في الغالب ممن يسكنون المدن، وليست لهم قدرات اقتصادية خاصة بهم من أجل إدارة اقتصادية للأرض على هذا النمط من الإقطاع الذي يخدم فقط في مدة عمر المالك(غير قابلة للإرث)، وأنها كانت قابلة للتداول. وقد أدى ذلك في النتيجة إلى اشتداد استغلال الفلاحين بالإضافة إلى تكوين أو تشكيل فئة واسعة من العسكريين من مالكي الأراضي وهذه سهّلت تنحية كبار الموظفين من مالكي الأرض والأرستقراطية التجارية عن السلطة السياسية.

وتواصلت عملية ازدهار الثقافة والحضارة العربية ـ الإسلامية في العهد البويهي، وأصدر الحكام أوامرهم ببناء المراصد الفلكية والمستشفيات والمكتبات العامة في المدن العراقية والإيرانية، وكان هناك أساتذة وعلماء من عدة قوميات مثل الفيلسوف ابن سينا، ومؤسس الأدب الفارسي الوطني الفردوسي 940 ـ 1020 والمؤرخ مسكويه (المتوفي عام 1030) والجغرافي إستخاري (عاش في القرن العاشر) والجماعة الإسماعيلية من أساتذة الفكر والجدل أخوان الصفا الذي كانوا معارضين للبويهيين وكانوا أحياناً في بلاطهم.

والسيادة العسكرية كانت للبويهيين فيما كان الشعب العراقي بغالبيته السنية يعارض نفوذهم، وما كان بإمكانهم البقاء إلا بممارسة السيطرة والنفوذ من خلال الجيش ومراكز الدولة المهمة التي كانت بأيدي العائلة البويهية. ودخل الرجل الذي تلا عضد الدولة في صراعات مع العائلة من أجل السلطة. وشمل الصراع الجيش الذي كان مؤلفاً من أبناء قوميات مختلفة إلى أن تم استبدال القادة بغيرهم (السلاجقة) وهم أقوام تركية شبه بدوية من أواسط آسيا والذين كانوا قد تغلغلوا عبر إيران ودخلوا بغداد عام 1055 .

ومن المثير أن تتصاعد خلال سقوط السلطة البويهية شخصية ومهابة مؤسسة الخلافة، فقد حاول كافة رجال الحكم البويهيين التأكيد على شخصيتهم ونفوذهم من خلال الحفاظ شكلياً على

شكل ومهابة الخليفة، وهكذا فإن تعين الخلفاء في آخر عهود البويهيين استعاد سلطته في تعين الوزير وفي غضون صراع الأمراء البويهيين على السلطة لعبت عصابات العيارين في بغداد وفي المدن دوراً مهماً، وكانوا في مطلع القرن الحادي عشر في عهد اضمحلال السلطة سادة المدن.

د / الفاطميون .

تميزت فترة الحكم الفاطمي 909 - 1171 بأنها كانت بداية لمرحلة جديدة من مراحل أفول الإمبراطورية العباسية. والفاطميون الشيعة الذين أعلنوا أنفسهم خلفاء لم يكونوا يعترفون حتى شكلياً أو اسمياً بالسيادة العليا للعباسيين بل أنهم حاولوا أكثر من ذلك من خلال سياسة هجومية ضد العباسيين والبويهيين الذين كانوا قد هيمنوا على الموقف ولاحقاً من السلاجقة، ومضوا يبنون سلطتهم ودولتهم في مصر وشمال إفريقيا.

وارتبط صعود الفاطميون بصورة دقيقة مع تاريخ ولاية إفريقيا، لذلك يستوجب الأمر إلقاء نظرة سريعة إذ كانت قبائل البربر القاطنة هناك في تلك الولاية تقف موقف المعارضة لسيادة أسرة الأغالبة الذين ركزوا قواهم في تثبيت سيطرتهم على المدن، وقام تحالف بين البربر متمثلة بقبائل قطامة، وبين المبشر الفاطمي أبي عبد الله الذي يعود في أصله إلى بلدة السلامية مقر الإسماعيلية في سوريا، وقاد أبو عبد الله البربر في شمال إفريقيا في المعارك ضد الأغالبة، ومن ثم الإخشيديين.

وفي عام 910 أعلن عن إمامة عبد الله وكان قائد المؤمنين وهو لقب الخليفة(ربما المقصود أمير المؤمنين ـ المترجم)وقد أعلن عن هذا اللقب واعتمد في عموم الإمبراطورية العباسية، وانتشر الإسماعيليون كدعاة في الولايات، واعتبروه المهدي المنتظر بسبب التواريخ الكثيرة المشكوك فيها عن أصل نسب أحفاد المنحدرين من زواج فاطمة ابنة الرسول(ص) من علي، ومنها حمل اسم الفاطمية كاسم عائلة، وكذلك اسم (العبيديين).

وكانت آمال البدو البربر والفلاحين الفقراء معلقة " بظهور المهدي" وبه سينالون حقوقهم الاجتماعية وينتهي الظلم، غير أنهم لم يلمسوا ذلك بل على العكس، فإن القادة الإسماعيلية أصبحوا الأرستقراطية وسادة الإقطاع الجدد وزادوا من حدة وضغط الضرائب ولم يلتمسوا من مبادئ السياسية للطائفة الإسماعيلية سوى رداء مهلهل ضعيف.

ومن مؤشرات السياسية للإسماعيلية اغتيال عبد الله لعبيد الله الذي لم يكن يرتاح إليه كما فعل العباسيون مع أبو مسلم الخراساني، ثم حصلت انتفاضة خطيرة للبربر اندلعت تحت شعارات الخوارج تعرضت للقمع عام 949 - 947 .

ومن أجل استغلال ضعف الدولة العباسية سار الفاطميون مع حلفائهم البربر مدعومين بالأسطول الذي كان الأغالبة قد بنوه وطوروه في سياق سياستهم الهجومية وبعد أن تم لهم احتلال شمال إفريقيا وبعض الجزر في البحر المتوسط(سردينيا، صقلية، كورسيكا) وأخيراً كانت حملة الجنرال جوهر على مصر ذروة لهذه الفعاليات عام 969.

وبعدما أصبح مركز السلطة الفاطمية في وادي النيل الخصيب تركوا حكاماً محليين في شمال إفريقيا والذين سرعان ما استقلوا عن الفاطميين. وكان الجنرال جوهر قد وضع عام 969 حجر

الأساس للعاصمة القديمة (القاهرة) إلى الشمال من العاصمة المصرية آنذاك الفسطاط وفيها بويع عام 973 المعز خليفة للفاطميين.

وفي عهد السلطة الفاطمية تطورت الزراعة المصرية، والحرف، التجارة البعيدة، والثقافة. وأدى هذا التطور إلى تأسيس سلطة مركزية قوية معتمدة على جيش منظم بصورة جيدة وعلى إعادة تنظيم الإدارة ونظام الضرائب، وتشجيع للفعاليات الاقتصادية غير المسلمة(أهل الذمة) وعلى نتائج أبحاث علمية(متاحة لها المجال نسبياً).

وأخذ الفاطميون من العباسيين هيكلة الإدارة وأصبحت شخصية الإمام الشيعي(الخليفة) جزءاً من الألوهية، وكان المنصب الجديد (داعي الدعاة) الذي استحدث هو أعلى المناصب في العمل الديني وقد عبر ذلك عن الوسيلة المتعددة الأغراض والأساليب لتحقيق مطامع التوسع.
وقد حاول وزراء الدولة الفاطمية الأولى في مصر الإصلاح ونجحوا في ذلك من خلال توسيع حجم المساحات الزراعية وصوامع الحبوب وتحسين أنظمة الري ومكافحة الفساد في نظام الضرائب واستخدم اليهودي البغدادي الذي أسلم: يعقوب بن قليس للعمل في السيطرة على فيضان نهر النيل الذي كان يهدد المواسم بحالة الجوع.

إلى جانب الازدهار الزراعي كان أيضاً الإنتاج الحرفي. وكان القطن والصوف والحرير وكذلك المصنوعات الفخارية من أشهر منتجات التصدير، كما كان هناك صناعة السفن والورق والمنتجات الجلدية، وكذلك كانت المصنوعات الحديدية وصياغة المجوهرات ذات شهرة في مصر.

وكانت الفسطاط ودمياط والإسكندرية مراكزاً لتفريغ وشحن السلع التجارية المتطورة والبعيدة المدى، وكذلك للترانزيت والتجارة الداخلية والتجارة مع أوربا، لا سيما المدن الإيطالية الشمالية باستخدام الطرق البحرية حيث كان هناك أسطولاً فاطمياً يتسيد ولمدة طويلة شرقي البحر المتوسط، وكانت التجارة مع شبه الجزيرة العربية ومع الهند تتم عبر موانئ: قوز وعيذاب على البحر الأحمر وبهذا الحجم الواسع من السياسة التجارية المسيطر عليها من قبل الدولة وجهت مصر الفاطمية ضربة قاسية إلى مكانة الإمبراطورية العباسية في التجارة الدولية البعيدة المدى.

كانت السياسة الخارجية الإمبريالية للفاطميين(المقصود هنا الدولة التي يتحقق فيها اتحاد بين قوى المال وسلطة الدولة ـ المترجم) بالدرجة الأولى موجهة ضد العباسيين في بغداد وضد قواهم الدنيوية. ثم استسلمت المدينتان المقدستان مكة والمدينة للفاطميين في الأعوام 970 ـ 971، كما وجدوا في اليمن أنصاراً متحمسين لهم من الأسر الإسلامية، كما كانت الحملات الحربية للفاطميين في سوريا وفلسطين متفاوتة في نتائجها.

وفيما يخص دمشق التي احتلوها أول مرة عام 971 ألتقي حسان بن أحمد الأسام قائد القرامطة بالقوات الفاطمية، ثم حاصر القرامطة القاهرة لفترة قصيرة. وكان القائد الفاطمي ينتظر المساعدة من قوات البدو لصرف قوات القرامطة، فاحتلت قوات الفاطميين دمشق مرة أخرى، حتى هاجم المدينة جنرال تركي مرتزق يدعى أفتاكين وهو هارب من بغداد فأقام الصلات الوثيقة مع القرامطة والمحاربين في دمشق، ثم هاجم المدينة التي يحتلها الفاطميون وطردهم منها.

بل إن الخليفة الفاطمي العزيز 975 ـ 996 تمكن خلال تنازل القرامطة وانسحابهم أن يحتل دمشق من جديد عام 978، ولكن السيادة الفاطمية على المدن السورية والفلسطينية ظلت غير

مستقرة، فقد كانت عرضة للهجمات العديدة من القبائل العربية فعلى سبيل المثال كان هجوم أرستقراطية قبيلة كلاب والمرداس عام 1025 على حلب واستلام السلطة فيها. وحتى العلاقات بين الفاطميين والبيزنطيين كانت متغيرة ومتحولة: فقد عقدوا اتفاقيات سلام ولكن مع وجود الصراعات المسلحة لا سيما في شمال سوريا إلى أن حل السلاجقة، وكذلك فرسان الحملة الصليبية، مما أدى إلى خلق وضع سياسي جديد في هذه المنطقة. وفي حوالي نهاية القرن العاشر سقطت ولاية إفريقيا من يد السلطة الفاطمية نهائياً، ولم تفلح القبائل العربية البدوية الهلالية بجيوشها من الحيلولة دون نهاية الدولة الفاطمية.

ومع خسارة جزر كورسيكا(التابعة لدولة جنوة) وسردينيا (لبيزا) وصقلية(للنورمانديين)، التي مثلت خسارة كبيرة للفاطميين، لأنهم فقدوا نقاط الارتكاز في البحر المتوسط. وبدعم مالي من الفاطميين قام جنرال تركي في الموصل عام 1057 – 1059 جعل خطبة الجمعة للخليفة الفاطمي، ولكن سرعان ما أعاد السلاجقة السيطرة على الوضع.

ومن بين أسباب سقوط الخلافة الفاطمية هو حال مماثل لما كان عليه البلاط العباسي في بغداد. فقد كان الخلفاء الفاطميون الأوائل يعتمدون على القوات البربرية في شمال إفريقيا، ثم اضطر الخليفة الفاطمي استبدالهم بالمرتزقة الشركس الأتراك والسودانيون بسبب تزايد نفوذهم. وهذه القوات المتعددة القوميات كانت في تنافس محتدم فيما بينها، وتكون جيلين أو ثلاثة أجيال على أساس الطمع بالسلطة وضباط متنفذين ووزراء وخصيان وسيدات حريم. وقد منحت الأراضي إلى العديد من القادة العسكريين التي أدت إلى المزيد من الاضطرابات السياسية بحيث أن الضرائب كانت في الواقع تذهب إلى جيوب القادة العسكريين، وكان اشتداد الضرائب يؤدي إلى إرهاق الناس، وكانت الدولة تستخدم المسيحيين واليهود في الإدارة وفي أجهزة الدولة.

لذلك فقد حاول الحاكم بأمر الله الخليفة الجائر المصاب بانفصام الشخصية 996 - 1021 استخدام اليهود والمسيحيين بصورة مؤقتة، وهم المعروف عنهم الدقة والصرامة وأن يقاوم مسألة اضطهادهم. وكانت قد تهدمت كنائس عديدة بما في ذلك " المقبرة المقدسة" في القدس عام 1009، وقد أمكن إعادة بنائها بعد عشرين عاماً وقد استخدمت هذه الدعاية في أوربا الغربية للحملات الصليبية.

وفي إطار تقوية مكانته وشخصيته طالب الحاكم من الداعية الديني الدرزي (المتوفى 1919) أن يروج لألوهيته (ألوهية الحكيم) وآخرين من رجال الدين لم يتمكنوا من كسب الأكثرية المسلمة في مصر لهذه التطورات ولكنهم في سوريا تمكنوا من تأسيس طائفة من الدروز نسبة إلى الدرزي، وبعد اختفاء الحاكم بأمر الله الذي أزيح من السلطة عام 1021 بإشارة من أخته التي أعلنت نفسها بأنها هي المهدي المنتظر.

وفي مرحلة حكم الخليفة المستنصر 1035- 1094 كان تراجُع وتقوُّض مكانة القوة المركزية قد أصبح واضحاً تماماً. وكانت والدته جارية سودانية لذلك فإنها عمدت إلى تقوية روابط الخليفة مع القوات السودانية في جيشه. وفي الأعوام 1062– 1067، اندلع قتال عنيف بين الوحدات البربرية والتركية وأرغم القادة الأتراك الخليفة على إبعاد القوات السودانية بعيداً عن القاهرة، ومنح القوات التركية المال والامتيازات. ثم اشتد سوء الأحوال من هذه المرحلة من خلال استمرار المجاعة لفترة طويلة والتي حصلت بسبب تأخر فيضان النيل وحملات نهب الجنود المرتزقة، وتشير التقارير أن الناس في حالات المجاعة 1065 - 1072 كانوا يأكلون الكلاب والقطط ولحم البشر.

وعندما تولى بدر الجمالي القائد العام للقوات السورية في عام 1073 الأمر من الخليفة في القاهرة باستلام منصب الوزير استطاع أن ينهي حالة الفوضى ويعيد النظام، ومع هذا القائد بدأت مرحلة جديدة لا حدود فيها لصلاحيات وقدرات الوزير، وسرعان ما تغير هذا اللقب إلى مليك Malik وكان هؤلاء يسيطرون على قطعات عسكرية معينة، وكان بوسعهم تنصيب الخلفاء أو خلعهم بل وقتلهم إن شاؤوا ذلك، كما كانوا أيضاً يسقطون ضحية التنافس فيما بينهم في الوحدات العسكرية.

واستمر منصب الوزير قوياً إلى أن جاءت الحملات الصليبية وعندما عين صلاح الدين عام 1171 كوزير لآخر خليفة فاطمي، أسس بذلك نفوذ وسيادة الأسرة الأيوبية في مصر وأعاد سيادة الخليفة السني إلى القاهرة بعد مائتي عام من السيادة الشيعية وأعاد اسم الخليفة السني إلى خطبة الجمعة في المساجد.

وبعد وفاة المستنصر، قام الوزير الفضل بتنصيب الأخ الصغير المستعلي 1101 - 1094 بدلاً من ولي العهد نزار، وكان ذلك مبرراً لتشكيل طائفة إسماعيلية جديدة هم الحشاشون(تذكرهم بعض المصادر العربية بالنزاريون ـ المترجم) وهي فرقة قائمة على القتل اغتيالاً، وتأسست بواسطة الفارسي حسن الصباح الذي أعلن أن نزار هو الخليفة الشرعي وتمركزت هذه المنظمة في منطقة جبلية وعرة المسالك في شرق بلاد فارس وشمال العراق وشمال غرب سوريا، وكان قادتهم يستغلون الفلاحين في مجال نفوذهم وفق أنماط إقطاعية ويطلقون على المنتسبين إليهم بالفدائيين ويطيعون قادتهم طاعة عمياء بانتظار أن ينال سعادة الجنة في وعود كاذبة، ويعيشون على فعالياتهم ضمن منطقة واسعة.
وقد لعب الحشاشون دوراً مهماً سواءً في عهد السيطرة السلجوقية أو الحروب الصليبية، وسقطت آخر نقاط ارتكازهم في القرن الثالث عشر حيث احتلها المغول.

وعاشت مصر في عهد السيادة الفاطمية تقدماً ثقافياً مهماً وقد تم إنجاز العديد من الأعمال في الآداب والفلسفة والعلوم الفقهية ولا سيما كتب الدعاية الإسلامية، ولكن نجاح هذه الدعاية الدينية لم تؤثر في جماهير الشعب المصري السنية ولذلك لم تحرز نجاحاً كبيراً. وقد حدث تقدم في مجال الفلك والعدسات والرياضيات والطب بإسهامات من الفئات الإسلامية العليا وكذلك من المسيحيين واليهود وفي عام 972 شيد جامع الأزهر، وقد بناه الخليفة العزيز كأكاديمية دراسية كما أمر الحكيم ببناء دار الحكمة عام 1005 ووضع كلاهما في خدمة الدرس والتعليم والدعاية للأفكار الإسلامية.

وكانت مكتبة الخلفاء الفاطميين تضم في عهد المستنصر مائتين ألف مخطوطة قبل أن تتبدد ومن الآثار القيمة للفاطميين هي الآثار المعمارية في القاهرة مثل جامع الأزهر وأبواب المدينة، وكذلك الأعمال اليدوية الفنية الصغيرة من الخشب والبرونز والنسيج التي كانت مستنكرة من قبل المتشددين الإسلاميين لأنها تعرض رسوم الحيوانات والبشر فيها.

و / السلاجقة .

من خلال زحف لم يكن ممكناً إيقافه للقوات الشبه بدوية للأتراك السلاجقة القادمين من جنوب ووسط آسيا والذي بدأ في القرن الحادي عشر تحدد فصل جديد من تاريخ أقطار المشرق العربي.

والسلاجقة، وهكذا كان يطلق عليهم بحسب اسم قائدهم الأسطوري سلجوق Salguq، وكانوا جزءاً من تجمع قبلي تركي أوغوز Oghuse. وبسبب التطور والنمو الاقتصادي وفي السلطة السياسية لأرستقراطية القبائل في القرن العاشر حيث يجري التهاوي السريع للنظام الجنتيلي(النظام القبلي الرعوي قبل الإقطاعي ـ المترجم) وحلول العلاقات الإقطاعية المبكرة بدلاً عنها. وبهذه العملية وصلوا إلى الإسلام(المذهب السني) وكان زعماؤهم متعصبين في الاتجاه الإسلامي المتشدد، ومثّلوا عنصراً سياسياً مهماً.

ومن أجل تغطية المتغيرات الاجتماعية ضمن القبائل كانت هناك مساع لإيجاد مناطق رعي جديدة وغنائم حرب، وغرامات حربية ينبغي على السكان في المناطق الزراعية دفعها، ولكل تلك الأسباب قام السلاجقة ومنذ بداية القرن الحادي عشر بالعديد من الغزوات الحربية ضد الإقطاعيات وبالدرجة الأولى ضد الأتراك الأوغوز، وكذلك ضد الأمراء البويهيين في أواسط آسيا وإيران.
هذه الحملات الحربية انتهت بالاستيلاء على كامل خراسان 1038 - 1044 وخوريسمين Choresmien1043 وغرب إيران 1042 - 1051 وأذربيجان 1054. وفي عام 1055 كان القائد السلجوقي طغرل بيك مع جيشه يقف أمام أسوار وأبواب مدينة بغداد، وفيما أركن القائد التركي للفرار أسرع الخليفة العباسي القائم 1031 - 1075 إلى استقبال قائد السلاجقة لتحيته كمحرر من ضغط الشيعة وفي عام 1055 أطلق الخليفة على طغرل لقب " سلطان الشرق" وسرعان ما صار هذا اللقب يذكر إلى جانب الخليفة في خطبة الجمعة، إشارة ورمزاً إلى أن السلطة الحقيقية في البلاد تكمن في يد السلاجقة والخليفة كما كان في السابق حامل الاعتبار والمكانة الدينية.

ثم إن الحاكم العسكري التركي الهارب ما لبث أن عاد بعد فترة قصيرة إلى بغداد واستعاد السلطة باسم الفاطميين هذه المرة، ولكن هذه العودة لم تستغرق إلا فترة قصيرة عاد بعدها السلاجقة ووطدوا سلطانهم في العراق ثم بدؤوا بالتوسع والنضال ضد البيزنطيين وضد مصر الفاطمية وضد العوائل العربية الحاكمة في سوريا وفلسطين. وفي عهد الحكام الثلاثة الأوائل من السلاجقة: طغرل بيك 1036 - 1037، وألب أرسلان 1037 - 1073، وملك شاه 1073 - 1092، استولت قبائل تركية على العديد من المدن في سوريا وفلسطين بما في ذلك القدس، فكانت الحجة التي تذرعت بها دعايات الحملة الصليبية في غرب أوربا رغم أن الفاطميين هاجموا القدس من جديد عام 1096.

وكان انتصار ألب أرسلان في معركة مانت تسيكرت Mantzikert (شمال بحيرة وان في أرمينيا) في عام 1071 ضد البيزنطيين وما نتج عن ذلك من استيلاء على أراض جديدة، واستيطان لقبائل بدوية تركية في الأراضي المستولى عليها في آسيا الصغرى، إذ كونوا منذ ذلك الحين الأساس لعملية تتريك مستمرة في آسيا الصغرى. وعلى هذا الأساس تحقق للأتراك في القرن الخامس عشر أن ينتصروا على البيزنطيين نهائياً.

وإزاء هذا الخليط الواسع غير المتجانس من البلدان التي فتحها السلاجقة لم يكن بوسعهم القيام بأعباء إدارتها بشكل مركزي حتى في الفترة المزدهرة، لذلك كان على السلاجقة العظام أن يقبلوا بالسيادة العليا على الدولة اسمياً، وأن يكتفوا بالعراق بشكل واقعي (سياسياً واقتصادياً)بينما كانت الخطوط الجانبية من عائلة السلاجقة تتسيد وتحكم مناطق تمثل غرب إيران، آسيا الصغرى، سوريا، كردستان.

وكان السلاجقة بجيشهم القوي المؤلف من مقاتلي القبائل الأوغوزيين، ومن خلال تزايد أهمية ومكانة وأعداد المقاتلين المرتزقة من الأقوام التركية الأخرى، وكذلك من الأكراد قد تمكنوا من فرض نفوذهم وكان السلاجقة الذين يقطن القسم الأعظم منهم في إيران(أصفهان، مرو، الري)، قد حكموا في بغداد حتى عام 1091 كحكام عسكريين، وكان نظام الحاميات العسكرية السلجوقية يرأسها قائد برتبة سيهنا Sihna وكانت هذه الحاميات تتواجد في المدن المهمة للإمبراطورية التي كانت مهماتها حفظ الأمن المحلي، الأمر الذي أدى إلى تقلص دور العناصر المحلية في المدن السورية الكبرى على سبيل المثال. ولم يكن ممكناً تحقيق فكرة تكوين جيش دائمي كبير إلا من خلال بناء نظام (قطاعيات) وقد أصبح في عهد السلاجقة نظاماً عسكرياً بصورة تامة. وفي عام 1987 تمكن الوزير الإيراني المشهور نظام الملك من تحقيق مقتضيات التدوين القانوني لنظام (القطاعيات) وبدلاً من المال النقد أصبح الآن الضباط السلاجقة يستلمون الأراضي القطاعية والتي تبقى إيراداتها تحت تصرفهم وبإمكانهم الإنفاق على عدد معين من الجنود.

وكانت هذه الأراضي مرتبطة نظرياً بالخدمة العسكرية وليست خاضعة للوراثة. وبتوسيع هذا النظام برزت إلى الوجود فئة جديدة من ملاكي الأراضي الإقطاعيين من النبلاء العسكريين السلاجقة.

وكان هذا النظام في مصلحة مالكي الأراضي، وقد أدى مؤقتاً إلى تقدم الإنتاج الزراعي الذي كان يصاب بانتكاسات ويلحق به الضرر نتيجة التنافس والصراع العسكري، ومن جهة أخرى كان هذا النظام، (عسكرة الأرض)، حجر الأساس في إقطاع جديد، وفي السعي من أجل جعلها خاضعة للوراثة، وإضافة الجديد من الأرض لما هو موجود بأيدي المالكين، ويدفع السلطات المركزية إلى الاغتصاب وكذلك إلى إبقاء الخدمة العسكرية غير مباشرة، وهذا كله كان يعني إرساء الأساس في تشجيع الاتجاهات الانفصالية، وهذا بدوره قاد بعد أربعين عاماً من سيطرة الأسرة السلجوقية الكبيرة في العراق وغرب إيران إلى تمزق النفوذ السلجوقي.

وقد حاول السلاطين من السلاجقة الأوائل تكوين قوة مركزية في وجه هذه الاحتمالات وذلك بتكوين علاقات قوية مع الأعيان الإيرانيين الذين يحتكرون الإدارة ومع الشخصيات المعتبرة الذين لهم مصلحة في وجود سلطة مركزية قوية. هذه السياسة التي مثل قوتها نظام الملك والوزير المشهور ملك شاه في كتابه سياسة نامة Siyasatname وهو كتاب باللغة الفارسية ويعني قيادة الدولة.

كانت صلات وعلاقات سلاطين السلاجقة المسلمين المتشددين تعني القيم والانطباعات عن فعاليات سنية إسلامية متشددة، فقد تم بناء العديد من الجوامع والمستشفيات وطرق القوافل التي كانت غالباً ما تبنى على حساب الأوقاف (أي أن الجهات الدينية تقف وراء هذه المشاريع).

وأسس السلطان من أجل دراسات علوم إسلامية متشددة بالتعاون مع موظفين إيرانيين وعلماء من السنة مدارس عليا أشهرها هي المدرسة النظامية في بغداد وقد سميت باسم مؤسسها نظام الملك. وفي هذه المدرسة جلب نظام الملك العلماء والفلاسفة مثل: الفارابي والغزالي، وحاول في نظريته الدينية التوفيق بين الإسلام المتشدد والصوفية وأن يوفر بذلك أرضية واسعة لمركزية الدولة وفي ذلك تحديد للتيارات الخطرة في الإسلام.

وفي عام 1092 اغتيل نظام الملك على يد فدائي من الحشاشين، وهي فئة من طائفة الإسماعيلية الجديدة التي تمركزت في جبال فارس الوعرة وفي سوريا. وقد خاض السلاجقة ضدهم كفاحاً لا

طائل منه. ونظام الملك الذي كان أول من حمل لقب أتابك(وهو لقب يعني باللغة التركية أبو الأمير) وهي علامة على وصاية أمير سلجوقي لم يبلغ سن الرشد الذي سرعان ما حول التداعي السلجوقي إلى ازدهار.

واصل النظام الإقطاعي العسكري السلجوقي بناءه، واحتفظ الأتابكة(الغالبية منهم عسكريون) بولاية كاملة كإقطاع وكانت لها حكومة ولاية ثم طوروا وضعها القانوني إلى ملكية قابلة للإرث مرتبطة مع تمليك سريع للحصانة القانونية.

ولم يكن متوقعاً من الأتابكة(ويمارس الأتابك شكلياً الوصاية على الأمراء الواثقين بهم)، إلا أن يخوضوا نضالاً مريراً فيما بينهم على السلطة التي أدت لاحقاً إلى اشتداد تمزيق الدولة. وأهم عائلة بين أسر الأتابكة في المشرق العربي كانت الأسرة الزنكية. والأتابك عماد الزنكي الذي كان والده مملوكاً(عبداً) تركياً للسلطان ملك شاه وعين محافظاً لمدينة بغداد.
تسلم السلطة عام 1127 في مدينة الموصل، وضم إليه حلب عام 1128، ثم واصل ومن تبعه في الحكم الاستيلاء تدريجياً في القتال ضد الأتابكة من السلاجقة الآخرين على أهم المدن السورية: حماة، حمص، بعلبك، دمشق، وبهذه فإنهم خلقوا الأساس لهجوم مقابل ضد الاحتلالات الصليبية التي سيكتب عنها.

وفي مجرى تزايد الصراعات بين الأتابكة، تمكن الخلفاء العباسيون أن يستعيدوا ممارسة تأثيرهم السياسي القوي ولكن مع السماح للأتابكة بتسمية من يشاؤون إلى منصب السلطان وتنصيبه من خلال الخليفة(موافقة شكلية). وفي أواسط القرن الثاني عشر كان السلاجقة العراقيون والإيرانيون قد أرغموا على مغادرة عاصمتهم في همدان الفارسية بعد أن تم رد حصارهم عن بغداد، وبذلك أصبح الطريق حراً من أجل مرحلة قصيرة أخيرة سلجوقية للخلافة على بغداد وما حولها.

ثالثاً : الحملات الصليبية

في نهاية القرن الحادي عشر بدأت ما أطلق عليه في التاريخ بالحملات الصليبية، وهي غزوات استعمارية للأوربيين في الشرق والدول الإقطاعية المؤقتة التي تأسست هناك حسب النموذج الأوربي، ولكن الأقطار العربية في المشرق ما لبثت أن خاضت ضدها نضالاً متحداً وقاومتها وطردتها.

فمن أجل (تحرير القبور المقدسة) في القدس كما جاء ذلك في نداء البابا أوربان الثاني عام 1096 في بلدة مونت كلير الفرنسية، تحركت مجموعات ضخمة من جيوش للإقطاع الأوربية ومن الفرسان ومن جموع من المتدينين(كنائسيين) وكذلك من الشخصيات المعتبرة، ومن الفلاحين العبيد (المملوكين) والمغامرين ومقطوعي الجذور. وليس ممكناً هنا أن نورد الأسباب المختلفة لحركة الغزوات الصليبية في أوربا، إذ كانت تدور بنفس المعنى الحملات ضد العرب في إسبانيا(الاستعادة)Reconquista، في توسع للإقطاع الأوربي نحو الشرق ولكن بالإمكان أن نثبت بأن الشعارات الدينية كانت تخفي ولو بصورة مؤقتة المصالح السياسية والاقتصادية لمختلف الطبقات والفئات والمؤسسات.

وقد عوّل غالبية الإقطاعيين الصغار والمتوسطين وكذلك الفرسان الآمال على كسب أراضي واسعة وعلى غنائم وفيرة. أما الفلاحون المملوكون فقد كانوا يأملون بأنهم ربما سينجحون في سحق الإقطاعيين، وبينما كانت الكنيسة البابوية تسعى على توسيع سلطاتها وتثبيت موقعها القيادي لمسيحي الشرق الذين ينتمون على مختلف الطوائف والمذاهب المسيحية، كان التجار الأوربيون يسعون في المدن الإيطالية مثل جنوه، بيزا، البندقية، دعماً لحركة الغزوات الصليبية بكل السبل وتقوية مواقعهم في منطقة شرق البحر المتوسط في وجه المنافسة البيزنطية والمصرية الحاسمة.

وقد تمثلت المقدمات الأساسية لنجاح الحملات الصليبية في سقوط مركزية الدولة الواحدة السلجوقية في الشرق العربي، بالإضافة إلى الشلل السريع المتنامي للدولة الفاطمية في مصر على الصعيد السياسي والعسكري، وبما يقارب ذلك في المدن السورية وفي بلاد ما بين النهرين حيث كان السلاجقة الأتابكيون والأمراء وزعماء القبائل في صراع شديد فيما بينهم. وأخيراً المساعدة الطبيعية لهم من جيوش الدولة البيزنطية التي كانت تنتظر هذه المناسبة منذ أجيال.

وكان الخليفة العباسي في بغداد منهمكاً في النضال من أجل استعادة ورفع مكانته وهيبته ضد السلاجقة في العراق، فلم يكن يمتلك النية ولا الوسائل لإعلان الجهاد (الحرب المقدسة) للمسلمين ضد غير المؤمنين(الكفار). كما استغل الحكام الفاطميون في مصر من جانبهم الانتصارات الصليبية الأولى في المعارك ضد السلاجقة في آسيا الصغرى وشمال سوريا، وفي الأراضي الفلسطينية فأفصحوا عن نواياهم ورؤيتهم باقتراحاتهم تقسيم سوريا وفلسطين فيما بينهم وتشكيل جبهة موحدة ضد السلاجقة.

اتحدت الأقسام المختلفة للحملة الصليبية عام 1097 في القسطنطينية وبدأت الزحف عبر آسيا الصغرى حيث استولت على المقر الرئيسي في نيسا Nicaa واتخذت طريقها عبر كليكيا الأرمينية باتجاه سوريا على الرغم من أن الظروف المناخية كانت قاسية بصفة خاصة على الفرسان المثقلين بالدروع مما زادت في حجم الصعوبات سواء للعربات(كان الكثير من الفرسان قد اصطحبوا عائلاتهم وخدمهم معهم) أو من الهجمات الخفيفة المستمرة وقد استطاعت القطعات

السلجوقية المتحركة بفاعلية من إعاقة تقدم الجيوش الصليبية التي بدأت تتقدم ببطء في جبهة دفاع مغلقة.

وتمكنت القوات الصليبية من احتلال المدينة الاستراتيجية المهمة اديسا Edessa حيث أسس هناك بالدوين فون بولون Balduin Von Boullon دوقية فيها. وسقطت مدينة أنطاكية بسبب خيانة ضابط أرمني بعد حصار دام ثمانية أشهر. وهكذا جرى احتلال هذه المدينة التي شهدت مذابح للمسلمين كما نهب المسيحيون السكان المحليين. وفي أنطاكية أيضا أسس نورمان بوموند فون تارنت Norman Bohemund Von Tarent إمارة، بصرف النظر عن التنازل الشكلي الذي قدمه قيصر بيزنطة. وبهاتين الإمارتين مكث الكثير من قادة الحرب الصليبية في المناطق المحتلة دون أن يظهروا أي اهتمام باحتلال القدس.

وكان معظم الحكام المسلمون في المدن الساحلية يسمحون للصليبيين باستباحة أراضيهم الخصبة وبساتينهم من أجل إبعاد الأذى عن أنفسهم بما في ذلك بيروت، وكذلك كانوا من خلال إطعام القوات الصليبية ومن خلال تقديم الهدايا لقادتهم و السماح لهم بالتجول الحر في أراضيهم. وهكذا تمكن عشرون ألف مقاتل من الصليبيين من الوصول إلى القدس التي هاجموها بعد حصار دام شهراً في تموز / 1099، والحقيقة أن الحاكم الفاطمي للمدينة وحرسه الخاص ومسلمي المدينة كانوا من عداد الضحايا في المدينة التي لم يستطع أحد أن ينجو منها بحياته، بل وحتى أن أعداداً من يهود المدينة قُتلوا حرقاً في الكنيس الرئيسي للمدينة، وبذلك فارق الحياة حوالي سبعون ألفاً من سكان المدينة.

ويطول الحديث هنا عن الوحشية المنقطعة النظير وقسوة قوات الحملة الصليبية الذين كانوا:" كمن مسّهم الجنون، يقتلون كل شخص يصادفهم في الطريق من الرجال والنساء والأطفال في الطرق والشوارع والبيوت والجوامع، وبدون تمييز".(1)

وبعد الاستيلاء على القدس استتب الأمر لقادة الحروب الصليبية بدعم فعال من أساطيل المدن التجارية الإيطالية ومن المدن الساحلية الشرقية للبحر المتوسط والتي كان قادتها من المسلمين المحليين الذين ارتضوا دفع ضريبة سنوية في علاقة تبعية إلى ملك القدس. وفي علاقة شكلية من التبعية إلى مملكة القدس التي كانت بقيادة بوبلون ولاحقاً أخوه بالدوين. ثم كان هناك حكام إقطاعيون في مدن مثل ايدسا وأنطاكيا ولاحقاً طرابلس. وفي الحقيقة فإن الزعماء الإقطاعيين تصرفوا وكأن الملك في القدس لم يكن سوى شكلياً وفوق ذلك منحت امتيازات خاصة على المقر الرئيسي للتجار الإيطاليين في المدن الساحلية فيما شهد نظام الفروسية نمواً سريعاً، وهم الذين كانوا الحماة الحقيقيين للحملة الصليبية ويبدون وكأنهم رجال وفرسان الملك.

وكان نقل النظام الإقطاعي الأوربي إلى المناطق التي كانت تحتلها القوات الصليبية يعني لجماهير الفلاحين المسلمين والمسيحيين: اشتداد حدة الاستغلال مترافقة مع ضغط إيديولوجي متصاعد, وهذا شكّل الأساس لاضطرابات كثيرة للفلاحين والتي منها: انتفاضات كالتي جرت في عام 1125 في أنحاء بيروت. ولم يحقق قادة الحملات الصليبية أي تحسن في الحياة الاقتصادية للشرق بل كانت هذه بصفة عامة في مستوى أعلى مما هي عليه في أوربا. وهذا ما عبّر عنه ازدهار التجارة التي كان التجار الإيطاليون الذين كانوا ينقلون بتزايد المنتجات الشرقية (مصنوعات) إلى أوربا، كما أنهم أخذوا تقاليد وأساليب زراعية من الشرق وقد استشرق العديد من أمراء الحملات الصليبية ولكنهم لم يتوصلوا إلى الحياة المرفهة للفئات العليا التي عاشوها في الشرق، وهم الذين أخذوا عن الشرق تقاليد وعادات التدبير المنزلي و الملابس التي نقلت إلى أوربا والتي جرى تأصلها هناك. وكان الحجاج المسيحيون(إلى القدس وبيت لحم

ـ المترجم) خير واسطة لعملية التبادل هذه، وكذلك قادة الحملات الصليبية الذين يطلق عليهم في أوربا البرابرة.

أحرز التنامي السريع لاتجاهات القوة المركزية في دول الإقطاع الصليبية، والمنازعات بين الحكام السلاجقة ولا سيما حكام: الموصل، حلب، دمشق، والفعاليات الإرهابية للإسماعيليين الجدد "الحشاشين" الذين سرعان ما بدؤوا بالقتال ضد الصليبيين وضد السلاجقة، أحرز في النصف الأول من القرن الثاني عشر صورة ملونة ولكن مؤقتاً، وبعد عدة نجاحات انهارت تلك الائتلافات وغالباً ما كان يلاحظ وجود حكام مسلمين ومسيحيين في نضال مشترك ضد من هم منتمين إلى دينهم.

وتمثلت نقطة التحول التي كانت في مصلحة القضية العربية والإسلامية، بنهوض أتابكة الموصل، بقيادة عماد الزنكي، فبعد استلامه للسلطة في حلب تمكن عام 1144 من استعادة أديسا والحملة الصليبية الثانية نتيجة لذلك والتي قادها الملك لودفيغ السابع Ludwig VII الفرنسي، والملك كونراد الثالث الألماني Konrad III انتهت بفشل كامل، والقادة الجدد للقوات الصليبية الذين يجهلون المعطيات السياسية المعقدة للشرق، بدؤوا القتال ضد دمشق التي كان سلاجقتها وقادتها قد وقفوا إلى حد الآن مع الصليبيين وقاتلوا معهم ضد الموصل وحلب، كما كان بارونات القدس الإقطاعيين من مملكة القدس يعرقلون حصار دمشق ولكن لم يكن بوسعهم منعه إذ أن مشاعر سكان هذه المدينة قد انقلب بشكل نهائي وتام لصالح الزنكيين وهكذا فقد استلم نور الدين ابن الخليفة الزنكي في المناطق السورية عام 1154 دمشق دون أن يلاقي مقاومة تذكر.

بدا أن اهتمام قادة الصليبيين والزنكيين هي الآن منصبة على السلطة الفاطمية في مصر التي كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة والتي مثّل ميناء عسقلان الحصن الأخير لها في المشرق العربي، وقد فقدتها على أيدي الصليبيين عام 1153 وكانت مصر بسبب موقعها الاستراتيجي وإنتاجها الوافر من الصناعات الحرفية والمنتجات الزراعية وأهميتها في تجارة البحر المتوسط هدفاً مهماً لكل الأطراف المتصارعة على السلطة والسيادة. وبعد معارك عديدة ذات نتائج متباينة فقد تمكن الوزير الفاطمي شاور الذي نال دعماً من نورالدين الزنكي بعد أن أرسل إلى مصر ضابطاً كردياً مقتدراً (شيركو)، تمكن من الانتصار على منافسيه في الداخل وعلى القوات الصليبية التي سرعان ما نالت مساعدة من الملك آمالريش الأول Amalrich I ملك القدس ضد شيركو وقواته.(وكان قد أقيم في القاهرة معسكراً مؤقتاً للصليبيين)، وأخيراً فقد تمكن شيركو في عام 1169 من دخول القاهرة واستلامها.

وكان الخليفة الفاطمي العادل، والذي لم يكن له حول ولا قوة(1160- 1170) (وكما هو مألوف في السنوات الأخيرة) طفلاً على العرش، فكان عليه أن يعين شيركو وزيراً، وهي وظيفة حل بها بعد وفاته بشهرين ابن شقيقه صلاح الدين يوسف بن أيوب (1138 - 1193) وهو الرجل الذي اشتهر في التاريخ الأوربي باسم صلاح الدين Saladin.

وصلاح الدين وهو ابن لضابط كردي يعمل في خدمة الزنكي نفسه وكان ضابطاً في جيشه، ثم أصبح لاحقاً مؤسساً للعائلة الأيوبية في مصر. فبعد وفاة نور الدين الزنكي عام 1174 (وكان تابع له شكلياً) بدأ ينزع نفسه من موقف الدولة التابعة للزنكيين في ظل وضع كانت فيه قدراته وإمكاناته تتطور. وخطوة فخطوة بدأ باحتلال مواقع الزنكيين في سوريا وبذلك أمكن له توفير المقدمات الجوهرية الأساسية في القتال والانتصار على الصليبيين.

وعندما توفي الخليفة الفاطمي عام 1171 استعد صلاح الدين كداعية مجتهد للإسلام السني المتشدد لأن يجعل نهاية للسيادة الشيعية على مصر، وأن يذكر اسم الخليفة العباسي وبذلك اعترف بالخلافة العباسية والارتباط بها وإن شكلياً. وفي عام 1174 - 1175 صادق الخليفة العباسي على سلطة صلاح الدين والأيوبيين ومنحه لقب سلطان. وكانت نهاية الأسرة الفاطمية وكذلك الحل العنيف للوحدات العسكرية المؤلفة من السودانيين والبربر وتأسيس جيش كردي - تركي. وكان النظام السلجوقي مطروحاً كمثال في الإقطاع العسكري جاهز للتطبيق الكامل ولم يجد أي رد فعل من الشعب المصري الذي كان بفئاته العليا والدنيا من المذهب السني. والعقود الأولى من حكم الأيوبيين في مصر وسوريا أدت جزئياً إلى تقدم اقتصادي جديد.
والحكومة الجديدة رفعت الكثير من الضرائب الجائرة، وخفضت الضرائب على الأرض من أجل إدارة الاقتصاد الزراعي. ومن خلال تحسين أساليب الري فقد كسبت أراضي جديدة والبعض من هذه الأراضي أخذت من القطاعات(الأملاك العسكرية) التي هي الآن خاضعة بشكل مباشر لهدف الإنتاج الزراعي ومضاعفة أرباحها.

وكانت إزاحة احتكار الدولة للعديد من الصناعات اليدوية والتجارة قد أدت إلى تصاعد الإنتاج الحرفي وإيجاد أنظمة كمارك مختلفة وأما بالنسبة إلى التجار فقد مثّل ذلك ازدهاراً لعهد التجارة البعيدة المدى كل هذه الإجراءات كانت تعني وجود دولة مركزية قوية، وبالقياس مع الانهيار اللاحق حيث ساد الكساد والفوضى في الاقتصاد والعودة من جديد في اشتداد الاستغلال المباشر للقوى المنتجة.

ومضى صلاح الدين معتمداً على القوات المنظمة المؤلفة من العناصر الكردية ـ التركية، وكذلك على ضعف السلطة الزنكية ومستثمراً ذلك في بناء وتكوين سلطته بصورة منظمة. وبعد عشر سنوات من القتال كان الأيوبيون قد أصبحوا سادة مصر والحجاز واليمن وسوريا وفلسطين(طيلة احتلالها من قبل الصليبيين) وعبر بادية بلاد النهرين.

وقدم رشيد الدين زينان الملقب بعجوز الجبال، وهو رئيس الحشاشين في سوريا تنازلات لرفع الحصار عن قلعته من قبل قوات صلاح الدين في عام 1176 وأكد فيها إيقاف جميع الهجمات الإرهابية ضد أي طرف كان وهكذا تمكن صلاح الدين أخيراً عام 1187 من إلحاق الهزيمة بالصليبيين في فلسطين الذين أنهكوا بسبب قتال دفاعي طويل الأمد في خطوط طويلة ومنها شريط ساحلي طويل، وكان السجن من نصيب ملك القدس وكذلك الشخصيات الدينية والوجهاء ونظام الفرسان وعدد كبير من الشخصيات الإقطاعية والدنيوية.

واستطاع صلاح الدين الأيوبي في مجرى عام 1187 أن يحقق بقواته سلسلة معارك ظافرة، وأن يحرر منتصراً 52 مدينة وحصن بما في ذلك القدس وإلى جانب بعض القلاع بقيت ثلاث مدن ساحلية محصنة وقوية هي : طرابلس، أنطاكية، صور. بقيت بيد الصليبيين بسبب وضعها الجغرافي المناسب. وبقدر ما كان ذلك ممكناً كان موقف المسلمين وقادتهم كريماً عند احتلالهم القدس وفي تعاملهم مع الأسرى والشخصيات المهمة على عكس الفضاضة والوحشية القاسية التي كان غالباً ما يعامل به الصليبيون أسرى المسلمين، وهو السبب في الصورة الرومانسية لصلاح الدين في الأدب الأوربي.

ولكن الصليبيين والحملات الصليبية ظلت عنصراً مهماً في ملعب القوى السياسية في الشرق حتى زمن المماليك والعهد المغولي. وكان لنصر صلاح الدين الأهمية الحاسمة في إطار الدفاع ضد الاستعمار الاستيطاني وهجوم نبلاء الإقطاع الأوربيين.

وبعد وفاة صلاح الدين عام 1193 الذي كان في عام 1191 فقد المدينة الساحلية عكا التي احتلتها قوات الحملة الصليبية بقيادة الملك ريتشارد قلب الأسد، استطاع أخوه العادل الاستفادة من حالة الشقاق والنزاع بين أبناء صلاح الدين واستغلالها من أجل استلام السلطة في مصر وسوريا وشمال بلاد النهرين. وكانت العلاقات بين الأيوبيين والصليبيين منظمة عن طريق اتفاقيات منذ عام 1192، وكانت هذه تضم السيطرة على بعض المدن الساحلية في سورية وفلسطين. وكان الملك العادل قد اهتم بشكل خاص بالعلاقات مع الدول الإيطالية في التجارة مع مصر، وتوجب على ولده الذي خلفه في الحكم الملك الكامل 1218 - 1232 القتال ضد الصليبيين الذين زحفوا على الأراضي المصرية حتى مدينة دمياط الساحلية، ولكن الملك الكامل استطاع إبعاد الصليبيين عن مصر ولكنه في عام 1229 أرغم على قبول طلب من البابا بالتنازل عن القدس للملك الألماني فردريك الثاني بموجب اتفاقية سلام كما عن شريط من الأراضي يصل حتى الساحل مقابل مساعدة قدمها الملك فردريك بدعم السلطة الأيوبية.

وبعد وفاة الكامل بدأ السقوط السريع للدولة الأيوبية، ودار صراع العائلة على الإرث والموروث وبذلك فقد لعب الأتراك من قوات الحرس دوراً هاماً فيما يسمى بدور المماليك. وكان كل فرد من الأيوبيين يسعى لكسب أكبر عدد من المماليك إلى جانبه، وقد أدى ذلك إلى إضعاف شديد للسلطة المركزية. فتمكن الملك الأيوبي الصالح عام 1244 وبمساعدة وحدات من الأتراك الخوارزميين الذين كان المغول قد طردوهم إلى الغرب، تمكن بصورة نهائية وحاسمة من الاستيلاء على القدس من الصليبيين وكانت زوجته ذات الحيوية وولده إلى جانبه، ثم تمكنوا أيضا عام 1250 من طرد الصليبيين من دمياط التي كانوا قد احتلوها قبل عام(أي في 1249)، وكان قادة المماليك الممتازين قد بذلوا مساعيهم بصورة صريحة بهدف الاستيلاء على السلطة. وفي عام 1250 كان قد ظهر على المسرح السياسي في مصر عائلات من المماليك ذات نفوذ قوي وكذلك في أجزاء أخرى من سوريا، وقد استمرت في الحكم والنفوذ حتى الاحتلال العثماني.

ومن الأسباب الجوهرية للحملات الصليبية في الشرق كان التقدم الاقتصادي العام في أوربا في القرن الحادي عشر حتى القرن الثالث عشر، وتأسيس جيوش ملكية في بلدان أوربا الغربية واشتداد النزعة العسكرية ـ الاستعمارية في التوسع باتجاه الشرق. كما كان ذلك من الأسباب الجوهرية للتطور الاقتصادي السريع في أوربا لا سيما دول إيطاليا الشمالية.

أما بالنسبة لسكان المشرق العربي(وكذلك بالنسبة للبيزنطيين) كانت الحروب الصليبية تعني وقبل كل شيء المعارك، الخراب، الظلم والقمع، الخسائر الاقتصادية، والتأثير المستمر على الاقتصاد الأوربي والثقافي وكذلك كان التأثير على أنماط الحياة أمراً وارد الحدوث، فكانت هناك تأثيرات ثقافية كما لعبت إسبانيا وصقلية دور الوسيط في نقل تلك التأثيرات وإبعادها إلى أوربا.

وما كان السلاجقة قد بدؤوا فيه من تقوية العقائد الإسلامية السنية المتشددة، وجد تحت تأثيرات الضرورة في تشكيل جبهة سياسية وأيديولوجية موحدة ضد الحملة الصليبية فقاموا بقفزة جديدة إلى الأمام، هذه القفزة لم تؤد فقط إلى تأسيس مدارس عديدة متشددة حسب النموذج البغدادي له (النظامية)، بل إلى جانب ما اجتهد به صلاح الدين في القاهرة وما زالت حتى اليوم شواخص على هذه الجهود.

1 . Runciman, S. : Geschichte der Kreuzzüge . Bd, München 1957, S.274

إجمالي الفصل

كانت مساحة الأرض الشاسعة التي تضمها الدولة العباسية مع الخليط غير المتجانس من الشعوب بموجب شروط وأنماط الإنتاج الإقطاعي قد شكلت المقدمات الموضوعية التي تمكن من استمرار نهوض دولة موحدة ولكن تدفّق قبائل محاربة من الفرس والأتراك من أواسط آسيا أدى إلى تدهور مكانة ونفوذ وشخصية الخليفة، الأمر الذي كان له أيضاً تأثيراته في نمو الاتجاهات الانفصالية للقادة العسكريين ولحكام الولايات ولدى كبار الإقطاعيين والحركات الكبيرة للفلاحين وفقراء المدن والعبيد. وبدأ انشقاق الدولة العباسية إلى دول إقطاعية محلية رغم اعتراف بعضها بمكانة الخليفة العليا.

ففي هذه المرحلة(أواسط القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر) وصل تطور الإقطاع التقليدي العسكري الشرقي العربي ـ الإسلامي إلى ذروة تطوره، فقد كان ينطوي أيضاً على المنازعات الإقطاعية وصراع دائمي من أجل السلطة ضمن صفوف الطبقة الحاكمة وكان ذلك مترابطاً مع تدخلات ونزاعات لا حصر لها من قبائل غربية ومن قواتها المحاربة التي غالباً ما ساهمت وكان لها تأثيرات سلبية على التبدلات في السلطة الحاكمة في بعض المناطق العربية، كان جانب من هذه التأثيرات سلبياً على صعيد الاقتصاد والثقافة.

وعلى أثر الانشقاق الإقطاعي بدأت تتكون تدريجياً جبهة دفاعية عامة فعالة ضد الغزو العسكري للأوربيين في عصر الحملات الصليبية.

الفصل السادس

تأسيس الدولة العربية الإسلامية في شمال إفريقيا وإسبانيا
(النصف الأول من القرن الثامن حتى النصف الثاني من القرن السادس عشر)

1. شمال إفريقيا بعد الفتح العربي.
2. سيادة الأغالبة.
3. الأمويون في إسبانيا.
4. الأسر البربرية في شمال إفريقيا وإسبانيا.
5. شمال إفريقيا حتى الفتح العثماني.
6. الثقافة العربية الإسلامية وأوربا.

إجمالي الفصل

أولاً: شمال إفريقيا بعد الفتح العربي

وضعت الهزيمة التي حدثت بالقرب من بواتية Poiter عام 732، النهاية الحقيقة للفتوحات العربية كما أنها أثرت على إمكانيات التوسع لحدود ممتلكات الخليفة في الغرب. وحتى ذلك الوقت كانت كافة أراضي شمال إفريقيا وإسبانيا(مع استثناء بسيط في منطقة استويا) هي في أيدي المسلمين وكانت إدارة هذه المنطقة الضخمة موكلة إلى حاكم الدولة في ولاية إفريقيا الذي كان مقره في القيروان ويقوم بجني الضرائب بمساعدة جهاز إداري واسع، كما كانوا يبذلون المساعي في إخماد الحركات والانتفاضات باستخدام القوة العسكرية. ولكن وبسبب بعد مقر الإدارة المركزية دمشق أو بغداد عن العاصمة فقد كان من الصعب السيطرة وإدارة السلطة، لذلك كان الحكام يتمتعون في الواقع بالاستقلال.

وكانت المساعي التجزيئية انطلاقاً من هذا الوضع وبسبب الحركات الاجتماعية والانتفاضات التي كانت تنظوي تحت راية الدين والتي كانت تعبيراً عن رفض ظلم الضرائب التي يمارسها حاكم الولاية قد أدت إلى تأسيس دول عديدة في شمال إفريقيا وإسبانيا أنهت في النهاية سلطة ونفوذ الخليفة في دمشق وبغداد.

نهض البربر المسلمون عام 639-640 في المغرب(يطلق المؤلفون مصطلح المغرب كناية للمغرب العربي الذي يمتد من مصر حتى المحيط الأطلسي ولكنه لا يشمل مصر التي تحسب ضمن المشرق ـ المترجم)، ضد سياسة الضرائب التي كان حاكم الولاية الأموي يتبعها. وكانت الانتفاضة تجري تحت راية الخوارج الذين كانوا وبنتيجة الملاحقة لهم قد فروا بأعداد كبيرة مع أتباعهم إلى شمال أفريقيا، وأصبحت التعاليم الدينية التي يؤمنون بها القاعدة الأيديولوجية للعديد من الحركات الاجتماعية في هذه المناطق. وقد تمكن البربر بقيادة زعيمهم ميسرة عام 740 من احتلال طنجة، وحاصروا عام 741 القوات السورية التي أرسلها الخليفة هشام من سويتا Ceute، ثم بدؤوا بالزحف نحو إسبانيا.

وكان القتال الذي اندلع في سوريا بين قبيلتي قيس وكلاب بما يشبه الحرب الأهلية قد امتد إلى شمال أفريقيا وأسبانيا(ربما بسبب تواجد فروع من هذه القبائل هناك ـ المترجم)، مما أدى إلى ضعف متزايد للسلطة المركزية في هذه الولايات التابعة إلى الخليفة. وقد تمكن حاكم الولاية حنضلة بن صفوان في وقت قصير وهو من قبيلة كلاب، تمكن عام 742 من إيقاف انتصارات البربر في شمال أفريقيا، وكانت الحملة الأولى بقيادة ابن حبيب عام 745(وهو من قبيلة قيس) الذي تسلم السلطة مع العباسيين وعمل تحت لوائهم عام 755، وبدأ بمطاردة آخر الأمويين مما خلق الظروف المناسبة لثورة البربر. وتمكنت القوات العباسية بعد قتال قاس من احتلال القيروان عام 761 وطرابلس عام 772.

وقد مثلت منطقة وسط وأقصى المغرب خسارة دائمة للخليفة إذ أسس البربر عام 757 دولتهم في بني مدرار Bnu Midrar في سلجلماسة التي استمرت لمدة مائتي سنة. وفي عام 761 أسس الخارجي رستم دولة بربرية في تاهرت Tahert التي تسمى اليوم تيارت (في الجزائر) التي استمرت أكثر من مئة عام وأرغمت العباسيين على عقد اتفاقية سلام معها وكان ذلك في عام 787 وأصبحت مركزاً مزدهراً للتجارة.

وبالتعاون مع دولة الخوارج في بني الفرن بتلمسان أعلنت هذه الجماعة السيادة البربرية على منطقة وسط المغرب التي تدعي اليوم مراكش، نهضت عام 877 دولة مستقلة أخرى أسسها

إدريس بن عبد الله الذي فر إلى هناك بعد فشل الأدارسة الشيعية في فاس عام 786، فقد أسس هناك مع الهاربين من عائلة الأدارسة دولة عاصمتها فاس والتي تطورت إلى مركز مزدهر للثقافة والاقتصاد. ومن خلال سياسة ذكية للأدارسة الأوائل تمكنوا من مد سلطانهم بعيداً إلى أواسط جبال الأطلس حتى تلمسان التي أنتزعها من يد بني إيفران. وبعد وفاة إدريس الثاني 828 توزعت الدولة بين أبناءه الكثيرين ثم ما لبثت أن تمزقت بسرعة إلى عائلات جديدة.

ثانياً : سيادة الأغالبة

وجدت الخلافة العباسية نفسها في بداية القرن التاسع في ذروة ازدهارها أحد أسباب سقوطها وهي مساعي الاستقلال الذاتي للقبائل البربرية الذين كانوا في انتفاضتهم يعبّرون عن تطلعات اجتماعية، وهذه المساعي أثمرت في النصف الثاني للقرن الثامن عن تأسيس عدة بلدان في شمال أفريقيا وكانت عبارة عن إقطاعيات تضم علاقات استقلال. وكانت النواحي الغربية من المغرب العربي وأواسطها وكذلك أسبانيا قد أنهت صلاتها بالعباسيين وحتى عام 769 كان القائد الغالب بن سالم قد أوصل نفوذ العباسيين إلى مناطق زاب Zab وإلى الجزائر وقسطنطينة.

وخلف الغالب إبراهيم بن الغالب الذي استفاد من منازعات البلاط في القيروان، ونال على مكانة حاكم الدولة في أفريقيا وأسس هناك العائلة العربية التي عرفت باسم الأغالبة.
فأعلن نفسه في عام 800 أميراً مستقلاً على الولاية العباسية السابقة كما نال اعترافا من الخليفة هارون الرشيد الذي منحه تخويلاً بحكم الولاية. وقد أخضع إبراهيم الأول نفسه شكلياً للخليفة العباسي على الرغم من أن ذلك سيبقيه مرتبطاً بالعباسيين الذين سيستخدمون دولته في الملاحظة والمراقبة كمتراس ضد دول الخارج وغزوات البيزنطيين في البحر المتوسط، إلا أنه كان في الواقع مستقلاً وبذلك أصبح كامل المغرب العربي تحت نفوذهم وسيطرتهم.

وشيد إبراهيم الأول الذي رافق تأسيسه دوله الأغالبة ازدهارا اقتصادياً وثقافياً قصيراً، نظاماً للإدارة بموجب النموذج العباسي، ودعمها بالعناصر العربية والبربرية، فجعل منهم سادة الأرض(إقطاعيين)، وكذلك مع موظفيه وأمناء الخزانة (حاجب Hagib)، بينما كان طيلة فترة حكمه في صراع مع نبلاء الحرب العرب وضباط عرب أرغموه عام 810 على مغادرة القيروان وإرساله القوات البربرية لمجابهة المحاربين العرب المتمردين في مدينة طرابلس عام 812 وأرغموه على الانتشار في مناطق طرابلس.

وخلفه عبد الله الأول 812 - 817 الذي حاول من خلال رفع الضرائب من أجل إنهاء التذبذب في أحوال الدولة واستقرارها ولكنه لم ينل إلا العكس من ذلك، إذ أن تعميق وتأزم سياسة الضرائب أدت إلى تأجيج روح الثورة بين السكان، وتمكن زيادة الله الأول 817 ـ 838 من تثبيت سلطة الأغالبة لبعض الوقت نال فيه دعم الملكيين الذين كان زعيمهم أسد بن الفرات كبير القضاة وقائد الجيش. وكان الأمير قد شكل حرساً لحمايته الشخصية من العبيد السود وحل حاميات الحدود لكي يقضي على تمرد المحاربين العرب، وبذلك فقد أضعف قدرة الدولة على مقاومة الانتفاضات في هذه الحدود الغربية لبربر قطامة. وقد مثّل الزاب وخوارج التاهرت وكذلك بربر سجلماسة وقبائل الزناتة الذين حافظوا عام 813، الخطر الدائم على تلمسان الأدريسية.

وبمساعدة أسد تمكن زيادة الله الأول تمكن من تفادي الأخطار الداخلية التي تهدده من جانب قوات العصاة والمتمردين من خلال حملات الفتوحات باتجاه صقلية وكالابرين Kalabrien. وفي عام 827 كان أسد يقف بأسطوله القوي أمام صقلية البيزنطية وأعقب ذلك تقدم ناجح لمحاولة الفتح الإسلامية.

واحتل الأغالبة بالريمو عام 831 (عاصمة صقلية ـ المترجم) وفي عام 843 ميسينا، وسيراكوز عام 878، وفي 902 تورمينا(مدن في جزيرة صقلية ـ المترجم) وبقيت الجزيرة حتى منتصف القرن الحادي عشر بأيدي المسلمين وقد لعبوا دوراً مهماً في إيصال الثقافة العربية ـ الإسلامية

إلى أوربا كما شكلوا القاعدة لانطلاق الغزوات الإسلامية إلى جنوب إيطاليا، فاحتلوا تارت عام 840. وهاجم المسلمون روما عام 849 بدون جدوى وبعد هجمات عسكرية مضادة فاشلة بقيادة لودفيغ الثاني، تمكن البيزنطيين أخيراً عام 880 من إخراج المسلمين من إيطاليا.

وألحقت الحملات الحربية للأغالبة ضرراً بالغاً باقتصاد الدولة إذ ساد الجوع والفقر في عهد حكم محمد الثاني 875 ـ 874، وأيضاً الجهود الحيوية التي بذلها إبراهيم الثاني 875 ـ 902 الذي كان قد قام بحملة على بربر قطامة عام 893 وهزمهم هزيمة قاسية ولكن لم يعد بمقدوره أن يحول دون عملية تمزق الدولة وانهيارها، وكانت الدعاية الفاطمية سارية بين قبائل البربر ـ قطامة الذين كانوا قد توسعوا في الأرض من خلال الأدارسة، وفي عام 902 نهضت قطامة بقيادة الفاطمي داي عبد الله ضد إبراهيم الثاني، الذي كانت وفاته لصالح هذه الفعاليات إذ اندلعت النزاعات العائلية وتمكن الفاطميون المدعومون من البربر عام 990 من إسقاط حكم هذه الأسرة التي لم يعد بوسعها المقاومة.

ثالثاً : الأمويون في أسبانيا

كان الاستيلاء على أسبانيا من خلال القوى العربية والبربرية قد انتهى عام 715، باحتلال بامبلوناز و استوريا عام 722 ولكن معركة كورادونكاد Coradonge قد انتهت بإيقاف هجوم المسلمين، وبذلك بقيت هناك قاعدة من أجل(استعادة) أسبانيا (1) التي قامت بها قوى مؤلفة من الفلاحين الإسبان المسيحيين وسكان مدن، ونبلاء الإقطاع التوسعيين وحركات الاستيطان. وكان قبل ذلك أمكن عام 732 إيقاف هجوم العرب باتجاه فرنسا، وفي عام 751 تمكن الأمير بيبن Pippin القصير، أن يزيح نفوذ المسلمين من سبتيمانين Septimanien.

كانت إدارة الأندلس (كما أطلق العرب الاسم على إسبانيا) برعاية حاكم ولاية أفريقيا, ولكن السلطة كانت في الواقع بيد الولاة والمحافظين وكبار ملاكي الأرض الذين كان لهم منذ عام مجلسهم في قرطبة ويتلازم تاريخ أسبانيا المسلمة مع صراعات اجتماعية محتدمة، دويلات إقطاعية وصراعات محلية مع عملية إعادة احتلال أسبانيا Reconquiste.

وقد استولت القوى التي ساهمت بفتح الأندلس وهي: البربر والمحاربون العرب النبلاء على أخصب الأراضي الزراعية فيما منحت للبربر أراض أقل خصوبة في وسط إسبانيا لذلك شاع عدم الارتياح في أوساطهم مما قاد إلى العديد من الانتفاضات وشهد عام 741 انتفاضات للبربر في المغرب وأيضاً ثورة في أسبانيا قمعت بواسطة القوات السورية التي كانت قد أخذت إلى هناك وقد تسببت في كثير من الظواهر والتناقضات ذات الطبيعة العميقة. وحاول المقاتلون السوريون من القيسيين الذين كانوا بقيادة بالج Balg والذي حاول بما له صلة بقمع انتفاضة البربر بأن يثير مسألة هيمنة بني كلاب على السلطة السياسية والاقتصادية في أسبانيا.

وقد تمكن بالج عام 741 أن يوجه ضربة إلى البربر المتحالفين مع كلاب وتمكن حاكم مدينة قرطبة لوقت قصير فقط من تهدئة خواطر وثورة السوريين وذلك بمنحهم أراض ممتازة في وادي غواد الكويفر Guad al quivir، ولكن الموقف تغير في القتال الذي تجدد في عام 755، إذ كان الأمير عبد الرحمن الداخل الذي فرّ من العباسيين من دمشق وعبر القيروان تمكن وبالتحالف والتعاون مع قبيلة كلاب والبرابرة من ضرب وإزاحة القيسيين الذين كانوا يهيمنون على السلطة في ولاية قرطبة، واستلم حكم الولاية وتمكن من وضع حجر الأساس لما سينجم عن خلافة أموية في أسبانيا.

وكان على أمير قرطبة أن يناضل من أجل تكريس توطيد سلطانه وأن يكافح ضد انتفاضات القيسيين كما حدث عام 758 ومؤامرات العباسيين كما في عام 763، وتمرد البربر الساخطين 767- 777، كما كانت حملات(الاستعادة) قد بدأت وكذلك مساعي التجزيئية الإقطاعية.
وكان البربر والأسبان قد دخلوا الإسلام(المولدون Muwalladun) وكان الأسبان يطلقون عليهم Renegados، فبدؤوا بالانتفاضة قبل كل شيء على مستأجري الأرض، الصناع اليدويين، عمال الأجرة الذين وجدوا في الإسلام تحرراً ولكنهم باتوا يعانون من ضغط الضرائب. وفي عام 818 اندلعت في ضواحي مدينة قرطبة انتفاضة الصناع اليدويين وعمال الأجرة اليومية والتي قمعت من قبل الأمير الحكم الأول 792 - 822 بقسوة منقطعة النظير، وقد فرّ من استطاع النجاة من الملاحقات الدموية إلى شمال أفريقيا.

وكانت الصدامات الداخلية تتطلب من الإدارة المركزية كامل انتباهها، وتضيف المزايا لهجوم القوى المسيحية المحتشدة في الشمال وبعد فشل حملتها على ساراغوسا و مقتل الكونت

البرتيوني رولاند Graf Roland عام 778 وهو بطل لدى قومه، احتل كارل الكبير عام 801 برشلونة وأسس منطقة المارك الإسبانية نهض بعدها الذين كانوا قد أرغموا على دخول الإسلام في بامبلونة عام 755(أصبحت لاحقاً مركزاً لنافارا) وكان الفونس الثاني ملك استوريا الذي اجتاح ودمر غرب إسبانيا كان قد احتل عام 798 أيضاً لشبونة.

ونزل قراصنة نورمانديون عام 844 في لشبونة ونهبوا سيفليا بل عمد أمير قرطبة إلى تجنيد العبيد من السلافيين والفرانكيين(الفرانكيون هم من القبائل الجرمانية قبل انفصالها إلى عدة عناصر ودول، والألمان والفرنسيون هم أصلاً جرمانيون فرنكيون، ومثلهم الإنكليز والإسبان - المترجم) وهم جنود مرتزقة كانوا يريدون أن يستقلوا عن العرب. وكانت هجمات هؤلاء تنطوي على التحدي والعناد وشهد النصف الأول من القرن التاسع هدوءاً نسبياً وحيال تنامي الميل لدى حكام المناطق لإقامة دويلات إقطاعية وترصين حدودها تجاه الأعداء الخارجيين الذين يستهدفون ساراغوسا(المارك العليا) وتوليدو (طليطلة باللفظ العربي - المترجم) في المارك الوسطى وميرايدا (المارك السفلى) حيث لا يستطيعون حيالها شيئاً: أعلن ابن القس حاكم توديلا بمساعدة مسيحيي نافارا عن استقلاله عام 842، ثم قام في عام 852 باحتلال ساراغوسا وفي نفس العام أسس الموزأرابر Mozaraber (وهم الإسبان العرب) مع المولدين دولة جمهورية الشكل والطابع وقد استمرت بدعم من سكان أوستريا لمدة 80 عاماً وبنفس المعنى أعلن ابن مروان في تحالف مع أوستريا عام 875 في باداجوز Badajoz عن استقلاله وفي نفس العام ابن الجيلاكي Gilliqi في ميريدا، أما في عام 899 فقد توصلت عائلة إقطاعية قيسية للحكم في سفيلاسSevillas.

ومثل الأسباني المسلم عمر بن حفصون الذي ينحدر من عائلة نبيلة في منطقة ويستكوت، وكان قد أصبح ضابطاً في جيش أمير قرطبة الخطر الأكبر الذي كان يهدد بتمزق الإمارة. وكان يقود حركة سخط وعدم ارتياح جماهيرية ما برحت تتسع منذ عام 880 حتى شملت كافة الأندلس، وزاد من خطورته صلاته الوثيقة بالأغالبة منذ عام 910 ومع الفاطميين ودعت هذه المخاطر إلى توحيد جهود الأمويون في قرطبة والحيرسيراس Al Geciras.

ويعود الفضل لعبد الرحمن الثالث 912 - 961 في حفظ الإمارة من الانهيار، بل وقيادتها إلى الازدهار والذي استطاع ولو بشكل رمزي أن يحقق التوازن مع الفاطميين الأقوياء وهو الذي حمل لقب خليفة منذ عام 929 وقد تمكن في فترة حكمه من بناء دولة مركزية قوية ومزدهرة. واستغل بذكاء تدهور وأفول سلطة كارولينا على الحدود الشمالية للخلافة وكذلك التنافس بين الأمراء العرب في المقاطعات وبنفس الوقت عمل على تقوية ونشر مبادئ الفقه المالكي الذي قدم له الغطاء النظري لسياسته التوحيدية. وحتى عام 937 كان قد تمكن من التوسع من سيفيليا المستقلة، باداجوز، توليدو، سراغوسا، ثم أرغم عام 950 ليون وكذلك نافارا وكاستيلين وبرشلونة المسيحية على دفع الضريبة له، وبذلك أصبحت كل إسبانيا باستثناء الإمارات الإسبانية في أيدي سلطة مركزية قوية.

لقد مرّ الاقتصاد والثقافة بمرحلة تطور وقفزة لم يمر بها سابقاً ويعود الفضل في ذلك إلى العرب الذين طوروا أساليب ومعدات الري وكذلك في الاقتصاد الزراعي. وتقدم الإنتاج الزراعي بصفة خاصة في الأندلس إلى درجة عالية حيث كان يزرع البرتقال والرز وقصب السكر والقطن. وكانت أسبانيا على صعيد الاقتصاد الزراعي تعتبر من البلدان الإسلامية الثرية، وكانت ثروات الأرض مثل النحاس بصفة خاصة وكذلك الحديد تستثمر بكثافة.

كذلك ازدهرت الحرف اليدوية في المدن التي كانت بدرجة كبيرة من الإتقان كالأعمال المعدنية التي اختصوا بها وكانت هناك اتحادات العمل (روابط العمل) كتعبير عن حياة الصناع اليدويين التي كانت موجودة في المدن الكبرى. وكانت التجارة من المصادر المهمة للدولة وكان هناك أسطول تجاري قوي يدعم هذه العملية كما كان الأسطول الحربي متفوقاً في القتال ضد القراصنة النورمانديين في القرن التاسع والعاشر.

وكانت المنتجات من المصنوعات اليدوية والسلع الراقية والمنسوجات والمنتجات الخزفية تصدر إلى فرنسا وشمال أفريقيا وتشهد المصطلحات التجارية الفرنسية والإسبانية حتى اليوم بالدور الرائع الذي لعبته الأندلس في تجارة تلك المرحلة وكانت العلوم والفنون وفن العمارة بصفة خاصة قد ارتقت إلى مستوى متطور عالٍ وشيدت أعداد كبيرة من الأبنية الفخمة في عهد الخليفة عبد الرحمن الثالث والحكم الثاني.

وكانت الخلافة الأموية تبذل المساعي من أجل تأسيس إدارة مركزية قوية ومواجهة التوجهات في تشكيل دويلات إقطاعية وكانت البلاد قد قسمت إلى محافظات وولايات وكان على قمة السلطة في هذه الولايات أرستقراطية عربية وكذلك من الرينيكادوس Renegados(الإسبان المسلمون). أما غير المسلمون واليهود بدرجة رئيسية والموز أراب (العرب الإسبان) فكان لهم شيء من الاستقلال الذاتي وكانت جمعياتهم الدينية تدار من قبل رؤساء وكانوا يدفعون الجزية.

ومثّل الخليفة بنفس الوقت القائد العام للجيش المؤلف من المرتزقة الذين كانوا في السابق عبيداً من السلافيين والفرانكيين ولاحقاً من البربر والزنوج من شمال أفريقيا، كما كانوا يؤلفون حرس الخليفة الخاص و في حالات خاصة كان يعتمد على المحاربين العرب والمجندين من أبناء المدن وكان الحاجب هو الشخصية التي تلي الخليفة في القوة وله نفس دور الوزير في الخلافة الشرقية الأرستقراطية ولكنه فقد شيئاً من نفوذه في إدارة الدولة في ظروف صراع العائلات شيئاً من مكانته السياسية.

وتقدم الحكم الثاني 961- 976 بمبادرة إلى الخليفة الفاطمي في شمال إفريقيا، الذي كان قد أظهر اهتماماً كبيراً بالدولة الأموية في إسبانيا منذ انتفاضة ابن حفصون وكانت المنطقة الممتدة من الجزائر وحتى سجلماسة عام 931 تحت قيادة وسيادة خليفة قرطبة ولكن القائد غالب استولى عام 973 على طنجة وسويتا أي على ما تبقى من شمال دولة الأدارسة السابقة.

وأدى موت الحكم الثاني إلى نهاية للعهد المزدهر للخلافة ففي عام 978 كان ابن الأمير وهو إقطاعي ثري من الجسيرا قد تسلم منصب الحاجب وكان قد وقف عام 981 إلى جانب الخليفة هشام الثاني في الصراع من أجل العرش وبذلك بدأت مرحلة مارس فيها هذا الحاجب وبطانته الديكتاتورية 981 - 1008. وقد اتبع الحاجب المذهب المالكي وبتشدد وكان يلاحق المعتزلة كما أنه عزل من خلال إصلاحات عسكرية قادته السابقين خصوم اليوم: الذي فيه خرق للمبادئ القبلية لمقاتلي الإقطاع(التي هي أساس وحدتهم) بجلبه قوات مقاتلي البربر من شمال أفريقيا، وبذلك وجه ضربة حساسة إلى نبلاء المقاتلين العرب.

وقد أطلق ابن الأمير عدداً من الفعاليات العسكرية ضد مملكة ليون وكاستلين إذ قام بحملة ضد برشلونة عام 985 وتمكن عام 1000 من الانتصار على الممالك المسيحية المتحدة ولكن وفاة ابنه وخلفه المظفر عام 1008 تسبب في فوضى وتسيب وكان هناك ما لا يقل عن ستة أمويون وثلاثة برابرة يتنافسون على السلطة وبذلك لم تعد هناك سلطة مركزية.

وقد استغل هذا الظرف أكثر من ثلاثين من أمراء الإقطاع استغلوا الظرف وأسسوا ممالك خاصة بهم وابتدأت مرحلة ملوك الطوائف: العائلة البربرية الحموديين والسريديون كانوا يحكمون ملقا، والكيسراس غرناطة، وكما أسس الضباط السلافيون (من العبيد العاملين في خدمة الجيش ـ المترجم) إمارة صغيرة لهم في الميرا، فالنسيا، طورتوس، وتمركزت العائلة الأندلسية القباديون بقوة في قرطبة وسفيليا وفي عام 1031 أعلن مجلس الدولة في قرطبة عن حل الخلافة الأموية في الأندلس.

ومنح تصدع وانهيار الإمبراطورية الشجاعة والقدرة للملوك المسيحيين من أجل تنشيط عملية(استعادة) إسبانيا بحيوية وفاعلية. وقد أرغم الفونس السادس ملك ليون وكاستيلين أرغم باداجوز، وتوليدو وساراغوسا وسيفيليا على دفع الضريبة له وفي عام 1085 استولى على توليدو وبذلك أنهى مرحلة مهمة من مراحل (الاستعادة)، ولم تعد توليدو بعد ذلك مسلمة أبداً وفي عام 1081 تمكن نبيل كاستيليني اسمه دياز دي فيفر Dias De Vivar من الاستيلاء على فالنسيا الإسلامية.

في هذا الوقت كان الوجود الإسباني في إسبانيا قد أصبح معرضاً للأخطار وقام العباديون بالاعتماد على القوة الإسلامية السائدة آنذاك والتي كانت قادرة على إبداء المساعدة لهم وهم المرابطون من شمال أفريقيا الذين نزلوا في إسبانيا لأول مرة وضربوا وهزموا الملك ألفونس السادس في معركة تسالاكة Zallaqa، وبعد ذلك بخمس سنوات ظهروا من جديد للعمل ضد ملوك الطوائف حتى توصلوا إلى السلطة على مسلمي إسبانيا.

---

(1) يستعمل المؤلفون المصطلح الشائع في التاريخ الإسباني ريكونكويستا Reconquiste، أي الاستعادة على هذه العملية التي استغرقت مئات السنين، وانتهت كما هو معروف بإعادة احتلال إسبانيا فعلاً ـ المترجم

رابعاً : العائلات البربرية في شمال أفريقيا وأسبانيا

عندما غزا الفاطميون مصر بعد ستين عاماً من انتصارهم على الأغالبة في شمال أفريقيا، منحوا السلطة في البلاد التي شهدت أول تأسيس لهم إلى الزيرديين Zirdin وهم تابعين لهم، وقد تمكنت هذه العائلة البربرية أن تحكم وتتسيد على جزء كبير من المغرب من آجار لمدة ما يقارب المائتي عاماً وفي العقود الأولى من فترة حكمهم كانوا مرتبطين بالفاطميين ومن خلال دفعهم للضريبة السنوية، ثم إنهم خاضوا صراعاً قاسياً ضد قبائل الزناتة المنافسة الذين تمتد مناطق نفوذهم إلى مراكش.

وفي العام 949 سقط سلطة الزيرديون في طرابلس التي كانت إدارتها قد منحت لهم من الفاطميين. وبعد مرور خمس سنوات حصل النزاع بين العائلتين عندما حاول الأمير الزيريدي المنصور أن يتخلص من الرضوخ للفاطميين قامت انتفاضات لبربر قطامة الذين كان الفاطميون قد أعطوهم شؤون الحكم في دايس Dais. وفي عام 989 دخل في عدة مناوشات دفاعية ناجحة ضد قطامة وأيضاً في صلات دبلوماسية مع الزناتة والأمويين في إسبانيا الذين كانوا يهيمنون على شمال مراكش في مرحلة هدوء نسبية. وقد عاشت الدولة فترة ازدهار قصيرة لا سيما في فعالياتها التجارية في البحر المتوسط.

وجد الفاطميون أنفسهم أمام حالة انشقاق وانفصال مع من كانوا مرتبطين بهم، بل أنهم وجدوا أنفسهم بعد هزيمة قطامة التي كانت مرتبطة بهم ومتحالفة معهم أنهم في سبيلهم إلى إخضاع الزيريدين، وقد ساعدهم في ذلك حرب القبائل المشتعلة في بداية القرن الحادي عشر في أفريقيا، وقد أعلن حماد وهو أحد أفراد أسرة الزيريدين المتنفذة عام 1014 عن استقلاله في مدينة قالا Qala التي منحت له كإقطاعية مؤسساً بذلك أسرة الحماديون واستسلم للمرتدين قائد الزيريدين المويز Al Muizz عام 1017 ولانهيار دولته بعد حصار فاشل.

وفي عام 1048 اعترف حماد(بأمل وهمي على الدعم) بسلطان العباسيين وكان خضوع الحماديون شكلياً للفاطميين في السلطة التي مارسوها وعرضوا مساعدتهم ضد الزيريدين وقد أعقب ذلك فوراً: أن أرسل الفاطميون القبيلة العربية الهلالية إلى شمال أفريقيا، وكان القصد من ذلك سيان إن هزموا الزيريدين أو هم تخلصوا من هذه القبيلة البدوية التي تشكل في مناطق مصر العليا وخطراً كامناً على الدولة.

ونتائج هجوم الهلاليين كان مهماً وله وزنه فإن مناطق شاسعة من الأراضي الزراعية المستخدمة فعلاً في الزراعة قد تصحرت أو أنها تحولت إلى مراعي. وبقيت الأراضي المطلة على السواحل أو في المناطق الجبلية قابلة للزراعة وكما سقط البعض من المدن المزدهرة والمستوطنات سقطت ودمر المركز القديم القيروان ثم انسحب الزيردون عام 1057 إلى العاصمة الفاطمية القديمة المهدية، وسقطت دولتهم إلى عدد من الإمارات غير المهمة وبدأ الحماديون بالتعاون مع الهلاليين وعندما وجدوا أنفسهم في موقف متين زحفوا إلى بوجي Bougie.

وفي هذه المرحلة من التمزق السياسي لمسلمي شمال أفريقيا وإسبانيا وكانت دولة المرابطين في أقصى غرب المغرب العربي أملاً جديداً لاتحاد هذه المناطق تحت راية الإسلام والمرابطون هم فئة أو جماعة كانت قد انبثقت من حركة طوائف إسلامية وذلك في النصف الأول من القرن الحادي عشر إلى الغرب من الصحراء وفي حوض السنغال. وفي عام 1030 استلم العالم

الديني ابن ياسين(سني/ مالكي)قيادة البدو السناجة الذين كانوا يعيشون في تلك الأرجاء وباشر بإقامة الاتصالات وأخذ يعظهم باتجاه الإسلام والتقشف ثم وجه الإدانة للعديد من الأمراء في شمال أفريقيا متهماً إياهم بالفساد والرفاهية وأعلن عن تكفيرهم وشن النضال ضدهم لإزاحتهم ثم أسس مع بعض أتباعه معسكرات دينية(يسميها المؤلفون أديرة عسكرية Militär Kloster - المترجم) أو رباط Ribat التي ينبغي على المنتمين إليها أن يكونوا زاهدين ومطبقين بصرامة للتعاليم الإسلامية المالكية، وذهبت سمعة المرابطين(ممن يسكنون في الرباط) بعيداً وجلبت لهم الكثير من الأتباع البدو الذين يعيشون في ظروف اقتصادية واجتماعية متشابهة لما كانت عليه شبه الجزيرة العربية في بداية القرن السابع.

وقد مثل الانضباط والقناعة والزهد بواعثاً للعمل ومن خلال المثالية الدينية توفرت شروط مناسبة لتأسيس حركة عسكرية فعالة وحدت البربر. وفيما عدا غزوات المرابطين لغانا عام 1054 كانت هجماتهم مركزة نحو الشمال ضد قبائل البربر من بارقواتة Bargwata والزناتة الذين كانوا يتسيدون مراكش. وفي عام 1055 سقطت سجلماسة، وفي عام 1056 تارودانت، وفي عام 1059 لقي برابرة برقواتة الهزيمة.

وفي غضون ذلك نجح المرابطون أيضاً بصد هجمات الحماديون وفي عام 1062 كان المرابطون قد أسسوا مراكش كعاصمة لهم وبعد ذلك بسبع سنوات احتلوا مدينة فاس وبذلك أزاحوا نفوذ وسيادة بربر الزناتة في شمال مراكش. ثم استولى المرابطون بقيادة قائد الجيش الشمالي يوسف بن تاشفين حتى عام 1082 على مدينة تلمسان ووهران والجزائر وبدون مقاومة تستحق الذكر على الإمارات التي كانت قد تأسست هناك وهكذا اتحدت أوصال المغرب الأقصى والأوسط باستثناء الوجود البربري في الشرق والقبائل القوية وقياداتها.

وفي عام 1074 طلب ملوك الطوائف في إسبانيا المسلمة المساعدة العسكرية من تاشفين وقد لبى المرابطون بعد أن كانوا قد بسطوا سيادتهم ونفوذهم على الجزء الأعظم من المغرب طلب ورجاء المساعدة من العباديين في إسبانيا سواء لصد حملة(استعادة) إسبانيا من القوى المسيحية الشمالية، وأيضا لضرب العوائل المتنافسة فيها

ونزلت قوات المرابطين على البر الإسباني عام 1085 بالقرب من الجيسيراس، وفي عام 1086 ضرب المرابطون قوات الفونس السادس ملك ليون وكاستيلينين. ومع أن تاشفين كان قد ترك 300 مقاتل بربري لحماية ودعم العباديين إلا أنه اضطر للنزول مرة أخرى إلى إسبانيا ولكن هذه المرة ليس لمجرد تقديم المساعدة للملوك الطوائف الذين كانوا يتمزقون ويتشرذمون ولكن من أجل إعادة فتح إسبانيا من قبل المسلمين. وقد تمكن يوسف تاشفين الذي أصبح منذ عام 1088 أمير المرابطين من إعادة السيادة على إسبانيا دون أن يبذل مجهوداً تقريباً وكان قد أمن ظهره إلى قواعده في المغرب فيما كان الأمراء المسلمون في تنافس فيما بينهم.

وفي عام 1090 سقطت غرناطة وقرطبة وسفيليا عام 1091، وساعد على ذلك انتشار مبادئ الفقه المالكي في إسبانيا وفاعليته. وكان هذا المذهب قد ترسخ في العائلات هناك كما جاء كدعم للقسم الأكبر من السكان الذين كانوا تحت نير إقطاع نبلاء المسلمين والذين كانوا تحت وطأة الهجمات المستمرة من قبل الجيوش المسيحية(الاستعادة).

وحتى عام 1110 كان المرابطون قد نجحوا في القتال ضد قوات (الاستعادة)، بل وفي إعادة الجزء الأعظم من إسبانيا المسلمة ولكن ما لبث المواطنون الذي رحبوا بالمرابطين كمحررين، يتصرفون كساخطين وثائرين إذ لم تتمكن عائلة (تاشفين) من إرساء أسس إدارة مركزية متينة،

إذ عهدوا إدارة المناطق التي تفتح في إسبانيا وشمال أفريقيا للقادة العسكريين الذين كانوا يمارسون ضغوطاً قاسية على المواطنين وقد استغلت قوات الاستعادة مظاهر السخط والاحتجاج العفوية التي كان المواطنون يبدونها ففي عام 1118 شن الفونس الأول ملك أراغون هجوماً على مدينة سراغوستا التي كان مواطنوها يكنون له بالولاء، وحتى عام 1126 فقد المرابطون فالنسيا، مورسيا، وشرق الأندلس. أما ليريدا وتورتوسا فقد سقطت بأيدي نبلاء برشلونة الإسبان الذي أرغموا باليرين أيضاً على دفع الضريبة.

وفي عام 1144 هاجم الفونس السابع ملك كاستيلين حتى وصل إلى الميرا وكانت هناك انتفاضة كبيرة 1144 /45 شملت أيضاً نبلاء الأندلس إلى جانب الناس الساخطين وكان ذلك سبباً في نهاية عهد المرابطين في إسبانيا. وكان حلول عائلة بربرية جديدة في مراكش قد جعل ذلك ممكناً وهم الموحدون الذين كانوا حتى عام 1121 قد عرضوا من خلال هجمات قوية سلطة المرابطين للاهتزاز وفي عام 1147 تمكنوا من إزاحتهم باحتلالهم مدينة مراكش وهكذا تجزأت إسبانيا مرة أخرى إلى عدد كبير من الدول البعض منها كان يعترف بالسيادة العليا للدول الإسبانية المسيحية، والبعض الآخر كان يتبع الموحدين.

وكانت عائلة الموحدين على شاكلة المرابطين فهم نتاج حركة دينية إسلامية(في الواقع فإن المرابطين والموحدين ليسوا عوائل بالمعنى المعروف، بل إنها جماعة وفئة قائمة على أساس المذهب أو المعتقد الديني ـ المترجم) ومؤسس هذه الأسرة هو ابن تومارت الذي يعود في أصله إلى أرستقراطية حركة بربرية في جبال الأطلس وقد عاد من رحلة دراسية في إسبانيا وبغداد مزوداً بتعاليم دينية. وبعد عودته إلى المغرب بدأ بالوعظ في عاصمة الحماديين بويجي باللغة البربرية في مبدأ التوحيد توحيد الله، وهي تعاليم إسلامية متشددة.

وفي عام 1118 طرد من تيجي فحط رحاله أخيراً في مدينة تيمنال المراكشية، وبمساعدة أقرب المساعدين من أتباعه عبده المؤمن، جعل لنفسه مقراً للوعظ، وهناك حيث استوطن العديد من برابرة المصمودة Masmuda الذين كانوا كغالبية القبائل البربرية في شمال أفريقيا من الذين كانوا ساخطين على المرابطين لذلك انضموا سريعاً إلى مبادئ الموحدين في بناء تدريجي وبانضباط قاسي على نمط أسطورة مهدي بن تومارت على أمل إزاحة الظلم عن كاهل المضطهدين تحت راية هذا التيار الديني الجديد. وفي عام 1121 بدأت هجمات الموحدين ضد المرابطين على الصعيد المحلي وتولى قائد جديد بعد وفاة مهدي في عام 1130، وأخذ لقب خليفة كسلفه وبدأ بتركيز المساعي والجهود لنشر سلطة الموحدين على كامل شمال أفريقيا، لتنفيذ إرادة قائده الروحي. وفي عام 1145 تمكن أخيراً من إحراز الانتصار الحاسم على المرابطين قرب تلمسان، ثم تمكنوا بعد سنتين من احتلال عاصمة المرابطين مراكش.

وكانت الحركة الدينية قد وضعت حجر الأساس لدولة الموحدين، وكان عبد المؤمن من بين المؤسسين لحركة الموحدين. ثم وسعوا سلطاتهم على كافة المغرب وفي عام 1148 حدثت انتفاضة بارغافاتا البربرية في مراكش وحتى عام 1151، حيث أرغم الموحدون خصومهم(العائلة الحمادية الضعيفة) على الاستسلام بعد أن أضعفتهم هجمات المرابطين والنورمانيون في المدينة الثرية تيجي التي تقع على طرق التجارة.

وبعد سنة واحدة منيت القبيلة العربية البدوية الهلالية بهزيمة إبادة بالقرب من سطيف وهرب الناجون منهم بأرواحهم إلى مراكش وباحتلال المهدية عام 1160 تم إنهاء كامل لنفوذ النورمانيون الصقليون وبقايا سيادة الزيريدين في أفريقيا وبذلك أصبح الموحدون السلطة الإسلامية الأولى في شمال أفريقيا.

كانت الملكيات الإقطاعية وعلاقات الاستغلال قد توطدت واستقرت وتحول الموحدون إلى أسبانيا بعد أن عانى الأمراء المسلمون عام 1150 في غرب الأندلس من ضغط(الاستعادة)، فقد طالبوا بحماية دولة الموحدين. ونزلت عام 1161 قوات الموحدين في جبل طارق واستولت على غرناطة عام 1162، ولكنهم فشلوا حيال مقاومة مدينة سيفيليا التي كانت بأيدي الإسباني المسيحي ابن مرداش، وكانت انتفاضة بربر غومارا عام 1167 قد شدت قوى الموحدين لفترة طويلة في المغرب. وهكذا تم في السنوات الخمس الأولى الاستيلاء على سيفيليا لكن هجمات أخرى ضد توليدو كانت قد فشلت ثم أن انتفاضات البربر في أفريقيا وكذلك قبائل عربية في مراكش وهجمات بنوغنية المرابطون عام 1184 من باليارن على تيجي قد هزت من سيادة الموحدين الذين يتلقون دعماً معنوياً من الخليفة في بغداد، وحتى عام 1203 كان نفوذهم قد امتد للمنطقة الممتدة من بونة حتى جبل نافوسة. وبنفس الوقت كان وضع الموحديين يتعرض للتعقيد في إسبانيا حيث بدأ الهجوم العام لقوى (الاستعادة) ولكنها هزمت على يد القوى الإسلامية. وكان عهد الخليفة المنصور 1184 - 1199 مرحلة هدوء نسبي. وفي عام 1190 عقدت اتفاقية هدنة لمدة خمس سنوات مع الممالك المسيحية في ليون وكاستيلين.

وقد عاشت دولة الموحدين عصراً مزدهراً ولكن التقدم الاقتصادي والثقافي لم يستطيع أن يحول دون التمزق الداخلي، وكانت التناقضات بين القطبين ذوي النفوذ السعيديين(المنحدرين من مؤسس العائلة عبد المؤمن)والشيخ(نسبة إلى المنحدرين من صفوف نبلاء الموحدين) قد اشتدت والتعصب والتشدد الديني قد بدأ بالاتساع، بل وتمكن الموحدون عام 1195 من إحراز نصر عسكري بالقرب من الأرسوز على قوات (الاستعادة) ولكن مع ذلك فإن هذا النصر لم يغير من توازن القوى في إسبانيا لصالحهم وكانت جميع القوى قد تحولت ضد المرابطين وسيادتهم في ولاية أفريقيا. ولكنهم انتصروا أخيراً بعد معركة قاسية عام 1209 في معركة جبل نفوسة فيما برز بصفة خاصة أبو محمد ابن حافظ كأرستقراطي من صفوف الشيخ الذي عين حاكماً لولاية أفريقيا.

وفي هذا الوقت تمكن ملوك إسبانيا المسيحيون(كانت في إسبانيا عدة دويلات مسيحية ـ المترجم) أن يحرزوا نصراً حاسماً ضد الموحدين وضد آخر حصن من حصون المسلمين في إسبانيا. وبمساعدة البرتغال والبابا عندما ألحقت قوات الفرسان في 16 / تموز / 1212 هزيمة قاسية بالمسلمين بالقرب من لاسنافاس دي تولوسا.

وقد أدى فقدان إسبانيا إلى أفول دولة الموحدين ونشب صراع على السلطة بين سعيد والشيخ بصورة واضحة ومكشوفة مما ألهب مسألة الخلافة، كما أن مسلسل اغتيال الخلفاء ألحق الضعف بالسلطة المركزية وكان الصراع مريراً بين المرشحين للخلافة من كلا الطرفين ومن مختلف القبائل. وكان للقبائل العربية التي كانت قد استوطنت مراكش دوراً حاسماً، وتسلمت السلطة عام 1229 في شمال أفريقيا أفراد من الموحدين فأسسوا فيها حكم عائلة الحافظيين في تونس.

وفي وسط المغرب استغل البربر الزناتيون ضعف السلطة المركزية إذ أعلن أمير تلمسان عام 1285عن استقلاله وترميم حكم عائلة الزناتة تحت حكم عائلة جديدة هي: عبد الواد. ووجه البربر من بنو مارن الضربة الأخيرة ضد حكم الموحديين من مراكش، وبذلك كان قدر الموحدين قد حسم واستلمت عائلة ماريني الحكم في مراكش.

وكانت دولة الموحدين الضامن الأخير للوجود الإسلامي الآمن في إسبانيا وانهيار ذلك كان يعني نهاية للأندلس بل وأن عائلة الناصر استطاعت وبفضل دبلوماسية ذكية أن تحكم لمدة تزيد على 200 عاماً في غرناطة مقابل الكاستليتين(منذ عام 1230 في إمارة صغيرة. وفي النصف الثاني للقرن الرابع عشر كانت ذروة ازدهارها) كان الحاكم الأمير أبي عبد الله قد أرغم عام 1492 على الاستسلام لمحاصريه الإسبان، وفي عام 1614 غادر آخر الموريسكيين Moriscos(أطلقت هذه التسمية على العرب الذين عاشوا وحكموا في إسبانيا ـ المترجم) وبدأت تطاردهم مراسم هيئات التفتيش Inquisitors Torquemada.

خامساً : شمال أفريقيا حتى الفتح العثماني

بعد سقوط الموحدين الذين كانوا قد عملوا جاهدين وساعين لتوحيد المغرب العربي عبثاً. فناضلوا ضد التجزيئية الإقطاعية ومساعي الحكم الذاتي لدى القبائل البدوية وهجمات قوات (الاستعادة). وكان الصراع قد اشتد في شمال أفريقيا بين العديد من الدول الإقطاعية المتنافسة. وكان تاريخ المغرب حتى الاحتلال العثماني عبارة عن صراع مرير بين المارينيين Marin والوطاسيين، والحافظيين، وعبد الواد، وكان نفوذ القبائل العربية في غضون ذلك يتزايد باستمرار في شمال أفريقيا.

وصلت الانقسامات الإقطاعية إلى ذروتها وكانت قوى المقاومة لدول البرابرة تضعف بصورة مستمرة، مما سهّل تقدم ونجاح هجمات البرتغاليين والإسبان والعثمانيين وحطم قراصنة هذه القوى العلاقات التجارية التقليدية بين شمال أفريقيا وأوربا وكذلك انتقال تجار الذهب السودانية من المغرب إلى مصر كما كانت تعني عزلاً اقتصادياً متزايداً لغرب شمال أفريقيا.

وكان البربر من بنو مارن مع قبائل الزناتة منذ بداية القرن الثاني عشر قد قاوموا الموحدين. وكان التمزق الإقطاعي الذي لم يزل مستمراً بعد معركة لاس نافاس دي تولوسا في الدولة، يوفر الفرصة من أجل سيادة الزناتة في أقصى المغرب. وفقد الموحدون على الرغم من تحالفهم مع عبد الواد حتى عام 1286: مكناس، فاس، سجلماسة، و تمكن المارنيون في عهد أبي يوسف وقيادته 1268 - 1286 الذي كان يحمل لقب خليفة من إحراز نصر نهائي على الموحدين باحتلالهم مدينة مراكش 1269.

وقد بذل أبو يوسف جهوداً كبيرة من أجل توحيد دولته مقابل مساعي التجزئة لقوى الإقطاع أو بسبب القبائل العربية الثائرة من خلال توسع عسكري نحو الشرق(عبد الواد - حافظ) وإلى الشمال (إسبانيا). وكان المارنيون آخر العوائل الإسلامية التي حاولت الدفاع عن الوجود الإسلامي في إسبانيا بوجه مساعي (الاستعادة). قد طلبوا مساعدة الناصريون حكام غرناطة عام 1275. ثم هزموا الكاستيلين بالقرب من أكييا Ecija، وأخذوا بثأر معركة لاس نافاس دي تولوسا. وبعد تحقيق النصر على أسطول الملك سانشوس Sanchosعام 1291 خرق الإسبان الاتفاقية ولكن المارنيون خسروا في المعارك اللاحقة حصن تاريفا Tarifa بسبب الانتفاضة المستمرة للقبائل العربية وخيانة الناصريين التي أضعفت موقفهم.

وفي العام 1340 استطاع الأسطول المارني بدعم من الحافظيين مهاجمة أحد الحصون البحرية، وفي عام 1344 نجحت جيوش الفرسان (الاستعادة) بطرد المارنيين من إسبانيا وإلى الأبد.

ولم تكن إلا القليل من الحملات الحربية باتجاه الشرق موفقة، ففي عام 1299 هاجم المارنيون بقيادة أبو يعقوب 1286 - 1307 دولة عبد الواد المتحالفين مع غرناطة، وأخضعوا لحكمهم أواسط المغرب حتى الجزائر ولكن حكم المارنيين اهتز عام 1307 بفعل إقطاعية جديدة
إذ هاجم أمراء الإقطاع سويتا عام 1306 وسجلماسة عام 1315 السلطة المركزية مما ألحق بها الضعف والوهن وتسليم المواقع التي كانوا قد كسبوها من عبد الواد ليس هناك من فضل سوى لسياسة الخليفة أبي الحسن 1331 - 1351 الذي أوقف الخطر الذي كان يهدد سقوط الدولة، كما أنه أوصل عائلة المارن إلى الذروة وهو الذي ضرب الإقطاعيات الكبيرة التي كانت تحوز إمارات كما أنه حصر توزيع الإقطاعيات للقبائل العربية شخصياً.

و تمكن بمساعدة الحافظيين في عام 1337 أن يجدد إخضاع عبد الوادي واستولى في عام 1347 على عاصمة الحافظيين تونس، ولكن الخلافات على السلطة في فاس ومقاومة القبائل العربية أرغم الأمراء الحافظيين المارنيين على الانسحاب. ولم يتمكن حتى الخليفة أبو عنان 1351 - 1358 من تثبيت سلطة المارنيين وسط وشرق المغرب.

ولكن برغم هذه الإخفاقات العسكرية عاشت دولة المارنيين ذروة ازدهارها فقد كانت لهم صلات تجارية مثمرة مع دول شمال إيطاليا التجارية وكذلك مع مرسيليا(فرنسا) وكاتالانيا(إسبانيا) في الجلود والسجاد والحبوب والسكر والعبيد. وكان يتم تبادل هذه السلع بالمعادن والنبيذ والقماش وبالدرجة الأولى تطورت العاصمة فاس إلى مركز رائع للفنون والعلوم.

وبعد اغتيال أبي عنان أصبح العرش المارني كالكرة تتقاذفها القبائل الإقطاعية المتنافسة، إذ كانوا يرغمون الخلفاء المتعاقبين على تنفيذ أهوائهم ورغباتهم وحتى الأسرة الناصرية الحاكمة في غرناطة كانت تتدخل في صراع العوائل وكان الإسبان والبرتغاليون بصفة خاصة يستثمرون الفوضى السياسية السائدة وذلك بتنفيذ هجمات على البلاد. فاستولت القوات الإسبانية في عام 1991 على مدينة تطوان, كما استولى الأسطول البرتغالي عام 1415 على سويتا، وفي هذا الموقف الذي يتصف بالصعوبة البالغة للمارنيين استلمت الأرستقراطية البربرية السلطة من بنو وطاس، وفي عام 1420 استلم أحد ممثلي هذه الأسرة وهو أبو زكريا منصب حاكم مدينة سالي Sale، الوصاية على الخليفة الذي لم يبلغ سن الرشد بعد، وبذلك أسس أسرة الوطاسيين التي حكمت في فاس بعد سقوط أسرة المارنيين عام 1458.

وعلى كل حال فقد عارضت القبائل البربرية القاطنة في الجبال المراكشية والأخوة المرابطون في الجنوب هذه الزعامة وهكذا لم يكن بوسعهم إبداء المقاومة الفعالة لغزوات وهجمات البرتغاليين الذين كانوا حتى عام 1520 قد احتلوا كافة مناطق الساحل المراكشي، ثم بدؤوا بالزحف إلى داخل البلاد وبذلك انهارت السفرات الملاحية المراكشية. وتخطت المقاومة مبادرة بني سعيد التي هي على الأغلب قبيلة عربية الأصل وبمساعدة النفوذ الذي كسبه الأخوة المرابطون بدأ القتال ضد البرتغاليين تحت شعار الجهاد للحرب المقدسة فاستعادوا عام 1541 منهم أغادير وصافي وأزمور.

وبعد هذه المعارك التي كانت تنطوي على استعادة للهيبة، لم يكن إسقاط الوصاسيين الضعفاء صعباً وكانوا قد جعلوا من مراكش عاصمة لهم عام 1525، ثم مدينة فاس عام 1549 وقد حاول آخر حكامهم (الوطاسيين) أبو حسون أن يستعيد عرشه في الجزائر بدعم من الأتراك، ولكنه قتل بعد مرور عام على ذلك بضربة رمح من أحد مقاتلي السعديين.

واستغل عبد الواد عام 1235 وهو أحد عناصر الفئات العليا للبربر(مثل بني مارن الذين هم أحد أفرع قبيلة الزناتة) ضعف للموحدين، وأسس في غرب الجزائر الحالية حكم عائلة عبد الواد، واتخذ من تلمسان مركزاً لهذه الدولة وهي مدينة تجارية ثرية تكسب كثيراً من تجارة الترانزيت بين أفريقيا وأوربا والتي يمتد تاريخها لمدة مائتي عام حيث كانت مركزاً لدولة عبد الواد التي طبعت بطابع الصراع الدائمي مع الجيران المارنيين والحافظيين وكذلك في انتفاضات قبائل العرب والبربر وزعماء الإقطاع الذين فعلوا ما بوسعهم من أجل تقويض وحدة الدولة والتي وجد القراصنة الإسبان والأتراك الظروف المناسبة لغزواتهم.

وفي عهد الحكومة الأولى لعبد الواد 1835 - 1283 تمكن الحافظيون من إخضاع يعمور راسان لوقت قصير وذلك في عام 1242 ولكن الخطر الأكبر كان من المارنيين الذين كانوا بتحالفهم مع القبائل العربية في الغرب يهاجمون وبإسناد من قبل بني سويد أن يخضعوا الحافظيين في تيجي.

واحتل المارنيين عام 1299 تلمسان، ولكن مقاومة السكان وكذلك اغتيال الحاكم المارني أبي يعقوب عام 1307 أدى إلى نهاية مؤقتة لهذا الاحتلال الذي أعقبه صراع على الحكم والنفوذ بين العوائل الإقطاعية وعبد الواديون(عائلة عبد الواد) الذين حاولوا ضرب انتفاضة القبائل العربية المتعاطفة مع المارنيين والتوسع نحو الغرب والشرق، ولكن دعم الإقطاعيين العرب تجدد لعبد الواديين عشرين عاماً مع تهديدات المارنيين بغزو الحافظيين عام 1337. وفي عام 1350 تمكن الأمير أبو ثابت(عبد الواد) بمساعدة القبائل العربية التي كانت قد طردت من تونس من ضرب الخليفة المارني أبو الحسن، ولكنه وبسبب اضطرابات في القصر وعصيان الجيش اضطر أن ينهي احتلاله لتلمسان.

وعادت القبائل العربية التي كانت تؤيد عرش ابن الواد عام 1359 مرة أخرى لمساعدة أبي موسى الثاني حتى عام 1389 في السلطة. وبعد صراع جديد مع ائتلاف عربي - مارني تمكنوا من خلال اتفاقية سلام لمدة عشر سنوات من تأمين فترة ازدهار لدولة عبد الواد. وبعد وفاة أبي موسى الثاني تواصلت الصراعات بين العوائل وتابعت عملية تمزق الدولة إلى العديد من الإمارات الإقطاعية التي أدت إلى تمزق سلطة الدولة المركزية.

وقد وصل الحافظيون والمارنيون والوطاسيون في حكمهم إلى تسيد الإمارات التي نجمت عن سقوط عائلة عبد الواد، وهكذا لم يلاقي الغزو الإسباني أي مقاومة تستحق الذكر عندما احتلوا المرسى الكبير عام 1505 وتيبيس ووهران عام 1508 وبعض الجزر قبالة الجزائر عام 1510، وفي عام 1520 أخضع الإسبان حكام عبد الواد في تلمسان ولكن سكان الجزائر(بصفة خاصة أبناء القبائل العربية الثعالبة والماور الذين هربوا من إسبانيا بعد سقوط النزاريون في غرناطة) بدؤوا القتال ضد الإسبان.

وطلب عبد الواد عام 1515 من القرصان التركي آروج Arug المساعدة وتمكنوا نفس العام من إحباط هجوم إسباني على المدينة، وإعادة احتلال مدينة مينيس وميديا منهم وطرد الدولة العميلة للإسبان في تلمسان(من أسرة عبد الواد)، وفي عام 1518 قُتل هذا القبطان ذو اليد الواحدة في قتال مع الإسبان بالقرب من ريوسالادو Rio Salado وخلفه شقيقه خير الدين باربروسا 1450 - 1546. وقد أدرك السلطان العثماني سليم الأول أية أهمية وفائدة تكمن في سيادة القراصنة الأتراك في شمال أفريقيا للدولة العثمانية في صراعها مع إسبانيا في السيادة على البحر المتوسط لذلك فقد عين خير الدين عام 1519 بوظيفة (بيلر بيي) والياً للحكومة التركية ووضعوا في عهدته قوات إنكشارية(وهي قوات مؤلفة من جنود ذو أصول وانحدار من المسيحيين الأسرى ودُرّبوا ليصبحوا جنوداً) و أسلحة تحت تصرفه ثم أصبح هذا الرجل فيما بعد القائد العام للأسطول التركي عام 1533، وقد تم في الجزائر بناء ميناء لا يمكن احتلاله، وقد أوقف احتلال العديد من المدن الساحلية إلى الشرق من المدينة مساعي التوسع الإسبانية، ولكنه أخيراً لقي حتفه على يد الأسطول الإسباني أمام مدينة الجزائر عام 1546 .

كانت السلطة التي أسسها خير الدين باربروس تعبر حتى عام 1587 عن مصالح الإمبراطورية العثمانية التي كانت تقف بوجه الإسبان والمراكشيين السعديين، ومن ثم قامت بإنهاء كامل ونهائي لسلطة عبد الواد من حكام تلمسان الذين كانوا يحاورون ويناورون بين

الإسبان والأتراك من أجل حماية ما تبقى من دولتهم ثم سقطوا أخيراً كضحية عام 1550 إذ احتل السعدي محمد المهدي المدينة بصورة مؤقتة، ولكن الباشا التركي صلاح الريس الذي كان مقره في الجزائر، وضع نهاية لحكم هذه العائلة.

وفي عام 1228 توصل الحافظيون إلى السلطة وهم الذين عدّوا أنفسهم خلفاً للموحدين في تونس. وفي عهد الأمير أبي زكريا 1229 - 1249 وخلفاً للموحدين في تونس. والمستنصر 1249 - 1277 الذي حمل لقب خليفة عام 1253. عاشت الدولة عصراً مزدهراً قصيراً، وعقدت الاتفاقيات التجارية مع البندقية، بيزا، جنوا، أرغون، وكان لها أبلغ الآثار التجارية، وكذلك العلاقات الدبلوماسية مع ملك صقلية كارل فون آنجون Karl von Anjon، ومع ملك أراغون وكذلك مع شريف مكة ومماليك مصر، وبذلك خلقوا المقدمات السياسية الخارجية من أجل التوسع وفي عام 1275 احتلت الجزائر, ولكن وفاة المستنصر تسبب في صراع الإقطاعيات المستمر الذي زعزع وحدة الدولة.

وقد تحالف أحد أخوة المستنصر(أبو إسحاق) مع ملك أراغون(دولة مسيحية بين إسبانيا وفرنسا ـ المترجم) بيدرو الثالث PedroIII الذي أصبح حاكماً لجزيرة صقلية أيضاً عام 1282، وكذلك مع عبد الواد من حكام تلمسان كما مارس الوحشية في سلطته في جنوب تونس حيث أرخى العنان للمغامرة في احتلال تونس عام 1283.

وتمكن الخليفة الحافظي أبو حافظ في عام 1284 بمساعدة القبائل العربية سويلم من إحراز النصر على العصاة، ولأجل خدمتهم تلك نالت سويلم أراضي واقطاعات من أراضي الدولة. وقد سارعت عملية توزيع الأرض هذه في تنامي الإقطاع بسرعة، وأدى إلى زعزعة قوة السلطة المركزية ووفرت الفوضى التي أشعلت الأجواء لهجوم أسطول مملكة أراغون بقيادة روجر دي لوريا Roger de Loria الذي كان قد احتل جربة في نفس العام منطلقاً من صقلية. وفي النصف الأول من القرن الرابع عشر كان الخليفة أبو بكر 1318- 1346 قد تمكن من إعادة توحيد الدولة وقد استفاد من المساعدات التي قدمها له المارنيون والسويلم ضد غزوات عبد الواد بل إنه تمكّن في عام 1335 من استعادة جربة, ولكن بعد وفاته بسنة واحدة فقط انهارت دولة الحافظيين تحت ضربات المارنيين الذين كانوا في هذا الوقت قد بلغوا الذروة في السلطة والقوة. وكان حكامهم أبو الحسن وأبو عنوان يبذلان الجهود عبثاً من أجل القضاء على مقاومة القبائل العربية وترسيخ سلطة الدولة في شرق المغرب. وفي عام 1458 فشلت آخر غزوة لهم أمام بونة.

وبعد انسحاب المارنيين تقاسم الدولة ثلاثة من أمراء الحافظيين فيما بينهم، وبعد بذل جهود جبارة تمكن أحدهم (أبو العباس) أمير قسطنطينة أن يضم تحت حكمه حتى عام 1370 مناطق تمتد بين ديلس وتونس وبدأ يضغط على قوى الإقطاع التجزيئية وعلى مساعيهم. وفي غضون مساعيه تلك بسحب قطع الأراضي الممنوحة، انطلقت من يوجي ومهدية فعاليات القراصنة ونشاطهم في البحر المتوسط الأمر الذي أدى عام 1390 إلى ضربة مشتركة من فينيسيا وجنوا ضد المهدية.

وعزز الدفاع الناجح الذي أبدته المدينة ضد هذه الهجمة من مواقع أبي العباس وخلفه أبو فارس وقوّى من التعاليم المالكية السنية المتشددة 1399 ـ 1434 وتابع السياسة الناجحة لسلفه واحتل حتى عام 1410 مدينة طرابلس، قفصة، بسكرة، والجزائر، وفي عام 1449 احتل الحافظيون توغورت، وفي عام 1466 حملوا على مدينة تلمسان.

وفي عام 1472 أرغم الأمير الحافظي عثمان الشيخ الوطاسي على إقامة علاقات تبعية وبدت دولة الحافظيين في حالة تقدم وازدهار ولكن انتفاضات القبائل العربية والملاك الإقطاعيين كانوا يضعفون سلطة الأمير من الداخل ومن خلال ذلك وضع القراصنة الإسبان يدهم على تجارة البحر المتوسط الذي كان حجر الأساس الاقتصادي للدولة وسبب الكثير من الخسارة. وفي عام 1398 هوجمت مدينة ديلس ثم هاجمت سفن الملك الفونس الخامس ملك أراغون جربة عام 1432.

وفي حوالي القرن الخامس عشر بدأت تتشكل وبصفة نهائية عوامل سقوط عائلة الحافظيين. وفي مسلسل من الاغتيالات السياسية التي قادت إلى الفوضى والتي حاولت إسبانيا أن تستغلها. وفي عام 1520 نزل قراصنة إسبان من تيجي، وبعد مرور عام في ويلس، وفي عام 1535، وأخيراً أصبحت دولة الحافظيين تحت الحماية الإسبانية.

ولكن نهاية العائلة لم يكن بفعل الإسبان ففي عام 1556 تمكن القرصان التركي تورغوت جافاسا من احتلال القيروان عام 1558 ، و فشلت الهجمات الإسبانية المقابلة، واستطاع الأسطول الإسباني عام 1560 من تدمير سفن تركية بالقرب من جربة كانت قد جاءت لمساعدة تورغوت، ولكن بالمقابل فقد تمت إبادة الحامية الإسبانية على الجزيرة ثم تم تشييد برج من رؤوس الضحايا (برج الرؤوس Burg arus) الذي ظل موجوداً حتى عام 1846، وقد احتل القراصنة الأتراك تونس للمرة الأولى بدعم من بيلر بيي (الحاكم العثماني) عام 1569، فيما هرب الحكام الحافظيون إلى الإسبان الذين أعادوهم عام 1573، وأعادوا احتلال الدولة والإمارة الحافظية. ولكن القائد التركي سنان باشا عاد إلى تونس بعد مرور عام واحد، وأقام السلطة العثمانية وبذلك انطفأت العائلة الحافظية.

سادساً : الثقافة العربية الإسلامية وأوربا

ارتبط التطور الثقافي في شمال أفريقيا الإسلامية وفي إسبانيا بشكل جوهري بالخلافة في المشرق العربي، وتستحق تلك المساهمات الاهتمام من العناصر غير العربية أيضاً في هذا المجال ومنهم اليهود والبربر، بالإضافة بالطبع للعرب في سبيل نهوض ثقافة عربية ـ إسلامية سواء كانت المساهمة في الخلق أو الإيصال، وهذا يختص بدرجة رئيسية في ميدان الآداب.

وقد جاء ما هو عظيم الأهمية في هذه المنجزات والجهود، جاء على الأقل في دور ومهمات شمال أفريقيا وأسبانيا كوسيط لمكاسب كثيرة للثقافة العربية الإسلامية إلى أوربا في العصور الوسطى. وبدرجة رئيسية اليهود وعرب إسبانيا Mozararabern الذين يستحقون الذكر من خلال الترجمات للأعمال الأوربية والمعارف والتنكيك والعلوم الطبيعية والفلسفة وقاموا بتعريفها. ومن خلال الخلافة العربية ـ الإسلامية استفادوا منها بصورة فعالة وقاموا بتطويرها. ووفرت العلاقات التجارية المتينة بين شمال أفريقيا الإسلامية وأسبانيا من جهة، والعلاقات مع مدن جنوب فرنسا وشمال إيطاليا التجارية من جهة أخرى لأوربا الفرصة في إقامة اتصالات مثمرة مع الثقافة العربية الإسلامية.

وهناك عدد كبير من العلماء الأفذاذ في أوربا من خلال العصور الوسطى الذين كانوا يتعلمون باللغة العربية مثل: آرد فون باث Adel von Bath 1090 - 1160 ، ميخائيل سكوت Michael Scott المتوفي عام 1235 ، وكانوا يدرسون في الجامعات الإسبانية ومدارس الترجمة التي كانت منظمة وعلى رأسها تلك التي في طليطلة التي كان يديرها دمنغو غودي سالفو، Domingo Coudisalvo في القرن الثاني عشر، وكانوا يهتمون بترجمة الأعمال العربية إلى اللاتينية وإلى العربية والإسبانية، وحتى القرن السابع عشر كانوا يعنون بدرجة رئيسية في مجالات الطب وعلم الدواء (الصيدلة) وكانت هذه الكتب تستخدم في الجامعات الأوربية.

وكان تكنيك صناعة الورق الذي تطور في الصين قد وصل في القرن الثاني عشر عبر سمرقند إلى مراكش ومنها إلى إسبانيا. وطواحين الورق (ورشة لإنتاج الورق، أي أقل من مصنع يتجنب المؤلف تضخيم الأشياء ـ المترجم) قد يسّر طرح مادة رخيصة للكتابة وبكميات كبيرة ومكّنت الفرصة من أجل إنتاج واسع من الكتب. ومنها صار هناك سوق للكتب والمكتبات الخاصة ومكتبات الجامعات في البلاد الإسلامية العربية. وهكذا تنقل لنا الأخبار أن مكتبة عبد الرحمن الثالث كانت تضم 400،0000 مجلد. وتملأ فهارس المكتبة وحدها 44 مجلداً. ثم انتقلت أسرار صناعة الورق من خلال العلاقات الثقافية مع إسبانيا والمغرب في القرن الثالث عشر إلى إيطاليا(للمرة الأولى كان في شباط 1276).

وربحت جنوب أوربا بصورة رئيسية وقبل غيرها، من صناعة النسيج الإسبانية التي كانت مزدهرة في كل العهود، وبفضل تأثيراتها تطور في جنوب فرنسا صناعة النسيج وهذا الأمر ينطبق أيضاً مع الصناعات الجلدية ومنتجاتها التي كانت في إسبانيا ومراكش قد وصلت إلى مرحلة متطورة. وتضم اللغة الفرنسية اليوم مصطلح كوردونيري Cordonnerie وهي شهرة صناعة الأحذية في قرطبة.

وتتمثل المساهمة الحاسمة التي قدمها المغرب الإسلامي هي فيما يسمى بتطور الأرقام العربية في أوربا. بعد أن تعرف الخوارزمي في القرن التاسع بعبقرية على الشكل الرئيسي للأرقام

الهندية واستخدامها و كانت مستخدمة في إسبانيا وهي شبيهة بالأعداد الأوربية الحالية، وقد طورت هذه الأعداد من قبل الأستاذ الأوربي جيربرت Gerbert 930 - 1003 الذي أصبح لاحقاً البابا سلفستر الثاني ثم بدأت بالاستخدام في أوربا تدريجياً.

وسكن عالم الرياضيات الإيطالي ليوناردو فيبوسي 1170 - 1240 وهو من بيزا لفترة طويلة في شمال أفريقيا(تيجي) ثم ساعدهم في زحفهم المنتصر إلى أوربا.

وكان هناك أيضاً الفلكي الرزكالي المولود في قرطبة1029 - 1087 المعروف في أوربا كطبيب، ومن أهم الفلكيين في ذلك الوقت حيث عمل في طليطلة المركز الروحي السابق لإسبانيا، وقد حضي بتقدير كبير لدى كوبرنيكوس لدقة وضبط أعماله بجدية وطرح نظريته من خلال الملاحظات ومن خلال اختراعه للعديد من الآلات الفلكية.

ويعتبر (الزهراوي) المتوفى عام 1013 بحق أكبر الأطباء المسلمين في إسبانيا والذي عاش في بلاط الخليفة الأموي الحكم الثاني. وقد دخل هذا العالم كجّراح ممتاز في موسوعة الطب بكتابه المشهور"كتاب التصريف لمن أجاز التأليف" . وقد ترجم هذا الكتاب في أوربا من قبل العلماء ومنهم جيراردو دي كريمونا Gerardo di Cremona 1114 - 1187 وظل معتمداً في الجامعات الأوربية لعدة قرون كمادة تدريسية في قسم الجراحة وعلم الأدوية والصيدلة.

وكان علم الصيدلة مترابطاً بصفة وثيقة مع علم النبات فمن الممثلين الرائعين لهذه العلوم، العالم ابن البيطار من ملقا المتوفي عام 1248، الذي وصل بسفره إلى مصر واليونان وإلى آسيا الصغرى وكان يجمع النباتات التي تساعد على الشفاء، ومن أهم أعماله هي أبحاثه في الأدوية التي وضعها في اثنين من أعماله المهمة ونظمها في كتابه " كتاب الجامع في الأدوية المفردة" وفيها يستعرض أكثر من 1400 صنفاً من الأدوية منها حوالي 300 غير معروفة.

ويظهر ابن سينا مثالاً عن قدم العلاقة بين العلوم الطبيعية والفلسفة عند مفكري المذهب العقلاني العربي ـ الإسلامي وكم هي وثيقة. و لم يكن فلاسفة المسلمين في شمال أفريقيا وأسبانيا كذلك ليستثنوا من ذلك، والأهم والأعظم بينهم كان ابن رشد الذي طور الأعمال التي كان قد قام بها أشهر العلماء الذين كانوا قد سبقوه أو عاصروه إلى أعلى درجات التطور. وهنا وقبل كل شيء العالم ابن باجة المولود في سراغوستا 1106 - 1185 الذي كان في بلاط الموحدين في فاس. والكتاب الوحيد الذي نشر عنه، رواية " حي بن يقظان" الذي ترجم عام 1671 إلى اللغة اللاتينية من قبل بوكوك Pocock . وقد ضمنها ابن طفيل آراءه الفلسفية والنظرية التي ثمنت عالياً.

وهؤلاء جميعاً وكذلك الفيلسوف اليهودي الميموني 1135– 1204، والعالم الرائع ابن رشد المولود في قرطبة، 1126– 1198، الذي كان ذو فاعلية و استدعى إلى فاس من قبل المنصور(من حكام الموحدين) في عام 1182 كطبيب. وكان قد عمل في مدينته وكذلك في سفيليا كقاضي وكناقد وعالم لأرسطو. وللفارابي، ولابن سينا وابن طفيل، وتمكن من تطوير نظامه الفلسفي الخاص، (الرشدية) Averroismus وهي ذات تأثير عظيم على المفكرين التقدميين الأوربيين في العصور الوسطى.

وكانت نقطة الانطلاق في فلسفته العقلانية في الاعتراف بالمادة كأساس للأشياء. وبالنسبة له كان الله هو الوجود وهو وحده بإمكانه الخلق عندما يكون مصدر الإمكانية متوفراً وهو المادة. وقد رفض ابن رشد بصفة خاصة الدوغماتية التي طرحها الغزالي كممثل للاتجاه الديني

المتشدد" استقرار عمل الكون(الخليقة) وكان يدعى على العكس من ذلك أنه ليس شيئاً مطلقا وإنه لا توجد نهاية مطلقة، بل يوجد فقط التغير الذي تفرضه الحتميات التي تقوم عليها الطبيعة.

والمحتوى والشكل في وجهة نظره شيء لا ينفصل. وبرأيه فإن المادة تضم جميع الأشكال وتنتجها من ذاته بنفسها. وانطلاقا من ذلك طوّر نظرية ابن طفيل التي يؤكد فيها الوحدة بين الإمكانات(القدرات) والواقع المتحقق، وإن العلاقات فيما بينها تجاه بعضها البعض هي نسبية. أو أن الكون موجود إلى الأبد ويجب على كافة الفرص تتحقق مرة.

وعلوم ابن رشد في مجال الفلك قادته إلى نتيجة أن أعاد لها قدرة الحركة الخاصة بها، التي ليس لها بداية ونهاية, ثم توصل إلى الاستنتاج المهم أن الحركة الأبدية و الخلق هي صفات الواقع الموضوعي للمادية.

إن نظريات ابن رشد في المعرفة هي تطوير لما كان ابن سينا وابن طفيل قد أدركه. وبحسب رأي ابن رشد، أن عملية المعرفة تبدأ مع الشعور والإحساس بواقع الأشياء ومنها العقلنة في مفهومها المجرد.

وآراء ابن رشد السياسية مترابطة مع الفارابي وابن باجة، وهو رأى في هذا الجانب أن السعادة الخالصة للإنسان إنما تكمن في معرفته لجوهر الأشياء. وفي هذا الشأن أظهر نفسه باعتباره أول مفكر كان ضد احتقار المرأة ومكانتها في المجتمع العربي الإسلامي في العصور الوسطى التي لا تسمح لها بإظهار وإثبات قدراتها فيه.

وقد أثرت الآراء الفلسفية لابن رشد بشكل بليغ على الأقطار الاجتماعية في العصور الوسطى الأوربية، وزيكر فون برابانت Siger von Brabant 1240 - 1282 وبويتيوس فون داكين Boetius von Dakien استندوا إلى أفكار ابن رشد في صراعهم مع توماس الأكويني Tomas von Aquin والبرتو ماغنوس Albertus Magnus والفلاسفة روجر باكون Roger bacon 1219 -1294وبيترو بومبونازي Pitro Pomponazzi ولوسيليو فانيني Lucilio Vanini 1619 - 1585 وثمّن الفلاسفة الماديون الإنكليز في القرن السابع عشر وقدروا الإرث الفلسفي الثري لابن رشد. وكان ابن رشد قد تصدى في بلاده الأندلس لمقاومة سيادة الإقطاع وللمتشددين الإسلاميين الذين نفوه من إسبانيا عام 1194 ولاحقاً تعرضت ربما كتبه وأعماله للحرق.

وقد حاز اسم ابن خلدون في مجال التاريخ وهو المولود في تونس 1382 - 1406، حاز على إرث الفلاسفة العظام العرب والمسلمين. وقد اكتسبت آراؤه من خلال سفراته الكثيرة وبتعدد المهمات السياسية بعداً تاريخياً ضمنها في عمله الرئيسي "كتاب العبر" والجزء الأول منه هو "المقدمة" أسست مجده كمفكر اجتماعي.

وينال ابن خلدون الفضل والاستحقاق بأنه أول مؤرخ عربي / مسلم استطاع أن يستخدم نظريات الفلسفة المادية للكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد وآخرين غيرهم في تفسير الظواهر في المجتمعات الإنسانية. وفي كتابه "المقدمة" طرح نبذة اجتماعية نظرية حتمية التطور التقدمية للمجتمعات السفلى إلى العليا التي تتحقق من خلال تطور شكل النشاط الإنتاجي والإنساني.

وبالنسبة لابن خلدون، فإن الحياة في المجتمع البشري ليست تراكم تصادفي من الحقائق والأحداث، بل إن هناك قوانين تسيطر على الأشياء إنها ليس ساكنة، بل إنها خاضعة لتحولات

دائمة. هناك حركة تشكيلات(تكونات) مستمرة دائمة لإمبراطوريات ومجتمعات، وهي مستقلة عن التدابير فوق الطبيعية(ميتافيزيقية) هذا التطور الحتمي خاضع للحياة المادية للمجتمع والحتمية وليس شيء آخر هو مصدرها.

ويوضح ابن خلدون أن الأشكال المختلفة للحياة الاجتماعية ناجمة عن تطور الإنتاج، وإنه يلاحظ اتحاد البشر ضمن مسيرة العمل بوصفها شرط القوة للتغيرات الهائلة في أنماطهم. ولوقت طويل اعتبرت الإنجازية العلمية العظيمة لابن خلدون مناقضة للفلاسفة العرب والمسلمين. وما زالت حتى اليوم تحوز القيمة العالية لما توصل إليه ابن خلدون لدى المؤرخين والفلاسفة وعلماء الاجتماع التقدميين في جميع أرجاء العالم.

وكان الرحالة ابن بطوط 1303 - 1373 المولود في طنجة أحد معاصري ابن خلدون البارزين، الذي أوصلته رحلاته الطويلة إلى الهند والصين وإلى سومطرة وإلى أعماق أفريقيا. وبدأ عندما عاد إلى مراكش وبتكليف من الحاكم المارني ابن عنان، بإملاء تقارير عن أحداث رحلاته ومشاهداته على جوزي الغالب(المتوفي 1356)، ثم نشرها وقد اشتملت على تقارير من رحالة آخرين لا يقلون أهمية، مثل: ابن جبير 1145 - 1217، في كتابه"تحفة النظار في غرائب الأمصار وغرائب الأسفار" والتاريخ يشكر ابن بطوطة على الأخبار الفائقة القيمة عن العلامات الاجتماعية في أفريقيا القديمة.

ويعد الإدريسي من أهم الجغرافيين وعلماء الخرائط في ذلك العصر وهو ينتمي إلى عائلة الأدارسة(قرشيين هواشم) الذين حكموا المغرب ولد في سويتا، ودرس وتعلم في قرطبة، وكان الجزء الأعظم من حياته وأعماله في باليرمو(عاصمة صقلية) في بلاط الملك النورماندي روجر الثاني Roger ملك صقلية. وبناء على طلبه ألف الإدريسي أهم أعماله بما في ذلك " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" ويدعى أيضاً كتاب الروجر. والكتاب يحتوي على صفحات فضية منقوش عليها خارطة العالم وكذلك تضم حشداً من المعلومات والإيضاحات والمعالجات الجغرافية، وتضم بشكل خاص الخرائط التي أصبحت لاحقاً مشروع خرائط ميركاتور Mercator وفيها إيضاحات عن صورة أوربا في ذلك الوقت.

وقد تركزت إنجازات الشعوب الإسلامية في شمال أفريقيا وأسبانيا في مجالات الأدب والفن وقبل كل شيء في الفن المعماري وكذلك في التكنيك والعلوم الطبيعية والعلوم الروحية. وعلى الرغم من أن البداية كانت قوية تحت تأثير الأدب العربي المشرقي فقد تطورت في أسبانيا أشكال أصيلة توفر المناسبة للحديث عن أدب عربي / أندلسي، ونؤشر هنا في المجال المساهمات الفريدة من عناصر الشعر الشعبي المتغلغلة، التي تبرز بدرجة رئيسية بشكل لغة شعرية. وقد تحقق هذا النمط في القرن التاسع وكان يقابل في المشرق العربي شعر "القصيدة" تحت تأثيرات الشعر الشعبي الروماني الذي سمي "الموشح" وهي مقاطع شعرية انسلخت عن الزجل في القرن الثاني عشر. وتضم هذه المقاطع الشعرية من الشعر الدرامي الموشح في هيكلها، بحيث تظهر بشكل مقنع تأثير ونفوذ الشعر الشعبي الإسباني، وفوق كل اعتبار التقاليد الكلاسيكية للشعر العربي التي تضم عناصر من اللغة العامية العربية - الأندلسية، المتأثرة بالبربرية والرومانية. ومن أروع من يمثله، هو الشاعر القرطبي ابن كوزمانIbn Quzman 1080- 1160 وهو مغني متجول يغني للحب والخمر. وقد مارس الزجل الشعري الأندلسي تأثيراً ونفوذاً معيناً على الشعر الشعبي الإيطالي وعلى المتحدثين بلغة بروفينتسال (وهي لغة الرومان الغربية، وكانت تشمل العديد من المناطق الأوربية - المترجم) والتي بدورها أثرت على أساطير الحب الألمانية.

ومن المفترض أن القافية قد انتقلت من الشعر العربي إلى الشعر الروماني. وقد استخدم المغني المتجول ابن كوزمان في أغانيه العود لعزف الموسيقى لمرافقته مع الكلمات في زجله والذي أصبح من الآلات المفضلة لدى الأوربيين والمغنيين الشعريين.

ومما يستحق الذكر بصفة خاصة هي الإنجازية الخلاقة لشعوب شمال أفريقيا وأسبانيا التي أضافتها إلى الفن العربي ـ الإسلامي في منطقة البحر المتوسط لا سيما في مجال المعمار. وحكام شمال أفريقيا وأسبانيا في تأسيسهم لأبنية فخمة، قصور، جوامع، حصون، مدارس، والتي تمثل إلى يومنا شواهد على جمال البناء والمعمار.

وإلى أسبانيا تسللت عناصر من الأنماط المغربية كما تداخلت الأنماط الغوطية، والرينسانس(عصر النهضة) سوية وكونت معاً نمطاً جديداً يطلق عليه موزأرابيان Mozarabian وموديارستيل Mudjarstil وهو ما يفصح عن نفسه قبل كل شيء من خلال استخدامات العديدة لقوس الحدوة، وزخارف الجبس والمنارات الغليظة المستطيلة الشكل. ومن أهم الآثار المعمارية التي مازالت موجودة حتى اليوم والتي تعود إلى القرن الثامن، الجامع الأموي الكبير في قرطبة والذي بُني في عهد الموحدين، الجيرالد في سيفيليا في القرن الثاني عشر، وقصر الحمراء لملوك الناصريين في غرناطة الذي بُني في القرن 14/13 والذي مثّل فن الروكوكو العربي.

ومن الشواهد الأخرى على تداخل الفنون في شمال أفريقيا هي من بين كثير غيرها: المنارة القرطبية التي بنيت في القرن الثاني عشر في عهد الموحدين(المنصور) في مراكش، وكذلك جامع حسن الذي شيد في عهد المارنيين(أبي يعقوب) في القرن الثالث عشر في الرباط.

ومن الآثار التي تدل أيضاً على التطور العالي في شمال أفريقيا وأسبانيا، أعمال الحفر والنقش على العاج والخشب والأعمال الفنية ومنها الأعمال الحديدية(الأسلحة) والخزف (السراميك) والمنسوجات. والفن الماوري(العربي الإسلامي الأندلسي) Maure في المعمار مارس نفوذاً قوياً عبر أسبانيا وصقلية على أوربا في العصور الوسطى ولا سيما في إيطاليا.

إجمالي الفصل

مثّل تاريخ مسلمي شمال أفريقيا حتى تاريخ احتلالها من قبل العثمانيين وكذلك لشبه الجزيرة الأيبربية(أسبانيا والبرتغال) الأهمية الفائقة كفصل إسلامي في الأندلس، وتطرح نفسها في بعض الأحيان مضطربة متداخلة متعددة الوجوه من خلال تأثير عوامل متغيرة.

وكانت المساعي من أجل الحكم الذاتي للقبائل البربرية والعربية، والتجزيئية الإقطاعية أيضاً، تشتد مترافقة مع الانتفاضات والحركات الاجتماعية للمضطهدين من الجماهير العربية وغير العربية. وبتأثير من مساعي (الاستعادة) والتي بتأثيراتها المتبادلة أدت إلى تمزقات الكثير من الدول التي كانت تشتد فيها التوجهات الاستقلالية والأملاك الإقطاعية.

وفي القرن الثامن كان مسلموا شمال أفريقيا وأسبانيا قد قدّموا مشروعاً لمساعي المركزية من قبل العوائل الإسلامية وتمكنت الجيوش البربرية التي زحفت من شمال غرب المناطق الجبلية، وهم من القبائل القوية، وكان الموحدون قد تمكنوا من إخضاع المنطقة الواسعة تحت سيادة ونفوذ هذه القبائل.

وكان عدم الاستقرار الداخلي بعد سقوط دولة الموحدين التي نهضت بدلاً منها إمارات إقطاعية وكذلك الصراعات الحربية التي لا نهاية لها بينهم، سهّلت ومنذ القرن الرابع عشر غزوات الإسبان والبرتغاليين وأخيراً العثمانيين. وبعد العام الذي اكتشفت فيه أميركا وانهيار دولة الناصريين في غرناطة كان آخر وجود لمعسكر إسلامي في إسبانيا قد تمت تصفيته.

وقاد القراصنة العثمانيون عملية إخضاع شمال أفريقيا تحت سيادة الباب العالي باستثناء مراكش حتى أواسط النصف الثاني من القرن السادس عشر، ويحتمل أن صفحات عديدة من التاريخ المتقلب لهذه المنطقة قد بهت، ولكن مسألة الدور العظيم لمسلمي شمال أفريقيا وأسبانيا تبقى غير قابلة للنسيان في إطار علاقاتهم الوطيدة وبدرجة رئيسية بالمدن الفرنسية والإيطالية كوسطاء للمنجزات والمكتسبات العربية الإسلامية الثقافية وإيصالها إلى أوربا في العصور الوسطى.

أسماء مؤلفي مراحل الكتاب

الفصل الأول :
1. مانفرد مولر.
2. هولغر برايسلر.
3. غيرهارد هوفمان.
4. هولغر برايسلر.

الفصل الثاني :
1. هولغر برايسلر.
2. غيرهارد هيب.
3. هولغر برايسلر.
4. هولغر برايسلر.

الفصل الثالث :
1. هولغر برايسلر.

الفصل الرابع :
1. غيرهارد هوفمان.

الفصل الخامس :
1. غيرهارد هوفمان.

الفصل السادس :
1. غيرهارد هيب.